ألكس ميكايليديس

قائمة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً

المريضة الصامتة

رواية

هي الوحيدة
التي تعرف
ما حدث

أنا الوحيد
الذي يمكنه
جعلها تتكلم


المركز الثقافي العربي

مكتبة | 600

ألكس ميكايليديس

المريضة الصامتة

الكتاب
المريضة الصامتة
تأليف
ألكس ميكايليديس
ترجمة
محمد مفضل
الطبعة
الأولى، 2020
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-945-6

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 ـ 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
Alex Michaelides
The Silent Patient

تصميم الغلاف: آن تومي
صورتا الغلاف:
المرأة: إيفان أوزيروف
اللوحة: هيرمان إستيفيز وآن تومي

ألكس ميكايليديس

مكتبة | 600

المريضة الصامتة

رواية

ترجمة: محمد مفضل



المركز الثقافي العربي

لكن لماذا لا تتكلّم؟

يوربيديس، **ألسيستيس**

استهلال

يوميّات أليسيا بيرينسون

14 يوليو

لا أعرفُ لماذا أكتب هذا.

ليس صحيحاً. ربما أعرف فعلاً، ولا أريد الاعتراف بذلك لنفسي.

إنني حتى لا أعرفُ ما أسميه - هذا الشيء الذي أكتبه. سيكون في الأمر شيء من الادّعاء إذا ما سمّيته «مذكّرات». ليس الأمر وكأن لدي شيء أقوله. واظبَت آن فرانك على كتابة المذكّرات، وكذلك فعل صموئيل بيبس - لكن ليس شخصاً مثلي. تبدو تسميته بـ«دفتر اليوميّات» أكاديمية جداً، بطريقة ما. وكأني سأكتب كل يوم، ثم إنني لا أريد ذلك - إذا أصبح عملاً روتينياً، فلن أستطيع أبداً الاستمرار فيه.

ربما لن أمنحه أي اسم. إنه شيء من دون اسم، أكتب فيه من حين إلى آخر. أفضِّل ذلك أكثر. حالما تمنح اسماً لشيء ما، فإنه يمنعك من رؤيته في كلّيته، أو رؤية لماذا هو موجود أصلاً. تركِّز على الكلمة؛ التي هي تماماً الجزء الأصغر، فعلاً، هي الجزء البارز من

جبل الجليد. لم أكن أبداً ذلك الشخص المُرتاح للكلمات - أفكِّر دائماً في الصور وأعبِّر عن نفسي من خلال الصور - لم أكن لأبدأ إذاً كتابة هذا، لو لم تكن من أجل غابرييل.

شعرتُ بالاكتئاب مؤخَّراً حول بعض الأشياء. ظننتني أفعل شيئاً جيداً بإخفائه، لكنه لاحظ ذلك - طبعاً لاحظ، إنه يلاحظ كل شيء. سألني كيف أتقدّم في إنجاز اللوحة - أجبته بأنني لا أتقدّم. جلب لي كأساً من النبيذ، وجلست بالقرب من مائدة المطبخ بينما هو يطبُخ.

أحبُّ أن أشاهد غابرييل يتحرّك في أرجاء المطبخ. إنه طبّاخ رشيق - أنيق، يتحرّك كراقص باليه ومنظَّم. إنه مختلف عني. أنا فقط أخلقُ فوضى عارمة.

«تكلمي معي»، قال لي.

«ليس هناك شيء أقوله. أحياناً أحسُّ أن عقلي يتوقف عن التفكير. أحسُّ وكأنني أتقدّم بصعوبة في الوحل».

«لماذا لا تحاولين الكتابة؟ لتحتفظي بنوع من سجلّ للأحداث؟ ربما يساعدك ذلك».

«نعم، أظنُّ ذلك. سأحاول».

«لا تقولي ذلك فقط، عزيزتي. افعليه».

«سأفعل».

استمرَّ في مناكدتي لكنني لم أفعل شيئاً بشأنها. بعد بضعة أيام قدّم لي دفتراً صغيراً لأكتب فيه. كان له غلاف جلدي أسود وفي داخله صفحات بيضاء سميكة فارغة. مرّرتُ يدي على الصفحة الأولى، وأحسستُ بنعومتها - شحذتُ قلمَ الرصاص وبدأت.

كان محقّاً بالتأكيد. شعرت بتحسُّن في ذلك الحين - منحتني

الكتابة نوعاً من الارتياح، منفذاً، فضاءً للتعبير عن الذات. شيء يشبه العلاج على ما أظن.

لم يقل غابرييل شيئاً لكني كنت أستطيع أن أقول أنه مهتم بي. وإذا أردت أن أكون صادقة - ويمكن أيضاً أن أكون كذلك - فالسبب الحقيقي الذي جعلني أواظب على كتابة يوميّاتي هو الرغبة في طمأنته - للتأكيد له على أنني بخير. لا أحتمل رؤيته وهو قَلِقٌ من وضعي. لا أريد التسبّب له أبداً في أي حزن أو أن أجعله تعيساً أو أسبّب له الألم. أحبُّ غابرييل جداً. إنه من دون شكّ حبّ حياتي. أحبه تماماً وبكل معنى الكلمة، أحياناً يتوعّدني حبه بالسحق. أفكر بذلك أحياناً -

لا. لن أكتب عن ذلك.

سيكون هذا تدوينٌ مرحٌ للأفكار والصور التي ألهمتني فنّياً، أشياء لها عليّ تأثير إبداعي. سأكتب فقط أفكاراً إيجابية، بهيجة وعادية.

الأفكار المجنونة غير مسموح بها.

الجزء الأول

هذا الذي له عينان يرى بهما وأذنان يسمع بهما، يمكنه أن يُقنع نفسه بأنه لا يوجد بشر قادر على الحفاظ على السرّ. إذا كانت شفتاه صامتَتين، فإنه يثرثر برؤوس أصابعه؛ تتسرّب الخيانة منه من كل مسامّ.

سيغموند فرويد، **محاضرات تمهيدية حول التحليل النفسي**

1

كان عمر أليسيا بيرينسون ثلاثة وثلاثين سنة عندما قتلت زوجها.

كانا متزوجَين لمدة سبع سنوات. كانا كلاهما فناناً - كانت أليسيا فنانة تشكيلية وكان غابرييل مصوّر موضة مشهوراً. كان له أسلوب متميّز، كان يصوّر نساء نحيفات جداً وشبه عاريات من زوايا غريبة وغير مُجامِلة. منذ وفاته ارتفع ثمن صوره بطريقة فلكية. أجدُ أعماله، بكلّ صراحة، نوعاً ما سهلة وسطحية. لا تتوفّر على أي من خاصّيات العمق التي تتوفّر عليها أحسن أعمال أليسيا. طبعاً ليست لدي معرفة كافية بالفنّ لأحكم ما إذا كانت أليسيا بيرينسون ستبقى مشهورة كفنانة تشكيلية. ستتأثّر موهبتها دائماً بسُوء سمعتها، وعليه فمن الصعب أن أكون موضوعياً. ويمكنك أيضاً أن تتّهمني بأنني مُنحاز. كل ما يمكنني أن أقدّمه هو رأيي، كل رأي حسب قيمته. وبالنسبة إليّ، كانت أليسيا عبقرية. بالإضافة إلى مهارتها التقنية، كانت للوحاتها قُدرة خارقة على الإمساك باهتمامك - من الحنجرة، تقريباً - وإمساكه بقبضةٍ قوية.

قُتل غابرييل بيرينسون قبل ست سنوات. كان عمره أربع

وأربعين سنة. قُتل يوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس - كان على غير العادة صيفاً حارّاً، يمكنك أن تتذكر، مع بعض أعلى درجات الحرارة التي لم يسبق أبداً تسجيلها من قبل. كان يوم موته الأكثر حرارة في السنة.

في اليوم الأخير من حياته، استيقظ غابرييل مبكِّراً. أقلّته سيارة على الساعة 5:15 صباحاً من المنزل الذي يتقاسمه مع أليسيا في الشمال الغربي للندن، على تخوم حديقة هامبستيد هيث، وقادته إلى شورديتش ليصوِّر هناك. قضى اليوم في تصوير عارضات أزياء على سطح لفائدة مجلة فوغ.

لا يُعرف الكثير عن تحرّكات أليسيا. كان ينتظرها معرض قادم وكانت متأخِّرة في عملها. من المحتمل أنها قضت النهار وهي ترسم في الدار الصيفية في نهاية الحديقة، التي حوّلتها مؤخّراً إلى مرسم. في الأخير، بقي غابرييل منهمكاً في التصوير حتى وقت متأخّر ولم تُوصِله السيارة إلى المنزل حتى 11 ليلاً.

نصف ساعة بعد ذلك، سمعَت جارتهم، باربي هيلمان، عدة طلقات نارية. أخبرَت باربي الشرطة بالهاتف. أُرسلت سيارة على وجه السرعة من مفوضية الشرطة الموجودة في هافرستوك هيل على الساعة 11:35 مساء. وصلَت إلى منزل بيرينسون في أقل من ثلاث دقائق.

كان الباب الأمامي مفتوحاً وكان المنزل يعمّه ظلام شديد السواد. لم تكن المفاتيح الكهربائية للأضواء تعمل. تحسّس الضبّاط طريقهم عبر المدخل إلى غرفة الجلوس. أشعلوا مصابيحهم لاستكشاف الغرفة، أضاؤوها بأشعّة متقطِّعة من الضوء. تمَّ اكتشاف أليسيا وهي واقفة بجانب المدفأة. فستانها الأبيض يلمعُ مثل شبحٍ في

ضوء المصباح. بدت أليسيا غير واعية بحضور الشرطة. كانت ساكنة، مجمّدة - تمثال نُحت من جليد - ارتسمت نظرة غريبة ومرعوبة على وجهها، وكأنها تواجهُ رُعباً ما غير مرئي.

كان هناك مسدّس مرمياً على الأرض، بجانبه، وفي الظلال، كان غابرييل جالساً، من دون حركة، مقيَّداً إلى كرسي بسلك مَلفُوف على كاحلَيه ومعصمَيه. اعتقدَ الضبّاط في البداية أنه ما زال حياً. كان رأسه متدلّياً قليلاً إلى جانب واحد، وكأنه فاقد للوعي. بعد ذلك كشفَ شُعاع من الضوء أن غابرييل تعرّض لعدة طلقات في وجهه. ذهبَت ملامحه الجميلة إلى الأبد، تاركة ركاماً متفحّماً أسود وملطّخاً بالدماء. كان الحائط وراءه مرشوشاً بشظايا من الجمجمة والمخّ والشعر والدم.

كان الدم في كل مكان - متناثراً على الحائط، ويجري في جداول سوداء على الأرض، على طول سطح الأرضية الخشبية. افترض الضبّاط أن الدمَ دم غابرييل. لكن الدم كان كثيراً جداً. ثم بعد ذلك لمع شيء تحت ضوء المصباح - كان هناك سكّين على الأرض قُرب قدمَي أليسيا. كشف شعاع آخر من الضوء الدمَ الذي رشَّ فستان أليسيا الأبيض. مسكَ ضابط يدَيها، ورفعهما إلى مستوى الضوء. كانت هناك جروح غائرة عبر الشرايين في معصميها - جروح جديدة، تنزفُ بقوة.

صدّت كل محاولات إنقاذ حياتها؛ تطلّب الأمر ثلاثة ضبّاط لكبحها. نُقلت إلى مستشفى رويال فري في بضع دقائق فقط بعد ذلك. انهارَت وفقدَت وعيها في طريقها إلى هناك. فقدَت الكثير من الدم لكنها بقيت على قيد الحياة.

في اليوم الموالي، كانت مستلقية على سرير في غرفة خاصة

بالمستشفى. استجوبتها الشرطة بحضور محاميها. بقيت أليسيا صامتة طوال الاستجواب. كانت شفتاها شاحبتَين، من دون حياة. كانتا ترفرفان من حين إلى آخر لكنهما لم تشكّلا كلمات ولم تصدرا أصواتاً. لم تجب عن أي سؤال. لم تكن تقدر، ترغب، في الكلام. ولا تكلّمت عندما اتّهموها بقتل غابرييل. بقيت صامتة عندما اعتقلوها، رافضة إنكار التُّهمة أو الاعتراف بارتكاب الجريمة.

لم تتكلم أليسيا أبداً بعد ذلك.

حوّل صمتها المستمرّ قصّتها من مجرد تراجيديا عائلية عادية إلى شيء أكبر بكثير: قصة غامضة، لغز هيمنَ على العناوين الرئيسة في الإعلام واستحوذَ على خيال الناس خلال شهور لاحقة.

بقيت أليسيا صامتة - لكنها قدّمت تصريحاً واحداً. لوحة. بُدأت عندما أخرجوها من المستشفى ووضعوها رهن الإقامة الجبرية قبل المحاكمة. حسب الممرِّضة المختصّة في الطبّ النفسي والمعيَّنة من طرف المحكمة، لم تأكل ولم تنم إلا على نحو هزيل، كل ما كانت تفعله هو الرسم.

في العادة كانت أليسيا تشتغلُ لأسابيع وحتى لشهور قبل الشروع في لوحة جديدة - القيام برسوم تخطيطية بلا انقطاع، ترتيب وإعادة ترتيب التركيب، التجريب باللون والشكل - حَمْل طويل تتبعه ولادة طويلة لأن كل لمسة فرشاة تُنفَّذ بكلّ عناية. غير أنها الآن غيّرت عمليتها الإبداعية بطريقة جذرية بإنجازها لهذه اللوحة خلال أيام معدودة بعد موت زوجها.

وبالنسبة إلى بعض الناس، كان هذا كافياً لإدانتها - رجوعها إلى المرسَم بعد وقت قصير جداً من موت زوجها كشفَ عن بلادة غريبة في الحسّ. غياب شنيع للندم لدى قاتلة قتَلَت بدمٍ بارد.

ربما. لكن يجب ألّا ننسى أنه إذا كانت أليسيا بيرينسون قاتلة ربما، فإنها كانت أيضاً فنّانة. يبدو الأمر منطقياً - على الأقل بالنسبة إليّ - أن تأخذَ الفُرَش والدهانات وتعبِّر عن مشاعرها المعقّدة على القماش. لا عجب أن الرسم كان في متناولها، ولمرّة واحدة، بكلّ تلك السهولة؛ إذا كان يمكن أن نصفَ الحزن بالسَّهِل.

كانت اللوحة صورة ذاتية. كتبَت عنواناً في الأسفل، في الزاوية اليسرى للوحة، بحروف إغريقية وباللون الأزرق الفاتح.

كلمة واحدة:

ألسيستيس.

2

ألسيستيس هي بطلة أسطورة إغريقية. قصة حب من النوع الأكثر حزناً. تُضحّي ألسيستيس بحياتها من أجل زوجها أدميتوس عن طيب خاطر، تموت بدله عندما لا أحد غيرها يفعل ذلك. أسطورة مقلِقة للتضحية بالذات، ليس واضحاً كيف ارتبَطت بحالة أليسيا. بقي المعنى الحقيقي للتلميح غير معروف لدي لبعض الوقت. حتى ظهرت الحقيقة في يوم من الأيام. . .

لكنني أُسرع جداً. أتقدّم على نفسي. يجبُ أن أبدأ من البداية، وأتركَ الأحداث تتكلّم عن نفسها. لا يجب عليّ أن ألوّنها، أو أحرّفها، أو أن أقول أية أكاذيب. سأتقدّم خطوة بخطوة وبحذر. لكن من أين سأبدأ؟ يجب أن أقدّم نفسي، لكن ربما ليس الآن؛ على أي حال، أنا لستُ بطل هذه الحكاية. إنها حكاية أليسيا بيرينسون، لذا سأبدأ بها - و**بألسيستيس**.

اللوحة هي صورة شخصية، تظهرُ فيها أليسيا في مرسَمها في البيت أياماً بعد جريمة القتل، تقفُ أمام حامل اللوحة وقُماش الرسم، وتحمل فرشاة الرسم. إنها عارية. رُسِم جسدها بأدقّ التفاصيل: جدائل من شعر أحمر طويل تسقط على كتفيها النحيلتَين،

عروق زرقاء ظاهرة من تحت جلدها الشفّاف، وندوب جديدة على معصميها. تحمل فرشاة الرسم بين أصابعها. تقطر منها صباغة حمراء - أو هل هو دم؟ إنها منهمكة في فعل الرسم - ومع ذلك ما زالت اللوحة فارغة، كما هو التعبير الذي على وجهها. رأسها منحنٍ على كتفها، وتحدق فينا مباشرة. فم مفتوح، شفتان منفرجتان. صامتة.

خلال المحاكمة، اتّخذ جان-فيليكس مارتن، الذي كان يسيّر معرض سوهو الصغير الذي كان يمثّل أليسيا، القرار المثير للجدل، الذي شجبه العديد لأنه يبحث عن الإثارة ومروّع، بعرض لوحة **ألسيستيس**. فحقيقة أن الفنانة كانت في ذلك الوقت في قفص الاتّهام بسبب قتل زوجها تعني، لأول مرة في تاريخ المعرض الطويل، أنه كانت هناك طوابير خارج المدخل.

وقفتُ في الطابور مع عشّاق الفن الشهوانيين الآخرين، أنتظرُ دوري بالقرب من الأضواء الحمراء لمصباح النيون للمتجر الذي يوجد بالجوار. مشينا بتثاقل واحداً تلو الآخر. حالما دخلنا إلى المعرض، قادونا جماعة نحو اللوحة، كحشدٍ من الناس سريع الانفعال في أرض لحديقة ألعاب يشقُّ طريقه من خلال منزل مسكون. أخيراً، وجدت نفسي في مقدّمة الطابور - في مواجهة **ألسيستيس**.

حدّقت في اللوحة، وحدّقت بإمعان في وجه أليسيا، محاولاً تأويل النظرة التي كانت في عينَيها، محاولاً أن أفهم - لكن اللوحة تحدّتني. حدقت أليسيا فيّ بدورها - قناع خالٍ من التعبير - لا يمكن قراءته ولا النفاذ إليه. لم أستطع أن أتكهّن لا ببراءتها ولا بذنبها في التعبير الذي يرتسم على وجهها.

وجده ناس آخرون سهل القراءة.

«شرٌّ خالص»، همست المرأة التي كانت خلفي.

«أليس كذلك؟»، وافقت رفيقتها: «عاهرة بدم بارد».

هذا غير عادل إلى حدٍّ ما، فكّرتُ حينها - على اعتبار أنَّ التهمة الموجَّهة إلى أليسيا ما زالت غير مثبتة. لكن في الحقيقة كانت نتيجة متوقّعة مسبقاً. شكّلت الجرائد الشعبية الصفراء صورة لها كامرأة نذلة، امرأة قاتلة. وحش.

الوقائع، كما كانت، بسيطة: وُجدت أليسيا وحيدة مع جسد غابرييل؛ كانت بصماتها فقط على المسدّس. لم يكن هناك أبداً أي شكّ في أنها قتلت غابرييل. بقي سبب القتل، من جهة أخرى، غامضاً.

نوقشت جريمة القتل في وسائل الإعلام. تمَّ تبنّي مختلف النظريات في الصحافة المطبوعة والراديو وفي برامج الدردشة الصباحية.

تمَّ استدعاء خبراء لشرح أفعال أليسيا، شجبها، تبريرها. كانت بالتأكيد ضحية عنف أُسري، بلا شكّ، مورس عليها إلى حدٍّ بعيد، قبل أن تنفجر في الأخير؟ أشارت نظرية أخرى إلى لعبة حميميّة خرجت عن السيطرة - وُجد الزوج مقيّداً، أليس كذلك؟ شكّ آخرون أن الأمر يتعلّقُ بغيرة تقليدية دفعت أليسيا إلى القتل - امرأة أخرى، ربما؟ لكن في المحاكمة، وُصف غابرييل من طرف أخيه كزوج مُخلِص، وأنه كان يعشق زوجته بقوة. حسناً، ماذا عن المال؟ لم تكن أليسيا في وضعية تجعلها ترثُ الكثير بعد وفاته؛ كانت هي التي تملك المال، مالاً ورثته عن أبيها.

وهكذا استمرَّ النقاش، تخمين مستمرّ - لا توجد أجوبة، فقط أسئلة أكثر - حول دوافع أليسيا وصمتها اللاحق. لماذا رفضت أن

تتكلم؟ ماذا كان يعني ذلك؟ هل كانت تُخفي شيئاً ما؟ تحمي شخصاً ما؟ إذا كان الأمر صحيحاً، من هو أو هي؟ ولماذا؟

أتذكر أنني اعتقدت حينها أنه في الوقت الذي كان فيه الكل يتكلّم ويكتب ويناقش موضوعَ أليسيا، كان يوجد في قلب هذا النشاط المحموم والصاخب فراغ، صمت. تمثال سفينكس.

خلال المحاكمة، لم يكن القاضي يقبلُ رفض أليسيا المستمرّ للكلام. يميلُ الناس الأبرياء، كما أشار إلى ذلك القاضي ألفرستون، إلى الإعلان عن بَراءتهم بصوت عالٍ - وغالباً ما يقعُ هذا الأمر. لم تلتزم أليسيا الصمت فقط لكنها لم تبدِ أي إشارة ظاهرة عن الندم. لم تبكِ ولا مرّة واحدة خلال كلّ المحاكمة - وهي حقيقة تناولتها الصحافة كثيراً - بقاء وجهها لا مبالياً، هادئاً. متجمّداً.

لم يكن للدفاع اختيارات كثيرة سوى الدفع بحجّة الخلل العقلي: كان أساس الادّعاء هو أنه كان لأليسيا تاريخ طويل من مشاكل الصحّة النفسية يرجع إلى طفولتها. رفضَ القاضي الكثير من هذه الادّعاءات على أساس أنها إشاعات - لكنه في الأخير سمحَ لنفسه بأن يتأثّر بما قاله البروفيسور لازاروس ديوميديس، أستاذ الطبّ النفسي الشرعي في إمبريال كولدج، والمدير السريري لمصحّة ذا غروف، وهي مركز صحّي مُحكَم للطبّ الشرعي في شمال لندن. بيّنَ البروفيسور ديوميديس أن رفض أليسيا الكلام هو في حدِّ ذاته دليل على محنة نفسية عميقة، وأنه يجب الحكم عليها وفقاً لذلك.

كانت هذه بالأحرى طريقة ملتوية لقول شيء لا يرغب أطبّاء الأمراض النفسية التصريح به علانية:

كان ديوميديس يقول إن أليسيا مجنونة.

كان هذا هو التفسير الذي له معنى: هل هناك سبب آخر يدفع

امرأة إلى تقييد الرجل الذي تحب إلى كرسي، وإلى إطلاق النار على وجهه من مسافة قريبة؟ ثم بعد ذلك لا تُظهر أي ندم، لا تُعطي أي تفسير، ولا حتى تكلّمت؟ من الأكيد أنها مجنونة.

من الأكيد أنها كانت مجنونة.

في الأخير قبلَ القاضي ألفرستون الدفع بالخلل النفسي ونصحَ هيئة المحلّفين أن تسير في الاتجاه نفسه. تمَّ وضع أليسيا لاحقاً في مصحّة ذا غروف، تحت رعاية البروفيسور ديوميديس نفسه الذي كانت شهادته مؤثّرة على القاضي.

الحقيقة هي أنه إذا لم تكن أليسيا مجنونة وكان صمتها مجرّد تمثيل، أي أنه أداء من أجل إقناع هيئة المحلّفين، فهي نجحت إذاً. تجنّبت بذلك حُكماً بالسجن لسنوات طويلة - وإذا واصلت وحصلت على شفاء تام، فيمكن أن يُطلق سراحها بعد بضع سنوات. الآن كان الوقت مناسباً للبدء في التظاهر بالشفاء؟ أن تقول كلمات هنا وهناك، ثم كلمات أكثر بعد ذلك؛ أن تُعبّر تدريجياً عن نوع ما من الندم؟ لكن ذلك لم يحدث. أسبوع بعد أسبوع، شهر بعد شهر، ثم مرّت أعوام - ورغم ذلك لم تتكلّم أليسيا.

كان ذلك صمتاً واضحاً.

وتبعاً لذلك، ونظراً إلى عدم وجود أي أخبار جديدة، فقَدَ الإعلام المثبَط أي اهتمام بأليسيا بيرينسون. التحقت بلائحة القتلة الذين اشتهروا لبعض الوقت؛ وجوه نتذكرها لكن أسماءها محاها النسيان.

يجب أن أقول أن هذا لم يكن صحيحاً بالنسبة إلى الجميع. استمرَّ بعض الناس، بما فيهم أنا، في الإعجاب بأسطورة أليسيا بيرينسون وصمتها المتواصِل. كان واضحاً لي، كمعالِج نفسي، أنها

عانت من صدمة قوية بسبب موت غابرييل؛ وكان هذا الصمت تعبيراً عن هذه الصدمة. لأنها لم تستطع استيعاب ما فعلَت، فقد فأفأَت ووقفَت، كسيارة معطلة. أردت أن أساعدها على «الاشتغال» من جديد - مساعدة أليسيا على حكي حكايتها، والشفاء والتحسُّن. أردت إصلاحها.

دون أن تكون لي أي رغبة في أن أبدو متبجّحاً، كنت أشعر بأنني الوحيد المؤهّل لمُساعدة أليسيا بيرينسون. أنا معالج نفسي متخصِّص في الطب الشرعي، وتعودت على الاشتغال مع بعض أعضاء المجتمع الأكثر تحطُّماً وضُعفاً. كما أن هناك شيئاً ما في قصة أليسيا يؤثّر فيّ شخصياً - شعرت بتعاطُف عميق معها منذ البداية.

للأسف كنت وقتها أشتغل في برودمور، وكان سيبقى علاج أليسيا - وكان يجب أن يبقى - نزوة عابرة، لو لم يتدخّل القدر بطريقة غير متوقَّعة.

بعد خمس سنوات على إدخال أليسيا إلى المصحّة، أصبح هناك منصب معالج نفسي شرعي متوفّر في مصحّة ذا غروف. حالما رأيتُ الإعلان، عرفت أنه ليس لدي أي اختيار. تشجّعت وقدّمت طلباً للحصول على هذا المنصِب.

3

اسمي ثيو فابر. عمري اثنتان وأربعون سنة. وأصبحت معالجاً نفسياً لأنني كنت أشعر بالضياع. هذه هي الحقيقة - رغم أن هذا ليس هو ما قلته خلال مقابلة شغل المنصب، عندما طُرح عليّ السؤال.

«ما هو في رأيك السبب الذي جذبك إلى العلاج النفسي؟»، سألتني إنديرا شارما، وهي تحدق فيّ من خلف حافة نظارتها الشبيهة بالبُومة.

كانت أنديرا مستشارة للعلاج النفسي في ذا غروف. كانت في أواخر الخمسينيات من عمرها بوجه دائري جذّاب، وشَعر طويل وأسود جداً تتخلّله خطوط رمادية. ابتسَمت في وجهي ابتسامة خفيفة - وكأنها تطمئنني بأنَّ السؤال سهلٌ، قذف تمهيدي، يسبق القذائف الصعبة التي ستلي.

تردّدتُ. كنت أحس بأن أعضاء اللجنة الآخرين ينظرون إليّ. كنت أدرك أنه يجب عليّ الاحتفاظ ببصري موجّهاً نحوهم وأنا أقدّم جواباً تمرّنتُ عليه، حكاية مناسبة للسياق حول عملي الجزئي في دارٍ للرعاية كمراهِق، وكيف أن هذا العمل ألهمني للاهتمام بعلم النفس،

الأمر الذي دفعني بدوره إلى الدراسات العليا في العلاج النفسي، وما شابه.

«أعتقد أنني كنت أريد مساعدة الناس»، قلت رافعاً كتفيّ. «هذه هي الحقيقة».

كان ذلك مجرّد هراء.

أعني أنني بالطبع كنت أريد مساعدة الناس. لكن ذلك كان هدفاً ثانوياً - خصوصاً عندما كنت قد بدأت التعلُّم. كان الحافز الحقيقي محض أنانية. كنت أبحث عن مساعدة نفسية. أعتقد أن الشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى أغلب الناس الذين يدرسون الصحة النفسية. ننجذب لهذه المهنة بصفة خاصة لأننا مدمَّرون - ندرس علم النفس لمعالجة أنفسنا. تبقى مسألة ما إذا كنا مستعدّين للاعتراف بذلك أم لا قضية أخرى.

كمخلوقات بشرية، توجد سنواتنا الأولى في أرض وراء الذاكرة. نحبُّ أن نفكّرَ في أنفسنا كأننا صاعدون من هذا الضباب الأولي بشخصيات كاملة التكوين، كأفروديت وهي تصعد في كمالها من رغوة البحر. لكن بفضل الأبحاث المتزايدة في تطوُّر الدماغ، نعرف أن هذا غير صحيح. نولد بدماغ غير مكتمل التكوين، كقطعة لزجة من الطين أكثر منه كمخلوق إلهي أولمبي. كما عبّرَ عن ذلك طبيب التحليل النفسي دونالد وينيكوت: «ليس هناك شيء اسمه رضيع». لا تتطور شخصياتنا في عزلة عن الآخرين بل في إطار علاقة مع آخر - نشكَّل ويكتمل تكويننا من طرف قوى لا نراها ولا نتذكرها، وبالتحديد آباؤنا.

هذا مرعب لأسباب واضحة - من يعرف عن الإذلال الذي

عانينا منه، عن التعذيب وسوء المعاملة، في هذه الأرض التي توجد وراء الذاكرة؟ تكوّنت شخصيتنا دون حتى أي عِلْم منا. في ما يخصُّ حالتي، فقد نشأت وأنا أشعر أنني عصبي المزاج، خائف وقلِق. كان القلق يبدو أنه سابق عليّ في الزمان، ويوجد في استقلال عني. لكنني أشك أنه كان ناتجاً عن علاقتي بوالدي، الذي لم أشعر أبداً نحوه بالأمان.

كان غضبه غير المتوقّع والمتعسِّف يجعل أي حالة، مهما كانت عادية، حقل ألغام محتمَل. قد تُسبّب ملاحظة غير مؤذية أو صوت معارض غضبه وتتسبّب في سلسلة من الانفجارات التي لا يوجد ملجأ للاحتماء منها. يهتزُّ المنزل لصياحه، الذي كان يطردني إلى غرفتي بالطابق الأول. أندفعُ تحت السرير وأنزلقُ تحته حتى أحاذي الجدار. كنت أستنشقُ الهواء الرطب وأرجو أن تلتهمني الجدران وأختفي. لكن يده تمسكُ بي وتجرّني إلى حيث ألقى مصيري. يُسحب الحزام ويصفّر في الهواء قبل أن يضربني؛ كانت كل ضربة تلي تصفعُ جوانبي وتوجع لحمي. ثم ينتهي الجَلْد فجأة كما بدأ في الأول. يُرمى بي على الأرض لأسقط على كومة مجعّدة. دمية تخلّصَ منها طفل صغير غاضب.

لم أكن أبداً متأكّداً من الشيء الذي فعلته وكان سبباً في غضبه، ولا ما إذا كنت أستحقُّ ذلك. سألتُ أمي عن السبب الذي يجعل أبي دائماً غاضباً جداً مني - كانت تعطيني هزّة كفّ يائسة وتقول: «كيف لي أن أعرف؟ أبوك مجنون تماماً».

عندما قالت إنه مجنون، لم تكن تمزح. لو تمَّ فحصه من طرف اختصاصي في الطبّ النفسي اليوم، فإنني أتوقّع أنه سيتمُّ تشخيص مرضه كاضطراب للشخصية - مرض بقيَ من دون علاج طوال

حياته. كانت النتيجة طفولة ومراهقة هيمنَ عليهما الهستيريا والعنف الجسدي، التهديدات والدموع والزجاج المكسّر.

كانت هناك لحظات سعادة بالطبع، عادة عندما يكون أبي مسافراً. أتذكر ذات شتاء عندما كان في أميركا في سفر عمل لمدة شهر. لثلاثين يوماً، كانت لي ولأمي الحرية التامة للخروج من البيت والحديقة دون مراقبة منه. سقطَ الثّلج بكثافة في لندن في شهر ديسمبر من تلك السنة، ودُفنت كل حديقتنا تحت سَجّادة بيضاء هشّة وكثيفة. صنعتُ أنا وأمي رجلَ ثلج، وسواء كنا واعيَين بذلك أم لا، بنيناه كتمثال لسيّدنا الغائب: سميته «أبي»، وببطنه الكبير، وحجرَين أسودَين للعينَين، وغصنَين مائلَين لحاجبَيه الصارمَين، كان هناك فعلاً تشابُه خارق. استكملنا الوهم بمنحه قفّازَي أبي، قبّعته ومظلته. ثم شرعنا في قذفه بقوة بكرات الثلج، وكنا نقهقه كطفلَين مشاغبَين.

هبّت عاصفة ثلجية قوية تلك الليلة. ذهبَت أمي إلى النوم وتظاهرتُ بالنوم، ثم تسلّلتُ إلى الحديقة ووقفت تحت الثلج. . . . احتفظت بيدَي ممدودتَين أمسك بقطع الثلج وأنظر إليها وهي تختفي على رؤوس أصابعي. كانت لحظة من الفرح والحرمان في الوقت نفسه، لكنها كانت تحوي بعضاً من حقيقة لم أكن أستطيع التعبير عنها؛ كانت لغتي محدودة، وكانت كلماتي شبكة مترهّلة لا تستطيع الإمساك بها. يشبه الإمساكُ بقطع الثلج المتوارية إلى حدٍّ ما الإمساكَ بالسعادة. فعل تملُّك يتحوّل في حينه إلى لا شيء. كان يذكّرني بأن هناك عالَم خارج هذا المنزل: عالَم من الرحابة والجمال لا مثيل له؛ عالم بقيَ، في ذلك الوقت، بعيداً عن متناولي. كانت هذه الذكرى تعود إليّ باستمرار عبر الزمن. وكأن التعاسة التي تحيط بها

تجعل من لحظة الحرية القصيرة تشتعلُ بطريقة أوهج. ضوء صغير جداً وسط الظلام.

أدركت أن أملي الوحيد في البقاء هو الانسحاب - جسدياً ونفسياً. كان عليّ أن أنجو بنفسي وأذهبَ بعيداً جداً. حينها سأكون آمناً. وأخيراً في سنّ الثمانية عشر عاماً، حصلتُ على النقط التي كنت أحتاج إليها لضمان مقعد في الجامعة. غادرت ذلك السجن... في سُري - واعتقدت أنني أصبحت حرّاً.

كنت مخطئاً.

لم أدرك ذلك حينها، لكن بعد فوات الأوان. استبطنتُ والدي، واستدمجته، ودفنته في عمق لا وعيي. مهما هربت بعيداً، كنت أحمله معي أينما ذهبت. كنت مطارَداً من طرف جوقة من نوبات غضب قاسية وكريهة، كلّها بصوته، تصرخ بأنني بلا قيمة، جالبٌ للعار وفاشل.

خلال الفصل الأول في الجامعة، ذلك الشتاء البارد الأول، أصبحَت هذه الأصوات أسوأ، مُحبِطة جداً، وسيطرَت عليّ. أقعدني الخوف عن الحركة، وكنت غير قادر على الخروج والتقاء الناس أو التعرّف إلى أصدقاء جُدد. كان ممكناً أن لا أغادر المنزل على الإطلاق. كنتُ يائساً، مهزوماً، محاصَراً. محبوساً في زاوية. من دون مخرج.

كان هناك حلٌّ واحد ممكناً.

كنت أنتقل من صيدلية إلى أخرى أشتري علب الباراسيتامول. كنت أشتري بعض العُلَب كل مرة حتى لا أثير الشكوك - لكني لم أكن في حاجة إلى كل هذا الاحتياط. لم يعرني أي أحد أي اهتمام. من الواضح أنني كنت غير مرئي كما كنت أشعر بذلك.

كنت أشعر بالبرد في غرفتي وكانت أصابعي نملة وثقيلة الحركة وأنا أمزّق العُلَب لأفتحها. تطلَّب مني بلع كل الأقراص مجهوداً كبيراً. لكنني أرغمت نفسي على بلعها كلها، قرص بعد قرص مرٍّ. ثم زحفت إلى سرير غير مريح وضيّق. أغمضت عينَي وانتظرت الموت.

لكن الموت لم يأتِ.

عوضاً عن الموت، مزّق ألم حادّ وقاسٍ أحشائي. انحنيت وتقيّأت، تقيّأت المادة الصفراء والأقراص غير المهضومة على كل جسدي. استلقيت في الظلام، ونار مشتعلة في بطني، لوقت كان يبدو أزلياً. ثم بعد ذلك، وببطء، أدركت شيئاً.

لم أكن أرغب في الموت. ليس بعد؛ ليس قبل أن أكون قد عشت قسطاً من الحياة.

و منحني هذا الشعور نوعاً من الأمل، رغم أنه كئيب وغير محدّد. دفعني هذا إلى الاعتراف على الأقل بأنني لا أستطيع فعل ذلك لوحدي: كنت محتاجاً إلى المساعدة.

وجدتها - في شكل روث، مُعالِجة نفسية أُحِلْت عليها من طرف مصلحة الاستشارة بالجامعة. كانت روث بيضاء الشعر وممتلئة الجسم، وكان هناك شيء فيها يشبه الجَدّة. كانت لها ابتسامة متعاطِفة - ابتسامة كنت أريد أن أؤمن بها. لم تقل شيئاً كثيراً في البداية. استمَعَت إليّ فقط وأنا أتكلّم. تكلّمتُ عن طفولتي، بَيتي، ووالدَي. وعندما كنت أتكلّم، مَهما كانت درجة كآبة التفاصيل التي كنت أحكيها، أدركت أنني لم أستطع الإحساس بأي شيء. كنت منفصلاً عن أحاسيسي، كيَدٍ قُطعت من المعصم. تكلّمت عن ذكريات مؤلمة ونزوات انتحارية - لكنني لم أكن أحسّ بها.

لكنني كنت أنظر إلى وجه روث من حين إلى آخر. ولدهشتي كانت الدموع تتجمّع في عينيها وهي تستمع إليّ. يمكن أن يبدو هذا صعباً على الفَهم، لكن تلك الدموع لم تكن دموعها.

كانت دموعي.

لم أكن لأفهم في ذلك الوقت. لكن هكذا يتمُّ العلاج. يرسل المريض مشاعره غير المقبولة إلى المعالج: وهي تمسك بكل شيء يخاف أن يشعر به وهي تشعر به بدله. وبعد ذلك، وبكلّ بطء، تُرجع ذلك الشعور إليه. كما أرجعت روث شعوري إليّ.

استمررنا في لقاء بعضنا البعض لعدة سنوات، روث وأنا. بقيَت الشيء الثابت في حياتي. استبطنتُ من خلالها نوعاً جديداً من العلاقة مع مخلوق بشري آخر: علاقة مؤسَّسة على الاحترام المتبادَل، الصدق والطيبة، وليس الاتّهام المضاد والغضب والعنف. بدأتُ تدريجياً أشعر بطريقة مختلفة بداخلي تجاه نفسي - أقلّ فراغاً، أكثر قدرة على الإحساس وأقلّ خوفاً. لم تغادرني الجوقة الداخلية البغيضة تماماً - لكنني الآن أملكُ صوت روث لمواجهتها، وقد قلّ اهتمامي بها. كنتيجة لذلك، ازدادت الأصوات في رأسي هدوءاً وكانت تختفي مؤقّتاً. كنت أحسّ بالهدوء، وأحياناً حتى بالسعادة.

كان واضحاً أن العلاج النفسي أنقذَ حياتي بطريقة مباشرة. كان العلاج بالكلام أساسياً في ما أصبحت عليه، وبمعنى أعمق، كان يمنحني هوية.

كنتُ أعرف أنه موهبتي.

بعد الجامعة، تدرّبتُ على أن أصبح معالجاً نفسياً في لندن. خلال هذا التدريب، استمررت في لقاء روث. بقيَت دائماً مُشجّعة

وداعِمة لي، رغم أنها كانت تنصحني أن أكون واقعياً تجاه الطريق الذي تعهّدت أن أسير فيه: «إنه ليس نزهة في الحديقة»، هكذا عبّرت عن ذلك التحذير. كانت محِقّة. الاشتغال مع المرضى، أن تجعل يديك متسختَين، حسناً، أكّد لي أنه ليس بالعمل المريح.

أتذكّر زيارتي الأولى لوحدة مؤمّنة للطب النفسي. خلال الدقائق التي تلت وصولي، خلعَ مريض سرواله وجلس القرفصاء وبدأ في التغوط أمامي. كومة من غائط كريه الرائحة. وكانت أحداث لاحقة، أحداث لها علاقة أقلّ بخضخضة المَعِدة، لكنها تساويها في الإثارة، انتحارات فوضوية فاشلة، محاولات إيذاء الذات، هستيريا وحزن خارجان عن السيطرة. كلها كانت تبدو أكثر ممّا أستطيع تحمّله. كنت أستعمل خزّان المرونة الذي لم أكن قد استخدمته إلى حدود ذلك الوقت.

غريبة هي السرعة التي تأقلمتُ بها مع العالَم الجديد والغريب لمصحّة الطب النفسي. أحسست براحة متزايدة مع الجنون - وليس فقط جنون الآخرين، بل جنوني الخاص. أعتقدُ أننا كلنا مجانين، فقط بطُرق مختلفة.

لهذا السبب وبهذه الطريقة ارتبطت بأليسيا بيرينسون. كنت من بين المحظوظين. بفضل التدخّل الناجح للعلاج النفسي في سنّ الشباب، كنت قادراً على التراجُع من على حافة الظلام العقلي. غير أن عقلي كان ما زال يحتفظ بالحكاية الأخرى كإمكانية أبدية: كان يمكن أن أصاب بالجنون - وأقضي بقية حياتي محبوساً في مصحّة للطب النفسي، مثل أليسيا. لكن وبفضل الإله...

لم أكن أستطع بالتأكيد قول أي شيء من هذا لإنديرا شارما، عندما سألتني عن سبب اختياري لمهنة المعالِج النفسي. كانت لَجنة

مقابلة شغل منصِب، على أي حال، ولو كان الوضع مختلفاً، لعرفت كيف أتصرّف بكل صدق.

قلت: «في الأخير، أعتقد أن التدريب يجعل منك معالجاً نفسياً. بغضّ النظر عن نواياك الأصلية».

حرّكت رأسها موافِقة بحكمة: «نعم، هذا صحيح، صحيح جداً».

كانت المقابلة ناجحة. قالت إنديرا إن تجربة العمل ببرودمور منحتني امتيازاً، وبيّنَت أنه يمكنني التعامل مع المِحَن النفسية القصوى. منحوني المنصب في الحال ووافقتُ على ذلك.

بعد شهر، تسلّمتُ عملي في ذا غروف.

4

وصلتُ إلى ذا غروف ملاحَقاً بريح يناير الباردة. كانت الأشجار العارية منتصبة كهياكل عظمية في الطريق. كانت السماء بيضاء، محمّلة بثلج لم يسقط بعد.

وقفتُ خارج المدخل. أدخلت يدي في جيبي لأُخرج علبة السجائر. لم أدخّن لمدة أسبوع - وعدت نفسي أن أكون حازماً هذه المرة، أن أتوقّف عن التدخين بشكلٍ نهائي. غير أني أجد نفسي الآن وأنا أتراجع عن هذا القرار. أشعلت سيجارة، وأنا متضايق من نفسي. يميل المعالجون النفسيون إلى اعتبار التدخين إدماناً بقيَ من دون حلّ - إدمان يجب على أي معالج نفسي أن يكون تعاملَ معه وتجاوزه. لم أكن أرغب في الدخول ورائحة السجائر تنبعث من فمي، لذلك رميت بعض قطع علكة النعناع في فمي ومضغتها وأنا أدخّن، مع القفز من رجل إلى أخرى.

كنت أرتجفُ - لكن إن أردت أن أكون صادقاً، فسبب ذلك الارتجاف كان قلَقاً أكثر منه برداً. كانت لدي شكوك. كان مستشاري في برودمور صريحاً بقوله إنني كنت أرتكب خطأً. أشار إلى أن مهنة واعدة لن تكتمل بمغادرتي، وكان ينظر بدونية إلى ذا غروف؛ وبالخصوص إلى البروفيسور ديوميديس.

«رجل غير عادي. اشتغلَ كثيراً بالعلاقات الجماعية - اشتغل مع فولكس لبعض الوقت. سيّر نوعاً من الجماعة العلاجية البديلة في الثمانينيات في هرتفوردشير. وهي نماذج من العلاج غير قابلة للتطبيق من الناحية الاقتصادية، خصوصاً في الوقت الحاضر...».

تردّد للحظة ثم تابع بصوت منخفض: «لا أحاول أن أخيفك، ثيو. لكنني سمعت بعض الأخبار عن تقليص الخدمات بهذه الأماكن. يمكن أن تفقد عملك في ستة شهور... هل أنت متأكّد أنك لا تريد أن تفكر في الموضوع ثانية؟».

تردّدت، لكنني فعلت ذلك مجامَلة فقط.

«متأكّد تماماً»، قلتُ له.

حرّك رأسه أسفاً. «يبدو هذا كانتحار مهني بالنسبة إليّ. لكن إذا كنت قد اتخذت قراراً...».

لم أخبره عن أليسيا بيرينسون، عن رغبتي في علاجها. كان بإمكاني التعبير عن قراري بالطريقة التي تسمح له بأن يفهم: إن الاشتغال معها قد يؤدّي إلى نشر كتاب أو منشور ما. لكن كنت أعرف أن ذلك لن ينفع كثيراً. سيقول إنني كنت أرتكب خطأً. ربما كان محقّاً. وكنت على وشك الاكتشاف.

أطفأت السيجارة، وتخلّصت من القلق، ودخلت المصحّة.

كانت ذا غروف توجد في الجزء الأقدم من مستشفى إدغوير. تمَّ تطويق البناية الفيكتورية الأصلية المبنية بالآجُرّ الأحمر منذ وقت طويل بإضافات وملحقات أكبر وأكثر بشاعة. توجد ذا غروف في وسط هذا المركّب. كانت الإشارة الوحيدة لوجود نزلاء خطرين هو وجود مجموعة متراصّة من كاميرات الحراسة تطلُّ من أعلى على السياج مثل مراقبة الطيور الجارحة. تمَّ بذل مجهود كبير في قاعة

الاستقبال لجعلها تبدو اجتماعية - أرائك كبيرة زرقاء، رسوم طفولية بسيطة أنجزها المرضى وألصقت على الجدران. كانت تبدو كروضة أطفال أكثر منها وحدة مؤمّنة للطبّ النفسي.

ظهر رجل بجانبي. ابتسم في وجهي ومدَّ يدَه نحوي. قدّم نفسه على أنّ اسمه يوري، ورئيس ممرّضي الطبّ النفسي.

«مرحباً بك في ذا غروف»، قال يوري. «ليست هناك أي لجنة استقبال، آسف، فقط أنا».

كان يوري وسيماً، قوياً، في أواخر الثلاثينيات من عمره.

كان شعره أسود وكان وشم قَبَليّ يزحف إلى أعلى عنقه فوق الياقة. كانت رائحة السجائر تنبعث منه وكذلك رائحة جميلة جداً لعطر ما بعد الحلاقة. رغم أنه كان يتكلّم بلكنة أجنبية، فقد كانت لغته الإنجليزية جيّدة.

«انتقلت إلى هنا من ليتوانيا سبع سنوات مضت»، قال لي، «لم أكن أتكلم الإنجليزية عندما وصلت، لكنني أتقنتها في سنة واحدة».

«مبهر جداً».

«ليس حقّاً. اللغة الإنجليزية هي لغة سهلة. يجب أن تحاول تعلُّم اللغة الليتوانية».

ضحك ثم مدَّ يدَه إلى سلسلة المفاتيح المُصلصِلة حول حزامه. نزع مجموعة من المفاتيح وسلّمها إليّ.

«ستحتاج إلى هذه المفاتيح للغُرف الفردية. وهناك شفرات خاصة بالأجنحة ستحتاج إلى معرفتها».

«هذا كثير. كانت لي مفاتيح أقل في برودمور».

«أجل، حسناً. زدنا من الاحتياطات الأمنية بعض الشيء مؤخّراً - بعد أن التحقت بنا ستيفاني».

«من هي ستيفاني؟».

لم يجب يوري - لكنه حرّك رأسه في اتجاه المرأة التي خرجت من المكتب خلف مصلحة الاستقبال. كان أصلها من جزر الكاريبي، في أواسط الأربعينيات من عمرها، وكان شعرها قصيراً وذا زوايا حادّة. «أنا ستيفاني كلارك»، قالت لي. «مديرة ذا غروف».

كانت ابتسامة ستيفاني غير مقنِعة. عندما صافحت يدها، لاحظت أن قبضتها كانت أكثر حزماً وقوة من قبضة يوري، وإلى حدٍّ ما أقل ترحيباً.

«كمديرة لهذه الوحدة»، قالت ستيفاني، «الأمان هو أولويتي القصوى. أمان المرضى والموظّفين معاً. إذا لم تكن آمناً، فلن يكون المرضى آمنين أيضاً». سلّمتني جهازاً صغيراً - أداة شخصية للإنذار ما أن يتمّ هُجوم. «احمل معك هذه كل الوقت. لا تتركها فقط في مكتبك».

قاومت الرغبة في قول «نعم سيدتي». من الأحسن أن أكسب ودّها إذا كنت أريد حياة سهلة. كان هذا هو التكتيك مع مديرَي الجناح السابقَين المتغطرسَين - تجنّبُ المواجهة والبقاء تحت مراقبتهم.

«تشرّفت بمقابلتك، ستيفاني». قلت مبتسماً.

حركت ستيفاني رأسها لكنها لم ترد الابتسامة. «سيقودك يوري إلى مكتبك». دارت ومشت دون أن تنظر إلى ثانية.

«اتبعني»، قال لي يوري.

ذهبت معه إلى مدخل الجناح - باب كبير ومقوّى مصنوع من الفولاذ. كان يوجد بجانبه كاشف حديدي يحمله حارس أمن.

«أنا متأكد أنك تعرف هذا الإجراء الروتيني»، قال يوري. «الأشياء الحادّة غير مسموح بها - أي شيء يمكن أن يستعمل كسلاح».

«الولّاعات أيضاً»، أضاف حارس الأمن وهو يفتّشني، وأخرجَ الولّاعة من جيبي بنظرة متّهمة.

«آسف»، قلت له. «نسيت أنني أحمل معي ولّاعة».

أشارَ إليّ يوري بيده أن أتبعه. «سأقودك إلى مكتبك»، قالَ لي. «يوجدُ الجميع في اجتماع الجماعة، لهذا، فالمكان هادئ جداً».

«هل يمكنني الالتحاق بهم؟».

«بالجماعة؟» بدا يوري متفاجئاً. «ألا تريد أن تستقرَّ أولاً؟».

«سأستقرّ لاحقاً. إذا لم يكن لديك أي اعتراض».

هزَّ كتفَيه. «ليكن ما تريد. مِن هنا».

قادني عبر ممرّات مُترابطة، وكانت تستوقفنا أبواب مقفَلة - إيقاع من أصوات سدّ الأبواب وإزالة المزلاج وإدخال المفاتيح في الأقفال. كنا نتقدّم ببطء.

كان واضحاً أنه لم يتم الاعتناء بالبناية لعدة سنوات: كانت الصباغة تنفصل تدريجياً عن الجدران وكانت رائحة خفيفة للرطوبة والتعفُّن تعمُّ الممرّات.

وقفَ يوري أمام باب مُقفل وحرّك رأسه قائلاً: «إنهم هنا. تقدّم».

«حسناً. شكراً».

تردّدت، هيّأت نفسي. فتحت الباب ودخلت.

5

كانت الجماعة تعقد اجتماعها في قاعة طويلة فيها نوافذ عالية، عليها سياجات وتطلُّ على حائط من آجُرّ أحمر. كانت رائحة القهوة في الهواء، مختلطة بآثار لعطر يوري لما بعد الحلاقة، وكان حوالي ثلاثين شخصاً يجلسون في شكلٍ دائري، أغلبهم يقبضون على فناجين شاي أو قهوة ورقية، يتثاءبون ويفعلون ما بوسعهم ليبقوا مستيقظين. كان بعضهم، الذين شربوا قهوتهم، يمسكون بالأكواب بعصبية، منهم من سحقها، دمّرها أو مزّقها إرباً.

كانت الجماعة تجتمعُ مرّة أو مرّتين في اليوم. كانت شيئاً ما بين الاجتماع الإداري وجلسة علاجية جماعية. كانت تُوضع على جدول الأعمال نقط تخصُّ تسيير الوحدة أو العناية بالمرضى للمناقشة. كانت، كما كان يحب البروفيسور ديوميديس أن يقول، محاولة لإشراك المرضى في علاج أنفسهم، وتشجيعهم على تحمُّل مسؤولية تحسُّن وضعيتهم. لا داعي للقول إن هذه المحاولة لم تكن دائماً ناجحة. كانت خلفية ديوميديس في العلاج الجماعي تعني أنه كان مولعاً بعقد الاجتماعات من أي نوع وكان يشجّع ما أمكنه على العمل الجماعي. يمكنك أن تقول إنه كان في أسعد لحظات حياته

أمام الجمهور. كان بمنظره يوحي إلى حدٍّ ما بأنه مدير فرقة مسرحية، اعتقدت ذلك، عندما وقف ليحييني، يداه ممدودتان ومفتوحتان بالترحيب، مشيراً إليّ بالتقدُّم نحوهم.

«ثيو. ها أنت أخيراً معنا. التحق بنا، التحق بنا».

كان يتكلّم بلكنة يونانية خفيفة وبالكاد يمكن اكتشافها - كان قد فقدها تقريباً لأنه عاش في إنجلترا لما يزيد عن ثلاثين سنة. كان رجلاً أنيقاً، ورغم أنه كان في الستينيات من عمره فقد كان يبدو أصغر سناً. كان سلوكه حيوياً لكنه مزعج، سلوك عَمّ غير موقّر أكثر منه سلوك طبيب نفسي. لا يعني هذا أنه لم يكن متفانياً في خدمة المرضى تحت رعايته - كان يصلُ باكراً قبل المنظّفين ويبقى وقتاً طويلاً بعد أن يبدأ فريق الليل عمله، وكان أحياناً يقضي ليلته فوق الأريكة بمكتبه. طلّقَ مرّتين، وكان يحب أن يقول إن زواجه الثالث والأكثر نجاحاً هو زواجه بذا غروف.

«تفضّل، هنا»، قال وهو يشير إلى كرسي فارغ بجانبه. «اجلس، اجلس، اجلس».

فعلتُ ما طلب. قدّمني ديوميديس بحركة ملحوظة. «اسمحوا لي أن أقدّم لكم معالجنا النفسي الجديد. ثيو فابر. أتمنّى أن تشاركوني الترحيب بثيو في عائلتنا الصغيرة».

عندما كان ديوميديس يتكلّم، ألقيت نظري على الدائرة بحثاً عن أليسيا. لكنني لم أرَها في أي مكان. باستثناء البروفيسور ديوميديس، الذي كان أنيقاً جداً، يلبسُ بذلة وربطة عنق، كان أغلب الآخرين يلبسون أقمصة بأكمام قصيرة. كان صعباً التفريق بين المرضى ومن ينتمون إلى الإدارة.

كانت بعض الوجوه مألوفة لدي. كريستيان مثلاً، عرفته في

برودمور. معالج نفسي يلعب الرغبي، له أنف مكسور ولحية سوداء. يتمتّع بأناقة غير جذابة. غادر برودمور مباشرة بعد التحاقي به. لم أكن أحب كريستيان كثيراً؛ لكن بصراحة لم أعرفه جيداً، لأننا لم نشتغل معاً لمدة طويلة.

تذكرت إنديرا، بالطبع، من المقابلة. ابتسمَت في وجهي، وكنت ممتنّاً لها لأنها كانت الوجه اللطيف الوحيد. حملق معظم المرضى فيّ بنظرة عابسة من عدم الثقة. لم أَلُمْهم. كانت الإساءات الجسدية والنفسية والجنسية التي عانوا منها تعني أنهم في حاجة إلى وقت طويل ليتمكّنوا من الثقة بي؛ إذا حدث ذلك فعلاً. كان معظم المرضى نساء، كانت لمعظمهم ملامِح خشنة، تجاعيد وندوب. عاشوا حياة صعبة بمعاناتهم من اكتئابات عصبية مروعة دفعتهم إلى التراجُع إلى المنطقة المجهولة لمرضهم النفسي؛ تركَت رحلتهم في الحياة نُدوباً على وجوههم، لا يمكن عدم ملاحظتها.

ماذا عن أليسيا بيرينسون؟ أين هي؟ جُلتُ بنظري حول الدائرة من جديد، لكنني لم أجدها. لكني أدركت بعد ذلك - أنني كنت أنظر إليها مباشرة. كانت أليسيا تجلسُ في مكان مقابل لي في الدائرة.

لم أرَها لأنها كانت غير مرئية.

كانت متّكئة إلى الأمام من الكرسي. كان واضحاً أنها مخدَّرة جداً. كانت تحملُ كأساً ورقياً، مملوءاً بالشاي، وكانت يدها المرتعشة تدلقُ منه تدفُّقاً مستمرّاً على الأرض. منعتُ نفسي من الذهاب إليها وتعديل وضعية الكأس في يدها، كانت غير مبالية لدرجة أنها لن تنتبه إلى قيامي بذلك.

لم أكن أتوقّع أنها أصبحت على هذا الشكل السيّئ. كانت

هناك أخبار تتردّد عن المرأة الجميلة التي كانتها في الماضي: عينان زرقاوان عميقتان، ووجه متناسق. لكنها كانت نحيلة جداً وكانت تبدو متّسخة. كان شعرها الطويل الأحمر يتدلّى على كتفيها في تشابُك متّسخ وغير منتظم. كانت أظافرها مقضومة وممزّقة. كانت الندوب القديمة ظاهرة على معصميها. الندوب نفسها التي رأيتها مجسَّدة بكل دقّة في لوحة **ألسيستيس**. لم تتوقّف أصابعها عن الارتعاش، من دون شكّ، كان ذلك أثراً جانبياً لتناولها مجموعة مختلفة من الأقراص المخدّرة - ريسبريدون وأقراص قوية أخرى مضادة للمرض النفسي. وكان لُعاب لامع يتجمّع حول فمها المفتوح. كان اللُّعاب السائل اللإرادي أحد الآثار الجانبية المؤسِفة للأدوية التي تناولتها.

لاحظتُ أن ديوميديس ينظر إليّ. حوّلتُ انتباهي من أليسيا وركزت نظري عليه.

«أنا متأكد أنه يمكنك تقديم نفسك أحسن مني، ثيو»، قال لي. «هل يمكن أن تقول كلمة عن نفسك؟».

«شكراً»، أومأت برأسي موافقاً. «ليس لدي أي شيء حقاً لأضيفه. أريد أن أقول فقط إنني سعيد بتواجُدي معكم. منفعل، قلِق ومفعم بالأمل. وأنا أتطلّع إلى معرفة الجميع - خصوصاً المرضى. أنا ــــ».

قاطعني صوت مدوٍّ مفاجئ عندما فُتح الباب بعنف. في البداية اعتقدت أنني كنت أتخيّل أشياء. مخلوقة عملاقة هجمت على القاعة وكانت تحمل عَصَوَين خشبيَّتين مُسنّنَتين، وترفعهما عالياً فوق رأسها، ثم رمتهما في اتجاهنا كرمحَين. غطّت إحدى المريضات عينَيها وصرخت.

توقّعت تقريباً أن يطعننا الرمحان لكنهما سقطا بقوة على الأرض وسط الدائرة. ثم رأيت بعد ذلك أنهما ليسا برمحَين على الإطلاق. كانا عصا للعبة البليارد مكسورة إلى اثنتين. صرخت المرأة الضخمة، المرأة التركية ذات الشعر الأسود والتي كانت في الأربعينيات من عمرها: «اغربوا عن وجهي. هذه العصا انكسرت منذ أسبوع ولم يتم تعويضها بعد. تباً لكم».

«انتبهي لكلامك، إليف»، قال لها ديوميديس. «أنا لست مستعدّاً لمناقشة مسألة العصا حتى نقرِّر ما إذا كان مناسباً أن نسمح لك بالالتحاق بالاجتماع في مثل هذا الوقت المتأخِّر». أدارَ رأسه بخبث وقذفَ السؤال في وجهي: «ما هو رأيك، ثيو؟».

رفَّت عيناي، وتطلّب مني الأمر لحظة لأجدَ صوتي: «أعتقد أنه مهم أن نحترم الوقت المحدّد، وأن نصلَ في الوقت إلى الاجتماع——».

«تعني كما فعلتَ»، قال شخص من الجهة المقابلة في الدائرة.

التفتُّ ورأيتُ أن كريستيان هو الذي تكلّم. ضحك فرحاً ومستمتعاً بنكتته. ابتسمت رغماً عني والتفتُّ إلى إليف.

«إنه على حقّ. لقد وصلتُ متأخراً هذا الصباح. إذاً هذا درس يمكن أن نتعلّمه جميعاً».

«ما شأنك أنت؟» قالت إليف. «تباً لك. من أنت على أي حال؟».

«إليف، انتبهي لكلامك»، قال لها ديوميديس. «لا ترغميني على إبعادك من الاجتماع. اجلسي».

بقيت إليف واقفة. «وماذا عن عصا البليارد؟».

كان السؤال موجَّهاً إلى ديوميديس، ونظر إليّ منتظراً مني أن أجيب عنه.

«إليف، أرى أنك غاضبة بشأن عصا البليارد»، قلتُ لها. «أظنُّ أن من كسرَها كان أيضاً غاضباً. يطرح هذا مسألة ما يمكننا فعله تجاه الغضب في مؤسَّسة كهذه. ما رأيكم في الاستمرار في مناقشة هذا الموضوع، ونتكلّم عن الغضب لبعض الوقت؟ ألا تريدين الجلوس؟».

أدارت إليف عينَيها. لكنها جلست.

حرّكت إنديرا رأسها وكانت تبدو مسرورة. بدأنا نتكلّم عن الغضب، أنا وإنديرا، محاولَين جرّ المرضى إلى نقاش أحاسيس الغضب الخاصة بهم. اشتغلنا معاً جيّداً، على ما أعتقد. كنت أحسُّ بأن ديوميديس يراقبني ويُقيّم ما أقوم به. كان يبدو راضياً.

ألقيتُ نظرة على أليسيا، واندهشت لأنها كانت تنظر إليّ، أو على الأقل في اتجاهي. كانت هناك ضبابية قاتمة في تعابير وجهها، وكأنّ تركيز عينَيها أو حتى الرؤية أصبحا أمراً صعباً جداً.

إذا قلت لي إن هذه الصَّدَفة المكسورة كانت ذات مرة أليسيا بيرينسون الذكية، وُصفت من طرف من عرفوها بأنها جذّابة، مثيرة للإعجاب ومفعمة بالحياة، لن أصدقك إطلاقاً. عرفتُ آنذاك وهناك أنني اتخذت القرار الصحيح بالقدوم إلى ذا غروف. كل شكوكي تلاشت. أصبحت عازماً على أن لا شيء يوقفني حتى تصبح أليسيا مريضتي.

لم يكن هناك وقت لأضيّعه: ضاعت أليسيا. كانت مفقودة وكنت عازماً على العثور عليها.

6

كان مكتب ديوميديس يوجد في الجزء الأقدم من المستشفى. كانت خيوط العنكبوت تملأ الزوايا وكانت هناك فقط بعض المصابيح في الرواق صالحة للاستعمال. طرقتُ على الباب، وكانت هناك لحظة سكون قبل أن أسمع صوته بالداخل.

«ادخل».

أدرتُ المقبض فانفتح الباب بصرير. أثارت انتباهي على التوّ رائحة داخل الغرفة. كانت رائحتها مختلفة عن باقي المستشفى. لم تكن رائحة مُطهّر أو مُبيّض، لكنها كانت بالأحرى تشبه رائحة حفرة الأوركسترا. كانت رائحة الخشب، والآلات الوترية وأقواس الكمنجة، ومادة ملمِّعة والشمع تعمُّ المكان. استغرقت عيناي بعض الوقت لتتكيّفا مع الظلام، ثم لاحظت البيانو موضوعاً بجانب الحائط؛ شيء متنافِر مع ما يوجد عادةً في المستشفى. كانت عشرون منضدة حديدية غريبة تلمع في الظلال، وكومة عالية من أوراق النوتات الموسيقية متراكِمة فوق بعضها على طاولة؛ سُور ورقي متمايل يحاول الوصول إلى السماء. كانت هناك كمنجة على طاولة أخرى، بالقرب من مزمار وفلوت. وبجانبه قيثارة، آلة كبيرة بإطار خشبي جميل وكثير من الأوتار.

حدّقت النظر فيه فاغر الفاه. ضحك ديوميديس.

«أنت تتساءل حول الآلات؟» قال لي. جلسَ خلف مكتبه، وهو يضحك بتكتُّم.

«هل هي لك؟».

«نعم. الموسيقى هي هوايتي. لا، أنا أكذب، إنها عشقي».

أشار بإصبعه إلى أعلى بشكلٍ دراماتيكي. للبروفيسور طريقة حركية في الكلام، حيث يستعمل مجموعة واسعة من حركات اليد التي تصاحب كلامه وتؤكّده - وكأنه يقود أوركسترا خفية.

«أقود مجموعة موسيقية غير رسمية»، قال لي، «وهي مفتوحة في وجه من يريد الالتحاق - الإدارة والمرضى على السواء. أجدُ الموسيقى وسيلة فعّالة جداً للعلاج». توقّف ليعزف نغمة موسيقية جميلة: «للموسيقى سحر يهدّئ من روع قلب متوحّش... هل أنت موافق؟».

«أنا متأكد أنك على حقّ».

«حسناً». أمعن ديوميديس النظر فيّ للحظة. «هل تعزف؟».

«أعزف ماذا؟».

«أي شيء. آلة المثلث كبداية».

حرّكتُ رأسي رافضاً. «أنا لست بارعاً في الموسيقى. عزفتُ على الفلوت قليلاً في المدرسة عندما كنت شابّاً. هذا كل ما في الأمر».

«إذاً أنت تستطيع قراءة النوتات الموسيقية؟ هذا امتياز. هذا جيّد. اختر أية آلة. سأعلّمك».

ابتسمت ثم حركت رأسي ثانية. «آسف، لست صبوراً بالقدر الكافي».

«لا؟ حسناً، الصبر فضيلة. ستقوم بعمل جيّد إذا قوّيته كمعالج نفسي. كنتُ متردّداً في شبابي حول ما إذا كان يجب عليّ أن أكون موسيقياً، قسّيساً أو طبيباً». ضحكَ ديوميديس. «والآن أنا الثلاثة جميعهم».

«أظنُّ أن ذلك صحيح».

«حسناً»، قال محوّلاً بذلك الموضوع دون أي إشارة توقف. «لقد كنت أنا الصوت المقرِّر في مقابلتك. الصوت الحاسم، إذا جازَ التعبير. دافعتُ عنك بقوة. هل تعرف السبب؟ سأخبرك - رأيت فيك شيئاً، ثيو. تُذكّرني بنفسي... من يدري؟ في بضع سنوات، قد تصبح مديراً لهذا المكان». تركَ الجملة معلَّقة لبعض الوقت، ثم تنهّدَ. «إذا كان لا يزال هذا المكان قائماً بالطبع».

«أتظن أنه لن يعود موجوداً؟».

«من يدري؟ عدد قليل جداً من المرضى، وعدد كبير من الموظفين. إننا نشتغل بتعاون مع مؤسسة تراست لنرى ما إذا كان يمكن إيجاد نموذج أكثر «قابلية للتطبيق من الناحية الاقتصادية». هذا يعني أننا مراقَبون ومقيَّمون باستمرار - يتجسّسون علينا. كيف يمكننا أن نقوم بعلاج المرضى في ظلِّ هذه الظروف، يمكنك أن تطرح السؤال؟ وكما قال وينيكوت، لا يمكنك ممارسة العلاج في بناية تحترق». حرّك رأسه مستنكراً، وبدا فجأة في سنّه الحقيقي، متعَباً ومنهَكاً. خفضَ صوته وتكلَّم بنبرة تآمرية. «أعتقد أن المديرة، ستيفاني كلارك، متحالِفة معهم. تراست تؤدّي لها أجرتها على أي حال. راقبها وستدرِك ما أعني».

أعتقدُ أن ديوميديس كان يبدو نوعاً ما ارتيابياً ومتشكّكاً بالآخرين، غير أن ذلك كان مفهوماً. لم أكن أريد أن أقول شيئاً

خاطئاً، لذلك بقيتُ صامتاً لبعض الوقت بطريقة احترازية. ثم بعد ذلك -

«أريدُ أن أسألك شيئاً»، قلت له. «حول أليسيا».

«أليسيا بيرينسون؟» حدّق ديوميديس فيّ بطريقة غريبة. «ماذا تريد أن تعرف عنها؟».

«أرغب في معرفة نوع العلاج الذي تتلقّاه. هل تتلقّى علاجاً فردياً؟».

«لا».

«هل هناك سبب؟».

«تمَّ تجريب ذلك - وتمَّ التخلي عنه».

«ما السبب؟ من كان يقوم بذلك؟ إنديرا؟».

«لا». حرّك ديوميديس رأسه بالنفي. «أنا الذي كنت أعالجها في الواقع».

«حسناً. ماذا حدث؟».

هزَّ كتفَيه. «رفضَت زيارتي في مكتبي، فذهبتُ لمقابلتها في غرفتها. خلال الجلسات، كانت فقط تجلس فوق السرير وتحدّق خارج النافذة. رفضَت أن تتكلم، بالتأكيد. رفضَت حتى النظر إليّ». رفع يديه، مغتاظاً. «قرّرت أن أعتبر المسألة كلها مضيعة للوقت».

أومأت برأسي متفهّماً. «أعتقد... حسناً، أنا أتساءل عن التحويل...».

«نعم؟» حدّق ديوميديس فيّ بفضول. «أكمل كلامك».

«من الممكن، أليس كذلك، أنها اعتبرتك حضوراً سلطوياً... ربما، احتمالاً عقابياً. لا أعرف كيف كانت علاقتها بأبيها، لكن...».

كان ديوميديس يستمعُ وابتسامة صغيرة مرتسمة على ثغره، وكأنه كان يستمع إلى نكتة ويستبقُ الخاتمة المضحِكة. «لكن هل تعتقد أنه يمكنها أن تجدَ علاقتها بشخص أصغر سنّاً أسهل؟» قال ثم أضاف: «دعني أخمّن... شخص مثلك؟ هل تعتقد أنه يمكنك مساعدتها، ثيو؟ يمكن أن تنقذ أليسيا؟ تجعلها تتكلم؟».

«لا أعرف إن كنت أستطيع إنقاذها، لكني أرغب في مساعدتها. أرغب في المحاولة».

ابتسم ديوميديس، ودائماً بروح الاستمتاع نفسها. «لستَ الأول. اعتقدت أنني سأنجح. أليسيا هي حُوريّة صامِتة، يا بني، تجذبنا إلى الصخور حيث نُحطّم طموحنا العلاجي تماماً». ابتسمَ. «علّمَتني درساً قيّماً في الفشل. ربما تحتاج إلى تعلُّم الدرس نفسه».

واجهت نظرته بتحدٍّ. «إلّا إذا، بالطبع، نجحتُ».

اختفَت ابتسامة ديوميديس، وعوّضها بشيء تصعب قراءته. بقيَ صامتاً للحظة، ثم اتّخذ قراراً.

«سنرى، لنبدأ؟ أولاً، يجب أن تلتقي بأليسيا. لم يقدّمك أحد إليها بعد، أليس كذلك؟».

«لا، ليس بعد».

«إذاً اطلب من يوري أن يرتّب ذلك. وأعطني تقريراً في ما بعد».

«حسناً»، قلت له وأنا أخفي انفعالي. «سأفعل».

7

كانت قاعة العلاج فضاءً صغيراً، مُستطيلاً وضيّقاً؛ كانت عارية كزنزانة سجن أو أكثر. كانت النافذة موصدة وعليها شبّاك حديدي. أضفى صندوق مناديل وردي لامع فوق الطاولة لمسةَ فرح على هذا الفضاء الكئيب، وُضع هناك افتراضاً من طرف إنديرا: لم يكن بإمكاني أن أتخيّل كريستيان وهو يقدّم مناديل لمرضاه.

جلستُ على إحدى الأريكتين القديمتين. مرّت دقائق. لا أثر لأليسيا. ربما لم تكن قادمة؟ ربما رفضت مقابلتي. ستكون بذلك تمارِس حقوقها.

لأنني بدأتُ أفقد الصبر، وأصبحت قلِقاً ومنفعِلاً، قفزتُ واقفاً ومشيت نحو النافذة. حدقت النظر خارجاً من بين الأعمدة الحديدية.

كانت الساحة تحت ثلاثة طوابق من القاعة. كانت مساحتها تعادلُ مساحة ملعب للتنس، وكانت محاطة بجدران من الآجُرّ الأحمر؛ جدران عالية جداً على التسلُّق، رغم أن البعض حاول، من دون شكّ، تسلُّقها. يُساق المرضى خارجاً لثلاثين دقيقة من أجل الهواء النقي كل ظهيرة، سواء رغبوا في ذلك أم لا؛ لا ألومهم إن

قاوموا خلال الجو البارد جداً. كان البعض يقفون منفردين، ويتحدّثون بصوت خافت مع أنفسهم، وكانوا يسرعون إلى الأمام، ثم إلى الوراء، كأموات أحياء مضطربين، من دون اتجاه محدَّد. وكان آخرون يتجمّعون في مجموعات، يتحدّثون، يتناقشون، يدخّنون. كانت الأصوات والصرخات والضحكات المنفعِلة والغريبة تطفو وتصعد إليّ.

لم أستطع أن أرى أليسيا في البداية. حدّدتُ مكانها بعد ذلك. كانت واقفة بمفردها في النهاية البعيدة من الساحة. بجانب الجدار. هادئة تماماً، مثل تِمثَال. مشى يوري في الساحة تجاهها. تكلّم مع الممرِّضة التي كانت تقف قريبة منها. أومأت الممرِّضة برأسها. ذهب يوري إلى أليسيا بحذر وبتمهُّل، بالطريقة نفسها التي يمكن أن تقترب بها من حيوان لا يمكن التنبؤ بردّ فعله.

طلبتُ منه أن لا يدخل كثيراً في التفاصيل، بل فقط أن يخبرها بأن المعالج النفسي الجديد في الوحدة يريد مقابلتها. طلبتُ منه أن يُعبّر عن ذلك كطلبٍ وليس كأمر. كانت أليسيا واقفة بهدوء وهو يتكلّم معها. لم تحرّك رأسها لا بالموافقة ولا بالرفض، ولم تعطِ أي إشارة بأنها سمعت ما قاله لها. كان هناك توقّف قصير، ثم بعد ذلك دار يوري ومشى مبتعِداً عنها.

حسناً، هذا هو الأمر، اعتقدتُ - لن تأتي. تباً، كان يجب عليّ أن أعرف ذلك. كانت المسألة كلها مضيعة للوقت.

ثم بعد ذلك، حدثت المفاجأة، تحرّكت أليسيا إلى الأمام. تبعت يوري بخُطىً مضطربة، مشت متثاقلة خلفه عبر الساحة - حتى اختفيا عن نظري تحت النافذة.

إنها قادمة إذاً. حاولتُ التحكُّم في أعصابي والاستعداد.

حاولت إسكات الأصوات السلبية في رأسي - صوت أبي - التي تقول لي إنني لستُ أهلاً لهذا المنصِب، وإنني من دون فائدة ومزيَّف. أُسكت، كنت أفكر في الأمر، أُسكت، أُسكت -

بعد بضع دقائق، كان هناك طَرق على الباب.

«ادخل»، قلت. فُتح الباب. كانت أليسيا تقف مع يوري في الممرّ. نظرتُ إليها، لكنها لم تنظر إليّ. بقيَ بصرها موجَّهاً نحو الأسفل.

ابتسم يوري في وجهي بكلّ افتخار. «إنها هنا».

«نعم. بإمكاني رؤية ذلك. مرحباً أليسيا».

لم تردّ.

«تفضّلي إلى الداخل».

انحنى يوري إلى الأمام وكأنه يدفعها بلطف، لكنه لم يلمسها في الواقع. همسَ إليها عوضاً عن ذلك: «تفضّلي عزيزتي. ادخلي واجلسي».

تردّدت أليسيا للحظة. لمَحَته بعينيها واتخذت قراراً. مشت إلى داخل الغرفة، بتَمايُل واضح. جلستْ على كرسي، صامتة كقطّة، ويداها المرتعشتان في حضنها.

كنت على وشك إقفال الباب، لكن يوري لم يغادر. خفضت صوتي:

«سأتكفّل بها، شكراً».

بدا يوري قلقاً. «لكنها هي الآن في وضعية واحد-مقابل-واحد. وقال لنا البروفيسور——».

«أتحمّلُ كامل المسؤولية. لا تقلق». أخذت إنذار الخطر الخاص بي. «انظر، أنا أتوفّر على هذا - لكنني لن أحتاج إليه».

ألقيتُ نظرة على أليسيا. لم تُبدِ أي إشارة بأنها سمعتني. هزَّ يوري كتفَيه، من الواضح أنه كان غير راضٍ.

«سأكون خارج الباب، في حالة ما إذا احتجت إليّ».

«ليس ضرورياً، شكراً على أي حال».

غادرَ يوري وأغلقتُ الباب. وضعتُ الإنذار فوق المكتب. جلستُ أمام أليسيا. لم ترفع عينَيها. فحصتُها بنظري للحظة. كان وجهها خالياً من التعبير، فارغاً. قناعاً مخدّراً بالأدوية. تساءلتُ عمّا يوجد تحته.

«أنا جدّ مسرور لموافقتك على مقابلتي»، قلتُ لها.

انتظرت جواباً. كنت أعرف أنه لا يوجد جواب. واصلتُ الكلام: «لي امتياز معرفة أشياء عنك أكثر ممّا تعرفين عني. صِيتك يسبقك - أعني شهرتك كفنّانة تشكيلية. أنا أحد المعجبين بك». لا وجود لأي ردّ فعل. اعتدلت في جلوسي قليلاً. «طلبتُ من البروفيسور ديوميديس مقابلتك وقد كان لطفاً منه أن رتّب هذا اللقاء. أشكرك على الموافقة».

تردّدتُ، متمنّياً رؤية إشعار من أي نوع - ومضة عين، حركة رأس، تقطيب. لا شيء حدث. حاولت تخمين ما كانت تفكر فيه. ربما كانت مخدّرة جداً للتفكير في أي شيء.

فكّرت في معالجتي المسنّة، روث. ماذا كانت ستفعل؟ كانت دائماً تقول إننا نتكوّن من أجزاء مختلِفة، بعضها جيّد وبعضها سيّئ؛ وأنّ العقل السليم يمكنه تحمّل هذه الازدواجية والتحكّم في استعمالهما معاً في الوقت نفسه. يتحدّد المرض النفسي بالخصوص بغياب هذا النوع من الدمج - ينتهي بنا المطاف إلى فقدان أي اتصال بالأجزاء غير المقبولة من ذواتنا. إذا كان عليّ أن أساعد أليسيا،

يجب تحديد أماكن تلك الأجزاء التي أخفتها عن نفسها، خارج حدود الوعي، والربط بين مختلف النُّقَط في خريطتها العقلية. فقط حينها سنتمكّن من الدخول في سياق الأحداث التي أدّت إلى مقتل زوجها. إنها عملية بطيئة وتحتاج إلى الكثير من الجُهد والوقت.

عادةً عندما نبدأ علاج مريض ما، لا يوجد هناك أي ضرورة للاستعجال، أو أي برنامج علاجي معدّ مسبقاً. عادة ما نبدأ بشهور من الكلام. من الناحية المثالية، سوف تتحدث إليّ أليسيا عن نفسها، عائلتها، طفولتها. سأستمع إليها وأُكَوّنُ صورةً ببطء حتى تصبح كافية بالنسبة إليّ لأقوم بتأويلات دقيقة ومساعِدة. في هذه الحالة، لن يكون هناك كلام، ولا استماع. سأجمع المعلومات التي كنت في حاجة إليها من خلال إشارات غير لغوية، مثل التحويل المضاد - الأحاسيس التي تخلقها أليسيا في خلال الجلسات - وأي معلومات يمكنني جمعها من مصادر أخرى.

بتعبير آخر، شرعتُ في خطّة لمساعدة أليسيا دون معرفة كيفية تنفيذها. والآن يجب عليّ أن أفي بوعدي، ليس فقط لأثبت نفسي أمام ديوميديس، لكن، وأهم من ذلك، لأقوم بواجبي تجاه أليسيا: مساعدتها.

وأنا أنظر إليها جالسة أمامي، مخدَّرة تماماً واللُّعاب يتجمّع حول فمها، وأصابعها ترتعش كفراشات متّسخة، شعرتُ باعتصار مفاجئ وغير متوقّع من الحزن. أحسست بأسف كبير نحوها، ونحو كل من يشبهونها، كلنا، كل المجروحين والضائعين.

بالطبع لم أقل شيئاً من هذا لها. عوضاً عن ذلك، فعلتُ ما كانت روث ستفعله.

وفقط جلسنا في صمت.

8

فتحتُ ملف أليسيا على مكتبي. قدّمه إليّ ديوميديس تطوُّعاً.
«يجب أن تقرأ تدويناتي»، قال لي. «ستُساعدك».

لم تكن لدي رغبة في قراءة كل تلك التدوينات؛ كنت أعرف مسبقاً رأي ديوميديس. كنت محتاجاً إلى اكتشاف ما أفكّر فيه بشأنها. لكنني قبلتها رغم ذلك.

«شكراً. ستساعدني بالتأكيد».

كان مكتبي صغيراً فيه بعض التجهيزات القليلة، يوجد في مكان مختفي عن الأنظار خلف البناية بالقرب من مخرج الإغاثة. نظرتُ خارج النافذة. كان شحرور ينقر قطعة من عشب مجمّد على الأرض بالخارج، بحزن ودون أمل.

ارتجفتُ. كانت الغرفة باردة جداً. كان جهاز التدفئة الصغير تحت النافذة مكسوراً - قال يوري أنه سيحاول إصلاحه، لكن كان أحسن خِيار هو التحدُّث مع ستيفاني بشأنه أو، في حالة الفشل، طرح الموضوع خلال اجتماع الجماعة. شعرتُ فجأة بتعاطُف مع إليف ومعركتها لتعويض عصا البليارد المكسورة.

فحصتُ ملف أليسيا دون أن تكون لدي أي توقُّعات كبيرة. كانت معظم المعلومات التي كنت أحتاج إليها موجودة في بنك

المعلومات على شبكة الإنترنت. غير أن ديوميديس، مثل الموظّفين القدامى، فضّل كتابة تقاريره باليد (متجاهلاً دعوة ستيفاني لهم باستعمال التكنولوجيا) واستمرَّ في فعل ذلك، ولهذا السبب يوجد ملف مَطويّ الزوايا على مكتبي.

ألقيتُ نظرة سريعة على ملاحظات ديوميديس، متجاهِلاً تأويلاته النفسية المتجاوزة، وركّزت على تقارير التسليم المقدمة من طرف الممرّضات حيث يُحتفظ بتقرير يومي عن سلوك أليسيا. قرأتُ تلك التقارير بإمعان. كنت أبحث عن حقائق، أرقام، تفاصيل - كنت أحتاج أن أعرف بالضبط ما أنا مُقدم عليه، وما يجب عليّ أن أتعامل معه، وما إذا كانت هناك مفاجآت في انتظاري.

في نهاية المطاف لم يكشف الملف عن كثير من الحقائق. عندما تمَّ إدخالها للمستشفى، قطعت أليسيا معصميها مرتين وآذت نفسها بكل شيء تجده في متناولها. احتُفظ بها في وضعية واحد-مقابل-اثنين لمدة ستة أشهر - يعني ذلك أن ممرّضتَين قامتا بحراستها كل الوقت - وقُلِّص العدد في الأخير إلى واحد-مقابل-واحد. لم تقم أليسيا بأي مجهود للتفاعُل مع المرضى أو الموظّفين، وبقيت منسحبة ومنعزلة، وفي معظم الأحيان كان المرضى يتركونها لحالها. إذا لم يجبك شخص عندما تتكلّم إليه، ولا يبدأ أبداً الكلام مع الآخرين، فإنك تنسى أنه موجود. ذابت أليسيا سريعاً في الخلفية وأصبحت غير مرئية.

هناك حادث معزول. وقع في المطعم أسابيع بعد دخول أليسيا المستشفى. اتّهمت إليف أليسيا بأخذ كرسيها. لم يكن واضحاً ما حدث لكن المواجَهة تطوّرت بسُرعة. من الواضح أن أليسيا أصبحت عنيفة - كسرت صحناً وحاولت أن تقطع رقبة إليف بالحافة المسنّنة. كان يجب احتوائها، وتهدئتها وعزلها.

لم أكن متأكّداً من السبب الذي جعل هذا الحادث يثير انتباهي. لكنني أحسست أن هناك شيئاً غير صحيح في الموضوع. لذلك قررت أن أسأل إليف عن الحادث.

مزّقت قطعة ورق من الدفتر وأخذتُ القلمَ. عادة قديمة كوّنتها في الجامعة - استعمال القلم والورق للتدوين، عملية تساعدني على التنظيم العقلي. كنت دائماً أجدُ صعوبة في التعبير عن رأيي حتى أكتبه.

بدأت أدوِّن بطريقة سريعة الأفكار والملاحظات والأهداف - أصمِّم خطة للهجوم. لمساعدة أليسيا، كنت محتاجاً إلى فهمها وفهم علاقتها بغابرييل. هل كانت تحبّه؟ تكرهه؟ ولماذا رفضت التحدّث عن جريمة القتل - أو عن أي شيء آخر؟ ليست هناك أجوبة، ليس بعد - أسئلة فقط.

كتبتُ كلمة وسطرت تحتها: **ألسيستيس**.

اللوحة الشخصية - كانت مهمّة، بطريقة ما، كنت أعرف ذلك، سيكون فهم السبب عاملاً أساسياً في حلّ هذا اللغز. كانت هذه اللوحة هي التواصل الوحيد لأليسيا، شهادتها الوحيدة. وكانت شيئاً يجب عليّ أن أفهمه. سجّلت ملاحظة بضرورة زيارة المعرض لتفحّص اللوحة ثانية.

كتبت كلمة أخرى: **الطفولة**. إذا كنتُ فعلاً أسعى إلى فهم جريمة قتل غابرييل، كان عليّ أن أفهم ليس فقط أحداث الليلة التي قتلَته فيها أليسيا ولكن أيضاً أحداث الماضي البعيد. كانت بذور ما حدث في تلك الدقائق عندما أطلقت عليه النار قد زُرعت ربما سنوات من قبل. لا يولد الغيظ الذي يدفع إلى القتل في الحاضر. إنه يرجع إلى الأرض التي توجدُ وراء الذاكرة، في عالم الطفولة

الأولى، حيث الإيذاء وسوء المعاملة في سنٍّ مبكّرة، اللذين يُكوّنان مع مرور الزمن شحنة ستنفجر - غالباً في وجه الهدف الخطأ. كان عليّ أن أكتشف كيف شكّلتها طفولتها؛ وإذا كانت أليسيا لن تخبرني أو لن تستطيع ذلك، كان يجب عليّ أن أجدَ شخصاً يَقدر على ذلك، شخصاً عرف أليسيا قبل القتل، شخصاً يساعدني على فهم تاريخها، ومَن تكون، ولماذا انتهى بها الأمر بهذه الطريقة.

يوجدُ في الملفّ ذكر لعمّتها كأقرب المقرّبين إليها - ليديا روز - والتي ربّتها بعد موت والدتها في حادثة سير. كانت أليسيا موجودة في حادث السيارة لكنها بقيت على قيد الحياة. من المؤكّد أن الصدمة أثّرت في الطفلة الصغيرة جداً. تمنيت أن تكون ليديا قادرة على إخباري عن الموضوع.

كان الشخص الآخر الوحيد الذي يمكن الاتصال به هو محامي أليسيا: ماكس بيرينسون. كان ماكس أخَ غابرييل بيرينسون. كان بإمكانه من خلال هذه القرابة أن يكون مطّلعاً على تفاصيل زواجهما الحميمة. لكن مسألة ما إذا كان ماكس سيثق بي هي شأن آخر. اقتراب غير مطلوب من طرف المعالج النفسي لأُسرة أليسيا هو أمر غير عادي حتى نقول أقلّ ما يمكن أن يقال. كان لدي إحساس متشائم بأن ديوميديس لن يوافق. قررت أنه من الأحسن أن لا أطلب رخصة، حتى أتفادى رفضه.

بالرجوع بالذاكرة إلى الوراء، كانت هذه أول مخالفة مهنية في التعامُل مع أليسيا - القيام بسابقة غير ملائمة لما حدث فيما بعد. كان عليّ أن أتوقّفَ هناك. لكن حتى في ذلك الوقت كان سيكون التوقف متأخّراً جداً. من عدة أوجه، كان قدري قد قُرِّر مسبقاً - كما يقع في التراجيديا الإغريقية.

أخذتُ الهاتف. هاتفتُ ماكس بيرينسون في مكتبه، مستعمِلاً

رقم الهاتف الموجود في ملفّ أليسيا. رنَّ عدة مرات قبل أن تُرفع السماعة:

«مكاتب إليوت، بارو، وبيرينسون»، قالَت موظفة الاستقبال التي كانت تعاني من نزلة برد حادة.

«السيد بيرينسون من فضلك».

«هل يمكنني معرفة اسمك؟».

«اسمي ثيو فابر. أنا معالج نفسي في ذا غروف. كنت أتساءل إذا كان ممكناً التكلُّم مع السيّد بيرينسون بشأن زوجة أخيه».

كان هناك توقف قصير قبل أن تجيب.

«آه، فهمت. حسناً، لن يكون السيد بيرينسون موجوداً في المكتب لبقية الأُسبوع. إنه يزور زبوناً في إدنبرة. إذا تركتَ لي رقم هاتفك، سأطلب منه أن يهاتفك عند رجوعه».

أعطيتها رقمي ثم أنهيت المكالمة.

اتّصلتُ بالرقم الثاني في الملفّ - عمة أليسيا، ليديا روز. هذه المرة كان الجواب بعد الرنّة الأولى. كان الصوت لسيدة مسنّة وكانت تبدو لاهثة ومنزعِجة.

«نعم؟ ما الأمر؟».

«هل هذه هي السيدة روز؟».

«من أنت؟».

«أهاتفك في موضوع ابنة أختك، أليسيا بيرينسون. أنا معالج نفسي أشتغل في——».

«تباً لك»، قالت وأنهت المكالمة.

قطّبت حاجبَي لنفسي.

ليست ببداية جيدة.

9

كنت محتاجاً جداً إلى سيجارة. عند مغادرتي لذا غروف، بحثتُ عنها في جيب معطفي، لكنها لم تكن هناك.

«هل تبحث عن شيء؟».

التفتُّ. كان يوري واقفاً خَلفي مباشرة. لم أسمعه وتفاجأت لوجوده قريباً جداً مني.

«وجدتها في مركز الممرّضات»، قال لي بابتسامة عريضة وسلّمني علبة السجائر. «من الأكيد أنها وقعت من جيبك».

«شكراً».

أخذتها وأشعلتُ سيجارة. قدّمت له العلبة. حرّكَ يوري رأسه رافضاً.

«لا أدخّن. ليست السجائر على أي حال». ضحك. «تبدو بحاجة إلى مشروب. هيا بنا. سأشتري لك كأساً كبيرة من البيرة».

تردّدت. كان شعوري التلقائي هو الرفض - لم أكن أحبُّ أبداً أن أطوّرَ علاقات اجتماعية مع زملائي في العمل. كنت أشكُّ في يوري وكنت أشتركُ معه في كثير من الأشياء. لكنه ربما يعرف عن أليسيا أكثر من أي شخص في ذا غروف - ويمكن أن تكون آراؤه مُفيدة.

«بالتأكيد»، قلت له. «لِمَ لا؟».

ذهبنا إلى حانة قريبة من المحطة، «الحمل المذبوح». كان مظلماً ومتّسخاً، كانت وضعيته أحسن في ما مضى من السنوات، وكذلك وضعية الرجال المسنّين الذين كانوا يغفون وكؤوس البيرة التي لم يكملوا شربها في أيديهم. طلبَ يوري كأسَي بيرة وجلسنا في الخلف.

شربَ يوري جُرعة كبيرة ومسحَ فمه.

«حسناً»، قال لي. «أخبرني عن أليسيا».

«أليسيا؟».

«كيف وجدتها؟».

«لستُ متأكّداً أنني وجدتها».

ألقى عليّ يوري نظرة متسائلة، ثم ابتسم. «لا تريد أن توجد؟ نعم، صحيح. إنها تختبئ».

«أنت قريب منها. أستطيع أن أرى ذلك».

«أعتني بها عناية خاصة. لا أحد يعرفها مثلي، ولا حتى البروفيسور ديوميديس».

كانت هناك نبرة افتخار في صوته. أزعجتني لسبب ما - تساءلتُ إذا كان فعلاً يعرفها جيّداً، أم أنه كان فقط يتباهى.

«ما رأيك في سكوتها؟ كيف تفسّره؟».

هزَّ يوري كتفَيه. «أخمّن أنه يعني أنها ليست مستعدّة بعد. ستتكلّم عندما تكون مستعدّة».

«مستعدّة لماذا؟».

«مستعدّة للحقيقة، يا صديقي».

« وما هي تلك الحقيقة؟».

أدارَ يوري رأسه إلى جهة واحدة قليلاً ليتفحّصني. والسؤال الذي خرجَ من فمه فاجأني.

«هل أنت متزوِّج، ثيو؟».

حرّكتُ رأسي بالإيجاب: «نعم، أنا متزوِّج».

«نعم. هذا ما اعتقدته. كنتُ متزوِّجاً ذات مرة أيضاً. انتقلنا هنا من ليتوانيا. لكنها لم تندمج كما فعلتُ. لم تبذل جهداً، ولم تتعلّم اللغة الإنجليزية. على أي حال، لم تكن... لم أكن سعيداً - لكني تعاميت عن ذلك، كنت أكذب على نفسي...». أفرغ كلَّ البيرة في جَوفِهِ ثم أكملَ الجُملة. «... حتى وقعت في الحب».

«من المحتمل جداً أنك لا تعني مع زوجتك؟».

ضحكَ يوري وحرّكَ رأسه.

«لا. امرأة كانت تسكن بالقرب مني. امرأة جميلة جداً. كان حبّاً من النظرة الأولى... رأيتها في الشارع. تطلّبَ مني وقتاً كثيراً أن أتشجّعَ وأتكلّمَ معها. كنت معتاداً على متابعتها... كنت أراقبها أحياناً، دون علمها. كنت أقفُ خارج منزلها وأنظر متمنّياً أن تظهر في النافذة». ضحكَ.

كانت هذه القصة قد بدأت تضايقني. أكملتُ شرب البيرة ونظرت إلى ساعتي. متمنّياً أن يلتقط يوري الإشارة، لكنه لم يفعل.

«ذات يوم»، قال، «حاولتُ التكلُّمَ معها. لكنها لم تكن مهتمة بي. حاولتُ بعض المرات... لكنها طلبت مني أن أتوقّف عن مضايقتها».

لم أكن لألومها، فكّرتُ حينها. كنتُ على وشك أن أقدّمَ اعتذاراً وأذهب لحالي، لكنّ يوري استمرَّ في الكلام.

«كان صعباً عليّ قبول ذلك»، قال لي. «كنت متأكّداً أنه كان واحدنا للآخر. جَرحَت قلبي. كنت غاضباً منها، غاضباً جداً».

«وماذا حدث؟» سألته، مظهِراً بعض الفضول رغماً عني.

«لا شيء».

«لا شيء؟ بقيت مع زوجتك؟».

حرّكَ يوري رأسه نافياً. «لا. انتهت علاقتي بها... لإدراك ذلك... لمواجهة الحقيقة حولي وحول زوجتي. أحياناً يحتاجُ الأمرَ الصدق، الشجاعة والوقت الطويل».

«فهمت. هل تعتقد أن أليسيا ليست مستعدّة لمواجهة حقيقة زواجها. هل هذا ما تعنيه؟ يمكن أن يكون رأيك صائباً».

هزَّ يوري كتفَيه. «والآن خطبت فتاة جميلة من هنغاريا. إنها تعمل في منتجع. إنها تتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة. نوافق بعضنا البعض. ونستمتع بوقتنا معاً».

أومأتُ برأسي ثم نظرت إلى الساعة. حملتُ مِعطفي.

«يجبُ عليّ أن أذهب. سأصلُّ متأخّراً للقاء زوجتي».

«لا بأس. لا مشكلة... ما اسمها؟ زوجتك؟».

لسبب ما. لم أكن أريد أن أخبره. لم أكن أريد يوري أن يعرف أي شيء. لكن ذلك كان فعلاً غبياً.

«كاثرين»، قلت له. «اسمها كاثرين لكني أناديها كاثي».

ابتسم يوري ابتسامةً غريبة في وجهي.

«دعني أعطيك نصيحة»، قالَ لي. «اذهبْ إلى البيت للقاء زوجتك. اذهب إلى البيت إلى كاثي التي تحبك... واترك أليسيا خلفك».

10

ذهبتُ للقاء كاثي في مقهى المسرح الوطني على الضفّة الجنوبية حيث يجتمعُ غالباً الممثّلون بعد انتهاء التدريب. كانت جالسة داخل المقهى مع مجموعة من الزملاء الممثّلين، وكانوا مستغرقين في الحديث. نظروا إليّ عندما اقتربت منهم.

«هل تطنُّ أذناك، حبيبي؟» قالت لي كاثي بعد أن قبّلَتني.

«هل عليهما ذلك؟».

«كنت أقول للفتيات كل شيء حول حياتك».

«آه. هل يجب عليّ أن أغادر؟».

«لا تكن سخيفاً. اجلس - جئتَ في الوقت المناسب. كنت قد وصلت إلى اللحظة التي التقينا فيها».

جلستُ، وواصلَت كاثي قصّتها. كانت قصة تحب حكيها. كانت تنظر في اتجاهي من حين إلى آخر وتبتسم - وكأنها تريد أن تشركَني، لكن هذا كان حركة سطحية، لأن هذه كانت قصتها، وليست قصتي.

«كنت جالسة في حانة عندما حضر أخيراً. أخيراً بعد أن فقدت كل أمل في لقائه - دخل إلى الحانة، رجلُ أحلامي. ظهور متأخِّر أحسن من لا شيء. كنت أظنُّ أنني سأتزوّج في سنّ السابعة

والعشرين، وببلوغي الثلاثين سنة سأكون أمّاً لطفلَين، ولي كلب صغير ورهن عقاري كبير. الآن وقد وصلتُ سنّ الثالثة والثلاثين، ولم يتحقّق شيء ممّا توقعت». قالت كاثي هذا وابتسمت ابتسامة مازحة وغمزَت الفتيات.

«على أي حال، كانت لي علاقة بهذا الأسترالي المسمّى دانييل. غير أنه لم يكن يرغب في الزواج ولا إنجاب الأولاد في وقت قريب، لذلك عرفت أنني كنت أضيّع وقتي. ذات مساء كنت معه عندما وقع ذلك فجأة، دخل الرجل المناسب. . . »، نظرَت إليّ كاثي وابتسمَت، وأدارت عينيها - «مع حبيبته».

كان هذا الجزء من القصة يحتاج إلى معالجة خاصة، حتى يحتفظ باهتمام من كانوا يستمعون إليها. الحقيقة هي أن كاثي وأنا كنا نخرج مع أصدقاء آخرين عندما التقينا. ليست الخيانة المزدوجة البداية السعيدة والأكثر جاذبية لعلاقة ما، خصوصاً أنه تم تقديمنا لبعضنا البعض من طرف شركائنا في ذلك الوقت. كان هناك سبب ما لمعرفة هذين الصديقين لبعضهما البعض، لا أتذكر التفاصيل الدقيقة - ربما كانت ماريان خرجت ذات مرة مع رفيق دانييل في الغرفة، أو العكس. لا أتذكر بكلّ دقّة كيف تمَّ تقديمنا لبعضنا البعض، لكنني أتذكّر جيّداً المرة الأولى التي رأيت فيها كاثي. كانت تلك النظرة تشبه صدمة كهربائية. أتذكر شعرها الأسود الطويل، عيناها الخضراوَين الثاقبتَين، فمها. كانت جميلة ورائعة. ملاك.

توقّفت كاثي في هذه النقطة من حكي القصة وابتسمَت ومسكت يدي. «هل تتذكر يا ثيو؟ كيف بدأنا الكلام؟ قُلتَ لي إنك كنت تدرس لتصبح طبيباً نفسياً، وقلتُ لك إنني مختلّة عقلياً - لذلك كان زواجنا مكتوباً في السماء».

كان هذا مثيراً لضحك عالٍ من الفتيات. ضحكَت كاثي أيضاً، وألقَت عليّ نظرة، كانت عيناها تبحثان عن عينَي بصدقٍ وقلق. «لا، لكن... حبيبي... بجدّ، كان حبّاً من النظرة الأولى، أليس كذلك؟».

كان هذا تلميح مني. أومأت برأسي موافِقاً، وقبّلت خدها. «طبعاً كان كذلك. حب حقيقي».

تلقّى هذا نظرة موافقة من طرف صديقاتها. لكنني لم أكن أُمَثّل. كانت محقّة، كان حبّاً من النظرة الأولى - حسناً، كانت رغبة على أي حال. رغم أنني كنت برفقة ماريان تلك الليلة، لم أستطع إبعاد عينَي عن كاثي. كنت أنظرُ إليها عن بُعد وهي تتحدّث بحماس إلى دانييل - ثم بعد لحظة رأيت شفتيها تنبس «تباً». كانا يتخاصمان. اشتدَّ الخصام. استدار دانييل وخرج.

«إنك لا تتحدّث»، قالت ماريان. «ما الأمر؟».

«لا شيء».

«لنذهب، إذاً. أشعرُ بالتعب».

«ليس بعد»، قلت لها وأنا بالكاد سمعت ما قالته. «لنتناول مشروباً آخر».

«أريد أن أذهب الآن».

«اذهبي إذاً».

قذفتني ماريان بنظرة مجروحة، أمسكَت بمِعطفها وخرجَت. كنتُ أعرفُ أنه سيكون هناك خصام في اليوم الموالي، لكنني لم أهتم. ذهبت إلى كاثي بالقرب من المشرَب.

«هل سيعود دانييل؟» سألتها.

«لا»، قالت كاثي. «ماذا عن ماريان؟».

حرّكتُ رأسي نافياً. «لا. هل تريدين مشروباً آخر؟».

«نعم. أريد».

طلبنا مشروبَين إضافيَّين. كنا نقف بجانب المشرَب نتكلّم. تحدّثنا عن تعليمي في العلاج النفسي، أتذكّر ذلك. تحدثَت عن الفترة التي قضَتها في المعهد المسرحي - لم تبقَ هناك لفترة طويلة، حيث إنها وقّعَت عقداً مع وكيل في نهاية سنتها الأولى، ومنذ ذلك الوقت وهي ممثّلة محترِفة. كنت أظنُّ دون معرفة السبب أنها كانت من المحتمَل ممثّلة جيّدة.

«لم تكن الدراسة ما أرغب فيه»، قالَت لي. «كنت أرغب في أن أذهب هناك وأقوم بذلك -».

«بماذا؟ التمثيل؟».

«لا. الحياة». أمالت رأسها قليلاً ونظرت إليّ من تحت رموشها السوداء، وعيناها بلونهما الأخضر الزمرُّدي تحدّق النظر فيّ بشغب.

«ثيو. من أين لك هذا الصبر على الاستمرار في فعل ذلك، أعني الدراسة؟».

«ربما لا أريد أن أذهب هناك وأمارس الحياة. ربما أنا جبان».

«لو كنت جباناً، لكنت ذهبت مع حبيبتك».

ضحكت كاثي. كانت ضحكة خبيثة بشكلٍ مفاجئ. أردت أن أمسك بها وأقبّلها بقوة. لم أعش أبداً مثل هذه الرغبة الجسدية العارمة من قبل. أردت أن أسحبها لتقترب مني أكثر، وأحسُّ بشفتيها وبحرارة جسدها وهو ملتصق بجسدي.

«أنا آسفة»، قالت لي. «كان يجب عليّ ألّا أقول ذلك. أنا دائماً أعبِّر عمّا يخطر ببالي. لقد قلت ذلك لك مسبقاً. أنا شيئاً ما مختلّة عقلياً».

كانت كاثي تفعل ذلك كثيراً، لتأكيد جنونها - «أنا مجنونة»، «أنا مختلّة عقلياً»، «أنا معتوهة» - لكنني لم أصدّقها أبداً. كانت تضحك بسهولة كبيرة وأحياناً كثيرة، ممّا جعلني لا أصدّق أنها عانت من نوع الظلام الذي جرّبته. كانت لها عفوية، خفّة روح - كانت فرحة بالحياة وكانت دائماً تستمتعُ بها. رغم تأكيداتها، كانت تبدو الشخص الأقلّ جنوناً من الناس الذين عرفتهم. كنت أحسُّ بأنني أكثر تعقُّلاً بصحبتها.

كانت كاثي أميركية. ولدت وترعرعت في الجهة الغربية العليا من مانهاتن. منحتها أمها الإنجليزية جنسية مزدوجة - لكن كاثي كانت تبدو بعيدة كل البُعد عن الإنجليز. كانت تبدو غير إنجليزية بشكلٍ حاسم وبوضوح - ليس فقط بطريقة كلامها، بل بطريقة رؤيتها للعالم ومقاربتها له. بتلك الثقة وبتلك الحيوية، لم أرَ شخصاً مثلها من قبل.

غادرنا الحانة ونادينا على تاكسي وأعطيته عنوان شقّتي. كنّا صامتَين طوال الرحلة القصيرة. عندما وصلنا، ضغطَت شفتَيها بلطفٍ على شفتَي. تحرّرتُ من كل تحفُّظ وسحبتها نحوي.

كانت تلك الليلة الأكثر إثارة والأكثر سعادة في حياتي. أتذكّر أن بياضاً كثيراً كان في كل مكان: ضوء الشمس الأبيض يتسلّلُ من بين الستائر، جدران بيضاء، مفارش السرير البيضاء، بياض عينيها، أسنانها، بشرتها. لم أكن أعرف أن البشرة يمكنها أن تكون مضيئةً وشفّافةً إلى هذه الدرجة: بياض العاج بعروق زرقاء متفرِّقة تظهر من تحتها مثل خيوط ملوَّنة في قطعة رخام بيضاء. كانت تمثالاً؛ إلهة إغريقية ولدت على يدَي.

استلقينا هناك في حضن بعضنا البعض. كانت كاثي تنظرُ إليّ

وكانت عيناها قريبتَين جداً مني لدرجة أنها أصبحت ضبابية. حدقت في البحر الأخضر الضبابي. «حسناً؟» قالت.

«نعم؟».

«ماذا عن ماريان؟».

«ماريان؟».

بريق ابتسامة. «حبيبتك».

«آه، نعم». تردّدت، غير متأكّد. «لا أعرف عن ماريان. ماذا عن دانييل؟».

أدارت كاثي عينيها. «انسَ دانييل. لقد نسيته».

«حقاً؟».

كان جوابها هو تقبيلي.

قبل أن تغادر كاثي، أخذَت حمّاماً وعندما كانت تفعل ذلك، هاتفتُ ماريان. كنت أريد أن أرتّب لقاءً معها لأصارحها بالأمر وجهاً لوجه لكنها كانت منزعجة وألحّت على أن يكون الكلام في الموضوع في ذلك الوقت على الهاتف. لم تكن ماريان تتوقّع أن أنفصلَ عنها. لكن ذلك هو ما فعلت، بكل رِفق ممكن. بدأَتْ في البكاء، وتملّكها الانفعال والغضب. انتهى بي الأمر بإنهاء المكالمة. كان ذلك قاسياً، نعم، وغير لطيف. لست فخوراً بتلك المكالمة، غير أنها في الوقت نفسه الفعل الصادق الوحيد الذي كان عليّ فعله. ما زلتُ لا أعرف كيف كان بإمكاني التصرُّف بطريقة مختلفة.

في أول موعد لي مع كاثي، التقينا بحدائق كيو. كانت فكرتها. كانت مندهشة لعدم زيارتي لهذه الحدائق من قبل. «أنت تمزح، بالتأكيد؟» قالت لي. «لم تزر أبداً هذه الخيام البلاستيكية؟ هناك

خيمة كبيرة بكلّ تلك الأزهار الاستوائية، يحتفظون بها دافئة جداً، مثل الفرن. عندما كنت أدرسُ في المعهد المسرحي، كنت أذهب هناك وأقضي بعض الوقت لأشعر بالدفء. هل نلتقي هناك بعد أن تنهي عملك؟» ثم تردّدت، غير متأكدة: «هل المكان بعيد جداً بالنسبة إليك؟».

«أنا مستعدّ للذهاب أبعد من حدائق كيو من أجلك حبيبتي»، قلت لها.

«غبي»، قالت ثم قبّلتني.

كانت كاثي تنتظرني أمام المدخل عندما وصلت، بمعطفها الكبير وبوشاحها، وكانت تلوح إليّ كطفلة متحمّسة. «هيا، هيا»، قالت لي. «اتبعني».

قادتني عبر الوحل المتجمّد إلى البناية الزجاجية الكبيرة التي تحوي النباتات الاستوائية، دفعت الباب ودخلت باندفاع. تبعتها وأثار انتباهي على التوّ الارتفاع المفاجئ للحرارة، هجوم للحرارة. خلعتُ معطفي ووشاحي. ابتسمَت كاثي.

«أحسَست بذلك؟ لقد قلت لك، إنها مثل حمّام الساونا. أليس ذلك جميلاً؟».

تجوّلنا عبر الممرّات، نحمل معطفَينا ونمسك بيد بعضنا البعض، ونشاهد الأزهار الغريبة.

أحسستُ بسعادة غريبة لمجرّد أنني بصحبتها، وكأنّ باباً سرّياً فُتح وكاثي تطلبُ مني الدخول من على العتبة إلى عالم سحري من الدفء والضوء واللون، ومئات الأزهار على شكل نثار مبهِر من الأزرق والأحمر والأصفر.

كنت أحس بأنني أذوب في الدفء، وكلّ أطرافي تسترجع

الحياة، كسلحفاة تخرج إلى الشمس بعد خمول شتاء طويل، ترفرف بعينيها وتستيقظ. كاثي فعلت ذلك لي - كانت دعوة إلى الحياة بالنسبة إليّ؛ أمسكت بها بكلتا يدَي.

اعترفتُ بذلك من دون تردُّد، وكان واضحاً لي أنني لم أعش أبداً مثل هذه التجربة من قبل. كانت لقاءاتي الرومانسية السابقة قصيرة وغير مُرضية على الإطلاق. عندما كنت تلميذاً استجمعتُ شجاعتي، بمساعدة كمّية كبيرة من الكحول، لأفقد عذريتي مع طالبة كندية في شعبة السوسيولوجيا اسمها ميريديث التي كانت الأسلاك الحادّة بفمها تقطع شفتَي كلما قبّلتها. تبعَ ذلك مجموعة من العلاقات لا روح فيها. لم يَبْدُ أبداً أنني وجدت العلاقة الخاصة التي كنت أتوق إليها. كنت أعتقد أنني محطّم وغير قادرٍ على العلاقات الحميمة. غير أنه الآن كلما سمعت قهقهة كاثي المعدية، تمرُّ موجة من الإثارة عبر جسدي. امتصصت، عبر نوع من التناضُح، حيوية شبابها، عفويتها وبهجتها. قلتُ نعم لكل اقتراحاتها ولكل نزواتها. لم أعرف نفسي. أحببت هذا الشخص، هذا الرجل غير الخائف الذي ألهمتني كاثي أن أكونه. سيطرت عليّ الشهوة وأحسست بجوعٍ دائم ومستعجِل لها. كنت أحتاجُ إلى ملامستها دوماً؛ لم أكن أستطيع الاقتراب بالقدر الكافي.

انتقلَت كاثي لتسكن معي في ديسمبر، في شقتي ذي الغرفة الواحدة في كينتش تاون. كانت شقّة باردة بها سَجّادة سميكة في الدور السفلي، بها نوافذ لكن من دون مناظر. كان أول عيد ميلاد نحتفل به معاً، وصمّمنا على الاحتفال به بطريقة مناسبة. اشترينا شجرة من كشك قرب محطة المترو، ثم أضفنا إليها مزيجاً من التزيينات والأضواء اشتريناها من السوق.

أتذكّر جيداً رائحة أوراق الشجرة والخشب والشموع وهي تحترق؛ وكانت عينا كاثي تحدّقان فيَّ، تلمع وتتلألآن كالأضواء على الشجرة. تكلّمت دون تفكير. خرجَت الكلمات بكلّ عفوية:

«هل تتزوجينني؟».

حدقت كاثي بي. «ماذا؟».

«أحبّك كاثي. هل تتزوجينني؟».

ضحكت كاتي. ثم قالت كلمةً أسعدتني وأدهشتني: «نعم».

في اليوم الموالي خرجنا معاً واختارت خاتماً. برز واقع جديد. كنا مخطوبَين.

كان غريباً أن يكون أول من فكرت فيه هم الوالدان. كنت أودُّ أن أقدِّمَ كاثي لهم. كنت أريد أن أبيّن مقدار سعادتي: أنني هربت أخيراً، وأصبحت حرّاً. أخذنا القطار إلى سُري. كإدراك متأخّر، كانت الفكرة سيّئة، محكوم عليها بالفشل منذ البداية. حيّاني أبي بعدوانيته المعهودة: «تبدو فظيعاً، ثيو. تبدو نحيفاً. شعرك قصير جداً. تبدو كسجين».

«شكراً أبي. سعيد أنا أيضاً بلقائك».

كانت أمي تبدو أكثر كآبة ممّا كانت عليه عادة. كانت أكثر هدوءاً، أقلّ حجماً إلى حدٍّ ما، كأنها لم تكن هناك. كان لأبي حضور أكثر ثقلاً، غير لطيف، نظراته ساخطة، ودون ابتسامة. لم يُزح عينَيه الباردتَين السوداوين عن كاثي كل الوقت. كان الغداء يفتقد إلى الإحساس بالراحة. لم يبدُ عليهما أنهما أحبّاها، ولم يبدُ أنهما سعيدان لأجلنا. لا أدري لماذا تفاجأت بالأمر.

بعد الغداء اختفى أبي في مكتبه ولم يظهر ثانية. عندما ودّعتني أمي، أمسكَت بي طويلاً، واقتربت مني جداً وكانت تبدو غير مستقرّة

في وقوفها. أحسستُ بحزن شديد. عندما غادرت أنا وكاثي البيت، بقيَ جزء مني هناك، كنتُ أعرف، لكنه بقي هناك، إلى الأبد، طفل وقع في الشَّرَك. أحسستُ بالضياع واليأس وكانت دموعي على وشك الانهمار. فاجأتني كاثي كما تفعل دائماً. ألقت بذراعيها حولي وضمّتني إليها. «أفهم الآن»، همسَت في أذني. «أفهم كل شيء. أحبك أكثر من أي وقت مضى».

لم تضف أي شرح. ولم تكن في حاجة إلى ذلك.

تزوّجنا في أبريل في مكتب الزواج المدني في أوستن سكوير. لم يحضر الآباء ولم يحضر الإله. لا أثر للدين، كما ألحّت على ذلك كاثي. لكني قرأت دعاءً سرّياً خلال إبرام العَقد. شكرته في صمت على السعادة غير المتوقّعة وغير المستحقّة التي منحها إليّ. رأيت الأمور بوضوح الآن، فهمتُ هدفه الأعظم. لم يتخلَّ عنّي الإله في طفولتي عندما كنت أحسُّ بالوحدة والخوف - كان يحتفظ لي ببكائي ويخفيها في كمّه، في انتظار أن يخرجها كساحر أصمّ.

أحسستُ بالتواضع والعِرفان لكلّ لحظة قضيناها معاً. أدركت أنني محظوظ وسعيد جداً بهذا الحب، هذا الحب النادر، ولكون الآخرين لم يكونوا محظوظين مثلي. أغلب المرضى لم يكونوا محبوبين؛ أليسيا كانت واحدة منهم.

يصعبُ عليّ تخيُّل امرأتين مختلفتَين أكثر مما هما أليسيا وكاثي. تجعلني كاثي أفكر بالضوء والدفء واللون والضحك. عندما أفكر في أليسيا، أفكّر في العمق، والسواد والحزن.

في الصمت.

الجزء الثاني

المشاعر غير المعبَّر عنها لا تموت أبداً. إنها دُفنت حيّة، وستظهر لاحقاً، بطُرق أبشع.

سيغموند فرويد

1

يوميّات أليسيا بيرينسون

16 يوليو

لم يخطر ببالي أبداً أنني سأتوق إلى الشتاء. ندخلُ أُسبوعنا الرابع من موجة الحرارة، ويبدو وكأنه امتحان للتحمُّل. كل يوم أشدّ حرارة من اليوم السابق. يبدو وكأننا لسنا في إنجلترا، بل أكثر في بلد أجنبي كاليونان أو مكان آخر.

أكتب هذا في حديقة هامبستيد هيث. كل الحديقة مكسوّة بأجساد شبه عارية وبأوجه حمراء، مثل الشاطئ أو ساحة المعركة، فوق أغطية أو مقاعد، أو مستلقية فوق العشب. أجلسُ تحت شجرة، في الظلّ. إنها الساعة السادسة مساء وبدأ الجو يصبح ألطف. الشمس منخفضة وحمراء في سماء ذهبية - تبدو الحديقة مختلفة في هذا النور - ظلال أكثر سواداً، وألوان أكثر بريقاً. يبدو العشب وكأنه مشتعل ناراً، لهيب مشتعل تحت قدمي.

خلعتُ حذائي في طريقي إلى هذا المكان ومشيت حافية القدمَين. ذكّرني هذا بطفولتي عندما كنت صغيرة وألعب خارج

البيت. ذكّرني بفصل صيف آخر، حارّ مثل هذا الصيف - الصيف حين ماتت أمي - حين كنت ألعب بالخارج مع بول، نقود دراجتَينا عبر الحُقول الذهبية، المزركشة بأزهار الأقحوان، ونستكشفُ المنازل المهجورة وحقول الفاكهة المسكونة بالأشباح. أتذكّر أن ذلك الصيف دام للأبد. أتذكّر أمي وأغطية الرأس الملوَّنة التي كانت ترتديها، وأحزمتها الصفراء، الرقيقة جداً والقابلة للكسر، مثلها تماماً. كانت نحيلة جداً، مثل عصفور صغير. كانت تُشغّل الراديو وتحملني وترقصُ بي على إيقاع أغاني البوب. أتذكر رائحة الشامبو والسجائر ومرهم نيفيا لليد مع رائحة خافتة للفودكا التي كانت تنبعث منها. كم كان عمرها آنذاك؟ ثمانية وعشرون؟ تسعة وعشرون؟ كانت أصغر سنّاً مني الآن.

إنها فكرة غريبة.

في طريقي إلى هنا رأيت عصفوراً صغيراً على الممرّ، مُستلقياً على جذور شجرة. اعتقدت أنه سقط من عشّهِ. لم يكن يتحرّك وتساءلت عمّا إذا كان كسرَ جناحَيه. داعبتُ رأسه بلطف بإصبعي. لم يتحرّك. دفعته برفق وقلبته على الجهة الأخرى - كان نصفه السفلي غير موجود، أُكل وبقيَ مكانه تجويف مليء باليرقات. يرقات ممتلئة بيضاء وزلقة... تفتل وتدور، وتلتوي حول نفسها... أحسست بالرغبة في التقيُّؤ - اعتقدت أنني سأمرض. كان منظر العصفور كريها ومقززاً - ساكناً سكون الموت.

لا أستطيع أن أنساه.

17 يوليو

بدأتُ أحتمي من الحرارة بالذهاب إلى مقهى مكيّف في هاي ستريت - مقهى ديل أرتيستا. إنه بارد في الداخل، يشبهُ الدخول إليه تسلُّق ثلاجة. كانت هناك طاولة بالقرب من النافذة، حيث أجلس وأشرب قهوة مثلَّجة. أحياناً أقرأ، أو أرسم، أو أكتب بعض التدوينات. لكن في أغلب الأحيان أتركُ عقلي ينجرف ويستمتع بالبرودة. كانت الفتاة الجميلة خلف المنضدة تقف هناك وهي تبدو ضجِرة، تحدّق في هاتفها وتنظر إلى ساعتها وتتنهّد من حين إلى آخر. كانت تنهُّداتها، الأمس ظهراً، تبدو طويلة بالخصوص - وأدركت أنها كانت تنتظر أن أغادر، حتى تتمكّن من إقفال المقهى. غادرت المكان مكرَهة.

كان المشي في هذه الحرارة يشبهُ المشي في الوحل. شعرت بالحرارة تنهكني، تسحقني وتهزمني. لسنا مُعَدّين لمقاومتها، ليس في هذا البلد - لا نتوفّر أنا وغابرييل على مكيّف في البيت - ومن يتوفّر عليه؟ من دونه يستحيل النوم. في الليل نرمي عنا الأغطية ونستلقي في الظلام، عراة ومبللين بالعرق. كنا نترك النوافذ مفتوحة، لكن لم يكن هناك ولا مقدار ضئيل من النسيم ولا حتى الهواء الفاسد الحارّ.

اشتريتُ مروحة كهربائية البارحة. وضعتها أمام السرير فوق الصندوق، غير أن غابرييل بدأ يشكو على التوّ.

«إنها تحدث الكثير من الضوضاء. لن نستطيع النوم».

«لن ننام على أي حال»، قلت له. «على الأقل لن نستلقي هنا في حمّام الساونا».

دمدمَ غابرييل قليلاً ثم نام أخيراً قبل أن أنام. استلقيتُ هناك أستمع إلى المروحة: أحبُّ الصوت الذي تحدثه، طنيناً لطيفاً. يمكنني أن أغلق عينَي وأنسجم معه وأختفي.

كنت أحملُ المروحة معي في المنزل وأنا أنتقل من مكان إلى آخر، أصلها وأفصلها عن التيار الكهربائي. حملتها معي هذه الظهيرة إلى المرسم في نهاية الحديقة. يجعلُ تشغيل المروحة الوضع محتملاً. غير أن الجوَّ كان حارّاً جداً رغم ذلك لأتمكّن من إنجاز الكثير من العمل. بدأت أتأخّر في الإنجاز لكني لم أهتم بسبب الحرّ.

حقّقت تقدُّماً مفاجئاً - فهمتُ أخيراً الخطأ الموجود في صورة المسيح. لماذا هي غير صالحة. ليس المشكل في التركيب - المسيح فوق الصليب. المشكلُ هو أنها ليست صورة للمسيح على الإطلاق. إنها حتى لا تشبهه - كيفما كان شكل المسيح. لأنه ليس المسيح.

إنه غابرييل.

أمر لا يصدَّق أنني لم أرَ ذلك من قبل. بطريقة ما، وعلى غير نيّة مني، وضعتُ غابرييل هناك عوضاً عنه. إنه وجهه الذي رسمت، جسده. أليس ذلك فعلاً مجنوناً؟ يجب عليّ إذاً أن أستسلم لذلك - وأفعل ما تطلبه مني اللوحة.

أعرف الآن أنني عندما أخطِّط للوحة، أي عندما تكون لدي فكرة مسبقة عن المحتوى النهائي للوحة، فذلك لا يتحقّق أبداً. تبقى الفكرة ميتة، دون حياة. غير أنني عندما أكون فعلاً منتبهة، واعية تماماً، أسمع أحياناً صوتاً هامساً يقودني إلى وجهتي الحقيقية. وإذا ما استسلمت له، إيماناً به، فإنه يقودني إلى مكان ما لا أتوقّعه، ليس حيث كانت النيّة، بل مكان ما حيّ تماماً، رائع - والنتيجة هي مستقلّة عني، بقوة حياة خاصة بها.

أفترضُ أن ما يخيفني هو استسلامي للمجهول. أريد أن أعرف حيث أنا ذاهبة. لهذا السبب فإنني دائماً أصمِّم رسوماً - محاولةً التحكم في النتيجة - لا عجب إن لا شيء خرجَ إلى الوجود - لأنني لا أتجاوب مع ما هو موجود أمامي. يجب أن أفتح عينَي وأنظر - وأن أكون واعية بالحياة كما تحْدُث، لا فقط كما أريدها أن تكون. الآن أعرف أنها صورة لغابرييل، يمكنني أن أعود إليها. يمكنني أن أبدأ من جديد.

سأطلبُ منه أن يقفَ أمامي لأرسمه. لم يفعل ذلك من أجلي لمدّة طويلة. أتمنّى أن يحب الفكرة - وأن لا يعتقد أن ذلك فعل مدنّس، أو شيء من هذا القبيل.

قد يكون مضحِكاً على هذه الشاكلة أحياناً.

18 يوليو

مشيت أسفل الجبل إلى سوق كامدن هذا الصباح. لم أذهب هناك لسنوات؛ ليس منذ أنا وغابرييل ذهبنا معاً بعد الظهر للبحث عن شبابه المفقود. كان يذهب هناك عندما كان مراهِقاً، عندما كان هو وأصدقاؤه يسهرون الليل كله في الرقص والشرب والحديث. كانوا يأتون إلى السوق في الصباح الباكر ويشاهدون التجّار وهم يقيمون أكشاكهم، ويحاوِلون الحصول على بعض الحشيش من التجّار الراستافاريين الذين ينتشرون على القنطرة بالقرب من معبر كامدن. لم يكن التجّار موجودين هناك عندما ذهبت أنا وغابرييل، الأمر الذي أصابه بالخيبة. «لم أعد أعرف هذا المكان»، قال غابرييل. «إنها منطقة سياحية نظيفة جداً».

عندما كنت أتمشّى اليوم، تساءلتُ عمّا إذا كان المشكل هو أن السوق لم يتغيّر بالقدر الذي تغيّر به غابرييل. ما زال المكان مليئاً بالمراهقين، يحتضنون أشعّة الشمس ويتمدّدون على ضفتَي القناة، خليط من الأجساد - شباب بأقمصة أكمامها ملفوفة وبصدور عارية، وشابات بالبيكيني أو الصدريات - جلد في كل مكان، ولحم يَحْمرُّ تحت أشعّة الشمس. كانت الطاقة واضحة - عطشهم الجَزِع والجائِع للحياة. أحسستُ برغبة مفاجئة لغابرييل، لجسده ولرجلَيه القويتين، لفخذَيه الغليظَين وهما فوق فخذَي.

فجأة رأيت رجلاً مشرّداً، جالساً بالقرب مني على الرصيف، ويحدّق فيّ. كان سرواله مربوطاً بخيط، وحذائه مجموعاً بشريط. كان بجلده قروح وطفح جلدي منتفخ في وجهه. أحسستُ بحزنٍ مُفاجئ وقرف. وكانت تنبعثُ منه رائحة عرق قديم وبول. اعتقدت للحظة أنه تكلَّم معي. لكنه كان يسبُّ مخاطباً نفسه بصوت منخفض - «تباً» لهذا و«تباً» لذاك. بحثتُ عن بعض النقود في حقيبتي وأعطيتها إياه.

ثم ذهبت إلى البيت، صعدت الجبل أمشي بتمهُّل، خطوة فخطوة. كان يبدو أكثر انحداراً وكان يتطلّب صعوده زمناً أبدياً في هذا الحرّ الخانق. لسبب ما لم أستطع التوقُّف عن التفكير في الرجل المشرّد. باستثناء الشعور بالشفقة، كان هناك شعور آخر لا أستطيع تسميته، نوع من الخوف بطريقة ما. تخيّلته كرضيع بين أذرع أمه. هل كانت تتخيّل يوماً أن ابنها سينتهي به الأمر أن يصبح مجنوناً، متّسخاً وكريه الرائحة، وجالساً على الرصيف يهمهمُ كلاماً فاحشاً؟

فكّرت في أمي. هل كانت مجنونة؟ ألهذا فعلَتها؟ لماذا ربطتني في مقعد الراكب الأمامي في سيارتها الميني وقادت السيارة بسرعة

نحو ذلك الحائط من الآجُرّ الأحمر؟ كنت دائماً أحب تلك السيارة ولونها الأصفر الكناري المنشرح. اللون الأصفر نفسه الذي يوجد في علبة الألوان في مرسَمي. الآن أكرهُ ذلك اللون - كل مرّة أستعمله، أفكر في الموت.

لماذا فعلَت ذلك؟ أظنُّ أنني لن أعرف أبداً. كنت أعتقد أنه انتحار. الآن أعتقد أنه محاولة انتحار. لأنني كنت في السيارة كذلك، أليس كذلك؟ أحياناً أعتقد أنني الضحية المقصودة - لقد كانت تحاولُ قتلي، وليس قتل نفسها. لكن ذلك جنون. لماذا ستريد قتلي؟

تجمّعت الدموع في عينَي وأنا أمشي إلى أعلى الجبل. لم أكن أبكي من أجل أمي - أو من أجلي - أو حتى من أجل ذلك الرجل المشرّد. كنت أبكي من أجلنا جميعاً. هناك الكثير من الألم في كل مكان غير أننا نغمض أعيننا حتى لا نراه. الحقيقة هي أننا كلنا خائفون. نخاف من بعضنا البعض. أخاف من نفسي - ومن أمي بداخلي. هل يوجد جنونها في دمي؟ أهو كذلك؟ هل سأصبح...

لا. توقفي. توقفي.

أنا لا أكتب عن ذلك. لا أكتب عنه.

20 يوليو

خرجت أنا وغابرييل للعشاء الليلة الماضية. نفعل ذلك عادة في أيام الجمعة. «ليلة المواعيد»، هكذا كان يسميها، وينطقها بنبرة أميركية ساذجة.

كان غابرييل يقلّل دائماً من قيمة مشاعره ويسخر من كل شيء يعتبره عاطفياً جداً. كان يحب أن يفكر في نفسه كساخر وعقلاني.

لكن الحقيقة هي أنه رومانسي جداً - في قلبه وليس في كلامه. الأفعال تعبِّر أكثر من الكلمات، أليس كذلك؟ وأفعال غابرييل تجعلني أحس بأنني محبوبة تماماً.

«أين تريد الذهاب؟» سألته.

«ثلاثة تخمينات».

«أغوستوس؟».

«أجبت بتخمين واحد».

أغوستوس هو مطعم إيطالي محلّي نذهبُ إليه، فقط أسفل الطريق. ليس مطعماً خاصاً، لكنه بيتنا الثاني، قضينا هناك عدداً من الأمسيات السعيدة. ذهبنا هناك حوالي الساعة الثامنة. لم يكن المكيّف مشغّلاً، لذلك جلسنا قرب النافذة المفتوحة في الجو الحار الساكن والمشبَع بالرطوبة، وشربنا نبيذاً أبيض مبرّداً ومرّاً. أحسستُ بأنني ثَمِلة إلى حدٍّ ما في الأخير، وضحكنا كثيراً، حول لا شيء، حقاً. قبّلنا بعضنا البعض خارج المطعم وبقينا في أجواء الحبّ هذه بعدما وصلنا إلى البيت.

لحسن الحظ غيّر غابرييل رأيه بشأن المروَحة، على الأقل عندما نكون مستلقين على السرير. وضعها أمامنا، واستلقينا في نسيمها اللطيف، في حضن بعضنا البعض. كان يداعبُ شعري ويقبّلني. «أحبك»، همسَ في أذني. لم أقل شيئاً. لم أكن أحتاج إلى ذلك. إنه يعرف شعوري نحوه.

غير أني عكّرت مزاجه بطريقة غبية وغير لبقة، عندما سألته إن كان مستعدّاً للجلوس أمامي لأرسمه.

«أريد أن أرسمك»، قلت له.

«مرة ثانية؟ لقد فعلتِ ذلك في السابق».

«مرّت أربع سنوات على ذلك. أريد أن أرسمك ثانية».

«آه». لم يبدُ متحمِّساً. «ماذا يدور في رأسك؟».

تردّدت - ثم قلت له إنه من أجل صورة المسيح. اعتدلَ غابرييل في جلسته وأصدر ضحكة مخنوقة.

«آه، أرجوك، أليسيا».

«ما الأمر؟».

«لا أعرف شيئاً عن ذلك، حبيبتي»، قال لي. «لا أعتقد أنني أعرف شيئاً».

«لمَ لا؟».

«لماذا تعتقدين ذلك؟ ترسمينني على الصليب؟ ماذا سيقول الناس؟».

«منذ متى وأنت تكترث بما يقول الناس؟».

«لا أكترث في أغلب الأمور، لكن - أريد أن أقول إنهم سيعتقدون أنك ربما ترينني بهذه الطريقة».

ضحكتُ. «لا أعتقد أنك ابن الإله، إذا كان هذا ما تعنيه. إنها فقط صورة - شيء حدث بطريقة تلقائية عندما كنت أرسم. لم أفكّر فيه بطريقة واعية».

«حسناً. ربما يجب عليك أن تفكري فيه».

«لماذا؟ إنه ليس رأي عنك أو عن زواجنا».

«ماذا يعني ذلك إذاً؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

ضحك غابرييل على هذا التساؤل، وأدار عينَيه تعجُّباً. «حسناً»، قال لي. «تباً. إذا أردت ذلك، سنحاول. أظنُّ أنك تعرفين ما تقومين به».

لم يَبْدُ ذلك كدعم. غير أني أعتقد أن غابرييل يؤمن بي وبموهبتي - لن أكون فنانة تشكيلية لو لم أكن كذلك بالنسبة إليه. لو لم يكن يستحثّني ويشجّعني ويرغمني، لم أكن لأستمرّ في الرسم على الجدران مع جان-فيليكس في تلك السنوات الرتيبة القليلة بعد الجامعة. قبل لقائي بغابرييل، كنت ضائعة إلى حدٍّ ما، أضعتُ نفسي. لا أفتقد هؤلاء الرفاق المدمنين الذين تحوّلوا إلى أصدقاء خلال سنواتي العشرين. كنت أراهم فقط في الليل ويختفون مع الفجر، مثل مصّاصي الدماء وهم يهربون من النور. عندما التقيتُ بغابرييل، تحوّلوا إلى لا شيء، ولم ألاحظ ذلك. لم أعد أحتاج إليهم؛ لم أكن أحتاج إلى أي شخص الآن وأنا برفقته. أنقذني - مثل المسيح. ربما هذا هو موضوع اللوحة. غابرييل هو عالمي كله، وكان كذلك منذ اليوم الذي التقينا فيه. سأحبّه مهما فعل، ومهما حدث - مهما أزعجني، ومهما كان غير منظَّم وفوضوياً، مستهتراً وأنانياً. سأقبله كما هو.

حتى يفرّقنا الموت.

21 يوليو

جاء غابرييل اليوم وجلسَ لأرسمه في المرسم.

«لن أفعل هذا لأيام مرة أخرى»، قال لي. «كم سيتسمر هذا العمل؟».

«سيتطلب إتمام اللوحة أكثر من جلسة».

«هل هذه حيلة لنبقى معاً؟ إذا كان الأمر كذلك، لنتخطّى هذا التمهيد ونذهب مباشرة إلى الفراش؟».

ضحكت. «ربما فيما بعد. إذا كنت لطيفاً ولم تتحرّك كثيراً».

طلبتُ منه أن يقفَ أمام المروحة. كان شعره يتحرّك بفعل نسماتها.

«كيف عليّ أن أبدو؟». سألَ وتصنّع وضعاً معيّناً.

«ليس هكذا. كُن طبيعياً في وقفتك».

«ألا تريدين مني أن أبدو حزيناً؟».

«لست متأكّدة أن المسيح كان حزيناً. لا أراه كذلك. لا تجعلني أكشّر – قف مكانك. ولا تتحرّك».

«أنتِ الزعيمة».

وقفَ لمدة عشرين دقيقة. ثم تخلّى قائلاً إنه تعب من الوقوف.

«اجلس إذاً»، قلتُ له. «لكن لا تتكلم. أنا أرسم وجهك الآن».

جلس غابرييل على كرسي وبقيَ هادئاً لبعض الوقت وأنا أشتغل. استمتعت برسم وجهه. إنه وجه جميل. فكٌّ قوي، خدّان بارزان، أنف رائع. بجلوسه تحت الضوء الكشّاف، كان يبدو كتمثالٍ إغريقي. بطل من فصيلة ما.

لكن كان هناك خطأ ما. لا أدري ما هو – ربما كنت مندفعة جداً. لم أستطع رسم شكل عينَيه بدقّة، واللون أيضاً. الشيء الذي لاحظته في عينَيه كان بريقاً يشعُّ منهما، مثل جوهرة في كل قزحية. والآن ولسبب ما لم أستطع استيعاب ملامحهما. ربما لم تكن لدي مهارة كافية – أو ربما كان لغابرييل شيء إضافي لم أستطع أن أعبِّر عنه بالرسم. بقيَت العينان من دون حياة، ميتة. شعرت بأنني بدأت أضجر.

«تباً»، قلت. «ليس الرسم كما أحب».

«لنأخذ وقتاً للراحة».

«صحيح. نحتاج إلى الراحة».

«ماذا تقترحين؟».

أضحكني سؤاله.

قفز غابرييل واقفاً، أمسك بي وبدأ بمداعبتي هناك، على الأرض، في المرسَم.

حدّقت في عينَي غابرييل الميتتَين في اللوحة كل الوقت. كانتا تحدّقان فيّ بإمعان، ترسلان بريقهما نحوي. كان عليّ أن أحول نظري عنهما.

لكني كنت ما زلت أحس بأنني أستطيع رؤيتهما.

2

ذهبتُ إلى ديوميديس لأطلعه على تقرير اللقاء الذي جمعني بأليسيا. كان في مكتبه ينظِّم أكواماً من الأوراق الموسيقية.

«حسناً»، قال دون أن يرفع نظره نحوي. «كيف مرَّ اللِّقاء؟».

«لم يكن ناجحاً حقاً».

ألقى ديوميديس نظرة متسائلة نحوي وتردّدت. «إذا كنت أريد أن أحقّق أي تقدُّم معها، أحتاج أن تكون أليسيا قادرة على التفكير والإحساس».

«صحيح. وما يثير قلقك هو...؟».

«من المستحيل أن تنفذ إلى عمق شخص ما إذا كان يأخذ أدوية كثيرة. وكأنها توجد ستة أقدام تحت الماء».

قطّب حاجبَيه. «لن أستطيع فعل ذلك»، قال لي. «لا أعرف بالضبط كمّية الدواء الذي تتناوله—».

«استعلمت الأمر من يوري. ستة عشر ميليغراماً من ريسبيريدون. كمّية تكفي لحصان».

رفع ديوميديس أحد حاجبيه. «بالتأكيد الكمّية مرتفعة، نعم، من المحتمل تخفيضها. أنت تعرف كريستيان هو رئيس الفريق المكلَّف بعلاجها. يجب أن تتكلّم معه بهذا الشأن».

«أظنُّ أن الطلب سيكون أحسن لو صدر عنك».

«حسناً». ألقى ديوميديس نظرة متشكِّكة نحوي. «أنت وكريستيان تعرفان بعضكما البعض، أليس كذلك؟ في برودمور؟».

«إلى حدٍّ ما».

لم يجب ديوميديس على التوّ. مدَّ يده إلى طبق حلوى من اللوز المحلّى على مكتبه وقدّم لي واحدة. وضع لوزة في فمه ومضغها، ونظر إليّ وهو يمضغها.

«أخبرني»، قال لي. «هل علاقتك جيدة مع كريستيان؟».

«سؤال غريب. لماذا تسأل هذا السؤال؟».

«لاحظتُ بعض العَدَاء».

«ليس من ناحيتي».

«لكن منه هو».

«عليك أن تسأله. ليس لدي أي مشكل معه».

«حسناً. ربما أنا أتخيّل أشياء. لكني أحس بأن هناك شيئاً ما... تأكّد من الأمر. أي عدوانية أو تنافس يتنافى مع العمل. يجب أن تشتغلا مع بعضكما البعض، وليس ضدَّ بعضكما البعض».

«أدرِكُ ذلك».

«حسناً، يجب أن تشرك كريستيان في النقاش. تريد أن تسترجع أليسيا إحساسها، نعم. لكن تذكر، إحساس أكبر يجلب معه خطر أكثر».

«خطر من أي جهة؟».

«من أليسيا، طبعاً»، حرّك ديوميديس إصبعه نحوي محذِّراً. «لا تنسَ أنه كانت لأليسيا رغبة في الانتحار عندما جلبناها إلى هنا. قامت بعدة محاولات انتحار لإنهاء حياتها. تمكِّنها الأدوية من

الحفاظ على هدوئها. تبقيها على قيد الحياة. إذا خفضنا لها الأدوية، هناك احتمال أن تسيطر عليها مشاعرها، ولن تستطيع أن تتغلّب عليها. هل أنت مستعدّ أن تخاطر؟».

أخذت تحذيره على محمل الجدّ. لكني حركت رأسي موافقاً. «إنها مخاطرة يجبُ عليّ أخذها، بروفيسور»، قلت له. «وإلّا فإننا لن نستطيع الوصول إليها».

هزَّ ديوميديس كتفَيه. «إذاً سأتكلّم مع كريستيان نيابة عنك».

«شكراً».

«سنرى كيف سيتصرّف. غالباً لا يقبل الأطبّاء النفسيون بطريقة إيجابية الاقتراحات حول طريقة العناية بمرضاهم. يمكنني أن أفرض نفوذي عليه، لكني أميل إلى تجنُّب ذلك - دعني أفتح معه الموضوع بطريقة ذكية. سأخبرك بردّه».

«سيكون من الأحسن أن لا تذكر اسمي عندما تتكلّم معه».

«أفهم ذلك»، قال لي ذلك بابتسامة غريبة. «حسناً، لن أفعل».

أخذَ ديوميديس صندوقاً من فوق مكتبه وفتحه ليكشف عن صفوف من السيجار. قدّم لي سيجاراً. حرّكت رأسي رافضاً.

«لا تدخّن؟» كان يبدو عليه الاستغراب. «تبدو لي وكأنك مدخّن».

«لا. لا. فقط أدخّن في مناسبات محدودة - أحياناً... أحاول أن أنقطع عن التدخين».

«جيّد. سيكون جيّداً بالنسبة إليك». فتحَ النافذة. «هل تعرف تلك النكتة حول أنه لا يمكنك أن تكون معالجاً ومدخّناً؟ لأن ذلك يعني أنك ما زلت لم تتجاوز تناقضاتك». ضحكَ ووضعَ سيجاراً في

فمه. «أظنُّ أننا كلنا مجانين بعض الشيء في هذا المكان. هل تعرف ذلك الشعار الذي كان معتاداً تعليقه في المكاتب؟ «ليس ضرورياً أن تكون مجنوناً لتشتغل هنا، لكنه قد يساعد»؟».

ضحك ديوميديس مرة ثانية. أشعلَ السيجار وسحبَ منه وألقى بالدخان إلى الخارج. كنت أشاهده وأنا أغبطه على ذلك.

3

بعد الغداء، مشيت خلسة في الممرّات أبحث عن مخرج. كنت أرغب في الخروج خلسة لأدخّن سيجارة - لكن إنديرا اكتشفت أمري عند مخرج الإغاثة. اعتقدَت أنني ضللت الطريق.

«لا تقلق ثيو»، قالت لي وأمسكَت بيدي. «تطلّب مني معرفة المكان شهوراً. إنه يشبه متاهة دون مخرج. ما زلت أضلّ الطريق أحياناً، مع أني أشتغل هنا لعشر سنين». ضحكت. قبل أن أتمكّن من الاعتراض، قادتني إلى الطابق الأعلى لآخذ فنجان شاي في «غولد فيش بول»(*).

«سأضع الغلاية على النار. الجوّ سيّئ جداً، أليس كذلك؟ أتمنى أن يسقط الثلج وينهي كل شيء... الثلج رمز تخييلي قوي، ألا تعتقد ذلك؟ يجعل كل شيء نظيفاً. هل لاحظت أن المرضى يتكلّمون عنه باستمرار؟ يبحثون عنه. إنه ممتع».

ثم بعد ذلك فاجأتني عندما أخذَت حقيبتها اليدوية وأخرجَت منها قطعة من الحلوى ملفوفة في بلاستيك شفاف لاصق. وضعتها

(*) ومعناه حرفياً بالإنجليزية: وعاء السمكة الذهبية.

في يدي. «خذها. إنها حلوى الجوز. أعدَدْتُها البارحة. خصيصاً لك».

«شكراً لك. أنا ـــــ».

«أعرف أن هذا ليس مقبولاً من الناحية المهنية لكني أحصل على نتائج جيّدة إذا أعطيت قطعة حلوى للمرضى عندما تكون لي جلسة معهم».

ضحكتُ. «أراهن أنك تفعلين ذلك. هل أنا مريض صعب المِرَاس؟».

ضحكت إنديرا. «لا. رغم أني أجدُ أن هذا له نتائج جيّدة كذلك مع الموظفين صعبي المِرَاس - بالمناسبة، أنت لست واحداً منهم. القليل من السكّر يحسن من المزاج. كنت أعدُّ الحلوى للمقصف، لكن ستيفاني احتجّت على ذلك، بكل ذلك الهراء حول صحّة وسلامة الأكل الذي يُجْلب من خارج المستشفى. ستعتقد أنني كنت أهرّب ملفّاً. لكني ما زلت أُعدّ بعض الحلوى خلْسة. إنه تمرُّدي ضدّ الدولة الديكتاتورية. ذُقها».

لم يكن هذا طلباً بل أمراً. أخذت قضمة. كانت لذيذة. كانت رطبة، كثيرة الجوز وحلوة. كان فمي مليئاً بالحلوى لذلك وضعت يدي على فمي وأنا أتكلّم.

«أعتقد أن هذه الحلوى ستجعل مزاج مرضاك جيّداً».

ضحكت إنديرا وبدا عليها الرضى. وأدركتُ لماذا أحبَبْتها - كان يشعُّ منها نوع من هدوء الأم. ذكّرتني بمعالجتي القديمة، روث. كان صعباً تخيُّلها منزعجة أو قلِقة.

جُلْت بنظري حول الغرفة عندما كانت تعدّ الشاي. كانت

مصلحة الممرّضات مركزاً مهماً لقسم الطب النفسي، كانت قلبه النابض: يمرُّ جميع الموظفين منه، ومن هناك يتم تسيير الجناح، بشكلٍ يومي؛ على الأقل هو المكان الذي تؤخذ فيه جميع القرارات العملية. كان «غولد فيش بول» هو الاسم الذي يطلق على مصلحة الممرضات، لأن جدرانها كانوا مكوَّنين من الزجاج - كان هذا يعني أن الممرّضات يمكنهم مراقبة المرضى في قاعة الاستراحة؛ على الأقل من الناحية النظرية. في الواقع، كان المرضى يحومون حول المكان باستمرار بالخارج، يحدّقون بالداخل، يراقبوننا، وكنا إذاً خاضعين للمراقبة المستمرّة. كان فضاءً صغيراً ولم تكن هناك كراسي كافية، وكانت الكراسي الموجودة هناك تُستعمل من طرف الممرضات لكتابة الملاحظات. غالباً ما يقف الآخرون وسط الغرفة، أو ينحنون على المكاتب بطريقة غير مناسِبة، ويعطون المكان طابع الازدحام، بغضّ النظر عن عدد الناس الموجودين فيه.

«تفضّل، عزيزي»، قالت إنديرا وهي تسلّمني فنجاناً من الشاي.

«شكراً».

دخل كريستيان بتمهُّل وأومأ برأسه نحوي محيياً. كانت رائحة النعناع تنبعث من العلك الذي كان دائماً يمضغه. أتذكر أنه كان معتاداً على التدخين بكثرة عندما كنا نشتغل معاً في برودمور؛ كان التدخين من بين الأشياء التي نشتركُ فيها. منذ ذلك الوقت، انقطعَ كريستيان عن التدخين وتزوّج وأصبح أباً لبنت. أتساءلُ عن نوع الأب الذي يمثّله. لم يكن يعطني الانطباع بأنه شخص رحيم. ابتسمَ في وجهي ابتسامة باردة.

«غريب أن نلتقي بهذه الطريقة».

«عالم صغير».

«صحيح في عالم الطب النفسي»، قال كريستيان ذلك وكأنه يعني أن هناك عوالم أخرى أكبر حيث يمكنه أن يتواجد. حاولت تخيُّل هذه الأماكن الممكنة. صراحة، استطعت تخيُّله حقاً فقط في قاعة للرياضة أو في اشتباك للاعبين في ميدان لعبة كرة الرغبي.

حدّق فيّ كريستيان لبعض اللحظات. كنت قد نسيت عادته في التوقف لمدة طويلة غالباً وجعلك تنتظره وهو يفكِّر في الجواب. أغضبني ذلك هنا بالدرجة نفسها التي كان يغضبني في برودمور.

«التحقت بالفريق في وقت غير ملائم»، قال أخيراً. «سيف داموكل يحوم على رقبة ذا غروف».

«هل تعتقد أنه بذلك السوء؟».

«إنها مسألة وقت. الترست مصمِّم على إغلاق المستشفى عاجلاً أم آجلاً. إذاً السؤال هو، ماذا تفعل هنا؟».

«ماذا تعني؟».

«حسناً. تفرُّ الجرذان من السفينة وهي تغرق، ولا يتسلّقون إلى السطح».

فاجأني هجوم كريستيان الواضح. قرّرت أن لا أبلع الطعم. هززت كتفي تعبيراً عن اللامبالاة.

«ربما»، قلت له. «لكنني لست بجرذ».

قبل أن يتمكّن كريستيان من الجواب، جعلَنا صوت قوي نقفز من مكاننا. كانت إليف من الجهة الأخرى من الزجاج، تطرقُ عليه بقوة بكلتا قبضتَي يديها. كان وجهها مضغوطاً على الزجاج، وأنفها مسطّحاً، وكل ملامِح وجهها مشوّهة، وحوّلها ذلك تقريباً إلى مخلوق وحشي.

«لن آخذ هذه القذارة أبداً. أكره هذه - هذه الأقراص المقرفة، أيها الرجل -».

فتح كريستيان صندوقاً صغيراً في الزجاج وتكلَّم من خلاله: «ليس الوقت مناسباً لنقاش ذلك، إليف».

«أنا أخبرك، أنا لن آخذ هذه الأقراص المقيتة، إنها تجعلني أشعر بالسقم أكثر -».

«لن أتناقش معك الآن. خذي موعداً للقائي. ابتعدي من فضلك».

قطّبت حاجبَيها وفكرت في الأمر للحظة. ثم دارت ومشت بتثاقل، تاركة دائرة خفيفة من البخار حيث كان أنفها مضغوطاً على الزجاج.

«يا لها من شخصية».

نخرَ كريستيان. «صعبة المِرَاس».

أومأت إنديرا برأسها وقالت: «مسكينة إليف».

«لماذا هي هنا؟».

«قتل مزدوج»، قال كريستيان. «قتلت أمها وأختها خنقاً وهما نائمتان».

حدقت النظر من خلال الزجاج، التحقت إليف بباقي المرضى. كانت تعلوهم بقامتها الطويلة. وَضعَ أحد المرضى بعض النقود في يدها، ووضعتها في جيبها.

ثم لاحظت أليسيا في الجانب الآخر من القاعة، تجلسُ لوحدها بالقرب من النافذة وتنظر إلى الخارج. راقبتها للحظة. تبعَ كريستيان اتجاه تحديقي.

«بالمناسبة»، قال لي، «تكلمت مع بروفيسور ديوميديس بشأن

أليسيا. أردت أن أعرف كيف ستتصرّف بإعطائها كمية أقل من ريسبيريدون. خفضتها إلى خمسة ميليغرامات».

«مفهوم».

«اعتقدت أنك ربما تريد أن تعرف ذلك - لأنني سمعت أنك التقيت بها في جلسة علاجية».

«نعم».

«يجب أن نراقبها عن قرب لنعرف كيف ستكون ردّة فعلها تجاه هذا التغيير. وبالمناسبة، في المرة القادمة إذا كان لديك مشكل يتعلّق بطريقة علاجي للمرضى، اتصل بي مباشرة. لا تتسلّل إلى مكتب ديوميديس من وراء ظهري». حملقَ فيّ غاضباً وهو يقول ملاحظته. ابتسمت في وجهه في المقابل.

«لم أتسلّل إلى مكتب ديوميديس خلسة منك. ليس لدي أي مشكل في الكلام معك مباشرة، كريستيان».

كان هناك توقُّف متكدِّر. أومأ كريستيان برأسه وكأنه اتّخذ قراراً حول أمرٍ ما.

«هل تدرك حقاً أن أليسيا مصابة باضطراب الشخصية الحدّية؟ لن تستجيب للعلاج. أنت تضيّع وقتك».

«كيف تعرف أنها مصابة بهذا الاضطراب؟» قلتُ له، «إذا كانت لا تتكلم؟».

«لن تتكلّم».

«أتظنُّ أنها تخادع؟».

«نعم، في الواقع، أعتقد ذلك».

«إذا كانت تخادع، كيف يمكن الحكم أنها مصابة باضطراب الشخصية الحدّية؟».

بدا على كريستيان الغضب وتدخّلت إنديرا قبل أن يتمكّن من الجواب.

«مع كامل الاحترام، لا أظن أن مصطلحات عامة ك«اضطراب الشخصية الحدّية» هي بالخصوص مساعِدة. لا تقدِّم لنا أي إفادة على الإطلاق». نظرَت إلى كريستيان، «هذا موضوع أختلف أنا وكريستيان حوله أحياناً كثيرة».

«ما هو رأيك في أليسيا؟»، سألتها.

فكّرت إنديرا في السؤال لبعض الوقت. «أجدُ نفسي أشعر كأمٍّ نحوها. هذا هو إنْقالي المُقابِل، هذا ما تحدثه بداخلي - أحسُّ أنها تحتاج إلى شخص يعتني بها». ابتسمَت إنديرا في وجهي. «والآن حصَلَت على شخص. إنه أنت».

ضحكَ كريستيان ضحكته المزعجة المعروفة. «اسمحوا لي بَلاهتي، كيف يمكن لأليسيا أن تستفيدَ من العلاج إن كانت لا تتكلّم».

«العلاج ليس فقط بالكلام»، قالت إنديرا. «يتحقُّق العلاج بتوفير فضاء آمن - محيط حاضن. أغلب التواصل يتمُّ عبر وسائل غير لغوية. أنا متأكّدة من أنك على اطِّلاع على ذلك».

أدار كريستيان عينَيه في اتجاهي. «حظاً سعيداً رفيقي»، قال لي. «ستحتاج إليه».

4

«مرحباً أليسيا»، قلت لها.

مضت بضعة أيام منذ تمَّ تخفيض كمّية الأدوية لأليسيا، لكن التغيير كان قد أصبح واضحاً على أليسيا. أصبحَت أكثر انسيابية في حركاتها. كانت عيناها أكثر صفاء. ذهبت تلك الغيمة من على عينيها. بدت شخصاً مختلفاً.

وقفت في الباب مع يوري وتردّدت. حدّقَت فيّ وكأنها تراني بوضوح لأول مرّة، استوعبتني وفحصتني. تساءلت عن الخلاصات التي وصلت إليها بشأني. من الواضح أنها أحست بالأمان ودخلت. جلسَت دون أن أدعوها للجلوس.

أومأتُ ليوري طالباً منه الذهاب. تردّد للحظة ثم أقفل الباب وغادر.

جلستُ أمامها. كان هناك صمت لبعض الوقت. فقط صوت المطر المستمرّ في الخارج، وقطرات المطر تقرع على النافذة. أخيراً تكلّمتُ.

«كيف حالك؟».

لا جواب. حدّقَت أليسيا في. عيناها كمصباحَين، دون حركة.

فتحت فمي وأغلقته ثانية. كنت مصمِّماً على مقاومة الرغبة في ملأ الفراغ بالكلام. عوضاً عن ذلك، وعوض أن أبقى صامتاً وجالساً فقط، تمنّيتُ أن أتواصل بطريقة أخرى، ذات طبيعة غير كلامية: إنه أمر جيد أن نجلس معاً هكذا، وأن تشعر أنني لن أؤذيها، وأنه يمكنها أن تثق بي. إذا كان عليّ أن أحصل على أي نجاح في جعل أليسيا تتكلم، كنت محتاجاً إلى ربح ثقتها. كان هذا يتطلّب الكثير من الوقت، لا يمكن تحقيق أي شيء بين عشية وضحاها. سيكون ذلك بطيئاً كقطعة ضخمة من الجليد، لكنها ستتحرّك.

عندما كنا جالسَين في صمت، بدأ رأسي ينبض على مستوى صدغي. بداية ألم في الرأس. عرض مؤشّر. فكرت في روثْ، التي كانت معتادة على أن تقول لي: «إذا أردت أن تكون معالِجاً جيّداً، يجب عليك أن تستوعب مشاعر مرضاك - لكن يجب عليك ألّا تتمسك بها - لأنها ليست مشاعرك - لا تنتمي إليك». بعبارة أخرى، لن يكون هذا الطَّرق في رأسي ألمي؛ إنه ألم أليسيا. وهذه الموجة المفاجئة من الحزن - هذه الرغبة في الموت، الموت، الموت - لم تكن رغبتي أيضاً. كانت رغبتها، كل شيء هو لها. جلست هناك، أحسُّ مكانها، رأسي يدقُّ وبطني يهتاجُ، لما كان يبدو لساعات. أخيراً انتهت الخمسون دقيقة. نظرتُ إلى ساعتي.

رفعَت أليسيا عينيها عندما فعلت ذلك. حدّقت في - اخترقتني في العمق.

لا يمكنك مساعدتي، صرخت عيناها. انظر إلى نفسك، أنت لا تكاد تساعد نفسك. أنت تتظاهر بأنك تعرف الكثير وأنك تملك الحكمة، لكن يجب أن تجلس أنت مكاني. أنت غريب، مخادِع. كذّاب، كذّاب -

عندما كانت تحدق في، أدركت ما كان يزعجني طوال الجلسة. من الصعب التعبير عن ذلك بالكلمات، لكن المعالج النفسي يتعرّف بسرعة إلى الألم النفسي من السلوك الجسدي ومن الكلام، ومن ومضة في العين - شيء من الوسواس، الخوف والجنون. وهذا ما أزعجني: رَغم سنوات من العلاج، ورَغم ما فعلت وتحمّلت، بقيَت عينا أليسيا صافية ودون غيوم كيومٍ صيفي. لم تكن مجنونة. إذاً ما هي حقيقة أمرها؟ ما معنى التعبير الموجود في عينيها؟ ما هي العبارة الصحيحة؟ كانت -

قبل أن أنهي الفكرة، قفزَت أليسيا من مكانها. رمت بنفسها نحوي، يداها ممدودتان كمخالب. لم يكن لدي وقت لأتحرّك أو أن أنزاح من طريقها. سقطت عليّ وفقدت توازني وسقطنا معاً على الأرض.

ارتطمَ خلف رأسي بالحائط. ضربَت رأسي على الحائط مراراً - وبدأَت في نبشي بأظافرها، وصفعي وتمزيقي. تطلّب مني دفعها كلَّ جهدي.

زحفتُ على الأرض وأمسكتُ بالطاولة. تلمّست ملابسي أبحث عن آلة الإنذار بالخطر. في الوقت الذي وصلتُ إليها، قفزت أليسيا فوقي وأسقطت الآلة من يدي.

«أليسيا -».

كانت أصابعها تمسك بعنقي بقوة، تقبض وتخنق - حاولتُ الوصول إلى آلة الإنذار لكني لم أتمكّن من ذلك. انغرسَت يديها أعمق - لم أعد أستطيع التنفُّس. اندفعت إلى الأمام مرّة أخرى - تمكنتُ هذه المرة من الإمساك بالآلة - ضغطتُ على الإنذار.

ملأ صوت مدوي أذني، أصمّني. كنت أستطيع أن أسمع صوتاً

بعيداً لباب يُفتح ويوري يطلب الدعم. تمَّ جرّ أليسيا من فوقي، وتمَّ إفلات قبضتها الخانقة عني، وكنت ألهث من أجل استنشاق الهواء.

تطلّب الإمساك بأليسيا تدخّل أربعة ممرّضين. كانت تلتوي وتضرب وتحارب مثل مخلوق ممسوس. لم تكن تبدو بَشَراً، بل أكثر كحيوان متوحِّش؛ شيء رهيب.

حضر كريستيان وقام بتخديرها، ففقدَت الوعي.

في الأخير عمَّ الصمتُ.

5

«ستؤلمك بعض الشيء».

كان يوري يعتني بخُدُوشي الدامية في «غولد فيش بول». فتح قنينة المطهّر ووضع بعضه على فوطة. نقلتني رائحة الدواء إلى عيادة العلاج في المدرسة، مستحضراً ذكريات خُدُوش العِراك في الملعب، وركبتَي المَسحوجتَين ومرفقَي المخدوشَين، أتذكّر إحساسي بالدفء والراحة بفضل الاعتناء بي من طرف ماترون، مُضمَّد ومكافأ بالحلوى من أجل شجاعتي، ثم أرجعتني لسعة المطهّر على جلدي بحدّة إلى الحاضر، حيث جروحي لم يتم معالجتها بسهولة. جفلتُ.

«أحس وكأنها ضربَتني بمطرقة».

«إنها كدمة سيّئة. ستتحوّل إلى نتوء في الغد. يجب أن نراقبها باستمرار». حرّك يوري رأسه. «ما كان عليّ أن أتركك لوحدك معها».

«لم أترك لك مجالاً للاختيار».

نخرَ يوري. «هذا صحيح».

«شكراً لعدم تذكيرك لي بأنني طلبت منك المغادرة. أسجّل ذلك وأقدّره».

هزَّ يوري كتفَيه. «لا أحتاج إلى ذلك رفيقي. سيقول لك البروفيسور ذلك نيابة عني. طلب مقابلتك في مكتبه».

«حسناً».

«من الأفضل أن تكون أنت في مقابلته وليس أنا، يبدو غاضباً».

بدأتُ في الوقوف. نظرَ إليّ يوري بكل عناية.

«لا تسرع. خذْ وقتك. تأكّد أنك مستعدّ. إذا تعرّضت لأي دوار أو صداع في الرأس، أخبرني».

«أنا بخير، بكلّ صدق».

لم يكن ذلك صحيحاً تماماً، لكني كنت أحس أحسن ممّا أبدو عليه. جروح دامية، وكدمات سوداء حول رقبتي حيث حاولَت خنقي - حفرت عميقاً بأصابعها، وسحبَت الدم منها.

طرقتُ باب مكتب البروفيسور. فتحَ عينَيه واسعاً عندما رآني. تأتأ البروفيسور ثم قال: «يا للهول هل احتجت إلى غُرزات خياطة؟».

«لا، لا، بالطبع لا. أنا بخير».

نظرَ إليّ البروفيسور وهو لا يصدّق عينيه وقادني إلى الداخل.

«تفضّل ثيو. اجلس».

كان الآخرون هناك مسبقاً. كان كريستيان وستيفاني واقفَين. كانت إنديرا جالسة قرب النافذة. كان يبدو استقبالاً رسمياً، وتساءلت عمّا إذا كنت على وشك التعرّض لهجوم.

جلس ديوميديس خلف مكتبه. أشارَ إليّ أن أجلس في المقعد الفارغ المتبقّي. جلست. حدّق إليّ في صمت للحظة، وكان يطرق بأصابعه مفكّراً في ما سيقوله وكيف سيقوله. قبل أن يقرِّر الكلام، تدخّلت ستيفاني.

«هذا حدث مؤسف»، قالت. «مؤسف جداً». التفتت نحوي. «من الأكيد أننا مرتاحون لأنك ما زلت قطعة واحدة. لكن هذا لا يغيّر من حقيقة أن الحادث يطرح عدة أسئلة. أول هذه الأسئلة هو ماذا كنت تفعل وحيداً رفقة أليسيا؟».

«كنت مخطئاً»، قلت لهم. «طلبت من يوري المغادرة، وأنا أتحمّل كامل المسؤولية».

«ما هي السلطة التي اعتمدت عليها في اتخاذ هذا القرار؟ لو أن أحداً منكم كان قد تعرّض لجرح خطير——».

قاطعها ديوميديس. «من فضلك لا نريد أن نضخّم الأمر. لحسن الحظ، لا أحد تعرّض لجرح خطير». أشار إليّ ألّا أتكلّم. «ليست بعض الخدوش أساساً لإقامة محاكمة عسكرية».

كشّرت ستيفاني قسمات وجهها. «لا أعتقد أن النكت مناسبة حقاً هنا، بروفيسور. لا أعتقد ذلك حقاً».

«من يمزح؟» قال ديوميديس ملتفتاً نحوي. «أنا جدّي جداً. أخبرنا ثيو، ماذا حدث؟».

أحسست أنهم ينظرون إليّ جميعاً؛ وجّهت كلامي إلى ديوميديس واخترتُ عباراتي جيّداً.

«حسناً. لقد هاجمتني»، قلت له. «هذا كل ما حدث».

«هذا أمر واضح جداً. لكن لماذا؟ أعتقد أنه لم يكن هناك استفزاز؟».

«نعم، على الأقل، بطريقة مقصودة».

«وبطريقة لا واعية؟».

«حسناً من الواضح أن أليسيا كانت تعبِّر عن ردة فعل تجاهي على مستوى معيّن. أعتقد أن هذا يبيّن لنا رغبتها في التواصُل».

ضحكَ كريستيان. «تسمّي ذلك تواصلاً؟».

«نعم، أعتقدُ ذلك»، قلت له. «الغضب العنيف هو تواصُل قوي. المرضى الآخرون - الأموات الأحياء الذين يجلسون هناك والفراغ بداخلهم - استسلموا للمرض. أليسيا لم تستسلم. يخبرنا هجومها عن شيء لم تستطع التعبير عنه مباشرة - حول ألمها، ويأسها وقلقها. كانت تقول لي ألّا أستسلم في علاجها. ليس بعد».

أدارَ كريستيان عينَيه مستغرباً. «يمكن أن نؤوّل ذلك بطريقة أقلّ شِعرية بأنها تناولت أدوية أقل وأن شيئاً ما أغضبها». التفَتَ إلى ديوميديس. «قلتُ لك أن هذا سيحدث، بروفيسور. حذّرتك من تخفيض كمّية الأدوية».

«حقاً كريستيان؟» قلت له. «كنت أظنُّ أنها فكرتك».

تجاهلني كريستيان بتدوير عينَيه. كنت أرى كريستيان طبيباً للأمراض العقلية تماماً. كنت أعني بذلك أن أطباء الأمراض العقلية يميلون إلى الحذر من التفكير من خلال الديناميكية النفسية. يفضّلون أكثر مقاربة بيولوجية، كيميائية وعملية على الخصوص - مثل كأس الأدوية الذي كان يسلَّم لأليسيا مع كل وجبة. لم يكن هناك، كما أخبرتني نظرة كريستيان الضيّقة وغير اللَّطيفة، أي شيء يمكنني المساهمة به.

غير أن ديوميديس نظر إليّ بتأمل أكثر. «لم ينقص ذلك من عزيمتك، ثيو»، قال لي. «ماذا حدث؟».

حركتُ رأسي نافياً. «على العكس من ذلك. يشجّعني ذلك على الاستمرار».

حرّكَ ديوميديس رأسه معبّراً عن ارتياحه من كلامي. «حسناً، أنا

متّفق معك، ردة الفعل العنيفة هذه تستحقُّ البحث بالتأكيد. أعتقد أنه يجب عليك الاستمرار في العلاج».

لم تستطع ستيفاني كبح معارضتها أمام هذا القرار. «هذا مستحيل تماماً».

استمرَّ ديوميديس في الكلام وكأنها لم تتكلّم. استمرَّ في النظر إليّ. «هل تعتقد أنك ستجعلها تتكلّم؟».

قبل أن أتمكّن من الجواب، تكلّم صوت من خلفي. «أعتقد أن بإمكانه فعل ذلك، حقاً».

كانت إنديرا. كنت قد نسيت تقريباً أنها موجودة. التفتُّ نحوها. «وبطريقة ما»، قالت إنديرا، «لقد بدأت أليسيا بالكلام. إنها تتواصل من خلال ثيو - إنه صوت مسانِد لها، إن ذلك بدأ يحصل فعلاً».

حرّك ديوميديس رأسه موافقاً. بدا مستغرقاً في التفكير. عرفت ما كان يفكّر فيه - كانت أليسيا بيرينسون مريضة مشهورة، ووسيلة تفاوض قوية مع التراست. إذا استطعنا تحقيق تقدُّم واضح في علاجها، فسنكون في موقع أقوى لإنقاذ ذا غروف من الإغلاق.

«كم من الوقت يكفي لتحقيق نتائج؟».

«لا يمكنني الإجابة عن ذلك»، قلت له. « أنت تعرف ذلك أيضاً. سيأخذ من الوقت ما يكفي. ستة أشهر. سنة. ربما وقتاً أطول - يمكن أن يستمرَّ العلاج لسنوات».

«أمنحك ستة أسابيع».

اعتدلَت ستيفاني في وقفتها وجمعت ذراعيها. «أنا المسؤولة عن هذا القسم، وأنا لا أستطيع السماح——».

«أنا المدير الطبّي في ذا غروف»، قاطعَها ديوميديس. «هذا

قراري، وليس قرارك. أتحمّل كامل المسؤولية عن الجروح التي يتعرّض لها المعالج الصَّبُور هنا». غمزني بعينه وهو يقول هذا الكلام.

لم تقل ستيفاني أي شيء إضافي. نظرَت إليه، ثم إليّ، بغضب. دارت وغادرت.

«آه، يا عزيزي»، قال ديوميديس. «يبدو أنك جعلت من ستيفاني عدواً لك. كم هو مؤسف». شارك ابتسامة مع إنديرا ثم نظر إليّ بجدّية. «ستة أسابيع. تحت إشرافي. فهمت؟».

وافقت بالطبع، لم يكن لي اختيار غير الموافقة.

«ستة أسابيع»، قلتُ له.

«جيّد».

وقفَ كريستيان وكان يبدو منزعجاً.

«لن تتكلم أليسيا في ستة أسابيع أو ستة سنين»، قال لي. «إنك تضيّع وقتك».

غادرَ المكتب. تساءلت عن السبب الذي جعل كريستيان متأكّداً من أنني سأفشل.

لكن ذلك جعلني أكثر تصميماً على النجاح.

6

وصلتُ إلى المنزل وأنا أحس بالتعب. جعلتني سُلطة العادة أنقر بطرف إصبعي على مفتاح الكهرباء في المدخل رغم أن المصباح لا يشتغل. كنا ننوي تغييره، لكن كنا دائماً ننسى الأمر.

عرفت على التوّ أن كاثي ليست موجودة. كان المكان هادئاً؛ كانت كاثي غير قادرة على الهدوء. لم تكن ضوضائية لكن عالمها كان مليئاً بالأصوات - التكلُّم على الهاتف، قراءة بعض السطور، مشاهدة الأفلام، الغِنَاء، الدندنة، الاستماع إلى فرق موسيقية لم أسمع بها من قبل. لكن الشقّة كانت هادئة الآن كالقبر. ناديتُ اسمها. بحكم العادة، مرة أخرى، أو بسبب ضمير يحس بالذنب، ربما، كنت أرغب في التأكد من أنني كنت وحيداً قبل أن أفعل ما أحب، أن أتجاوز؟

«كاثي؟».

لم يكن هناك ردّ.

تلمّست طريقي في الظلام إلى غرفة الجلوس. أشعلتُ النور.

قفزَت الغرفة في وجهي بالطريقة نفسها التي يدهشك بها الأثاث الجديد دائماً حتى تتعوّد عليه: كراسي جديدة، وِسادات جديدة؛

ألوان جديدة، أحمر وأصفر حيث كان الأبيض والأسود موجودَين في السابق. كانت مزهرية السوسن الوردي - أزهار كاثي المفضّلة - على المائدة، كانت رائحتها المسكية القوية تجعلُ الجوّ ثقيلاً وصعباً على التنفس.

كم كان الوقت؟ الثامنة والنصف. أين كانت؟ التمرُّن؟ كانت تشتغل على إنتاج جديد لمسرحية **عطيل** لفائدة آر إس سي، ولم يكن الإنجاز يتقدم بطريقة جيّدة. كانت التمرينات الدائمة ترهقهم. كانت تبدو بوضوح مُتعبَة، شاحبة، أنحف ممّا تبدو عليه عادة، وتقاوم نزلة برد. «أنا مريضة جداً كل الوقت»، قالت، «أنا متعَبة جداً».

كان ذلك صحيحاً، كانت تعود للمنزل بعد التمرُّن متأخّرة أكثر فأكثر كل ليلة، وكانت تبدو متعَبة جداً. كانت تتثاءب وتسقط مباشرة على السرير. كان محتملاً أن لا ترجع إلى البيت إلّا بعد ساعات طوال على الأقل. قررت أن أدخل مجال المخاطرة.

أخذتُ جرّة الحشيش من المكان حيث كنت أخبّئها، وبدأت في لفّ سيجارة.

كنت أدخّن الماريجوانا منذ الجامعة. بدأتُ ذلك في الفصل الأول، عندما كنتُ وحيداً من دون أصدقاء في حفلة ترحيب بالطلبة الجُدد، غير قادر بفعل الخوف على بدء محادثة مع أي من الشباب الوسيم والواثق بنفسه الذين كانوا حولي. كنت أخطِّط للهروب عندما قدّمت لي فتاة كانت واقفة بجانبي شيئاً ما. كنت أعتقد أنه سيجارة حتى شممت رائحة دخانه الأسود واللاذع والحادّ والملتوي. كنت خجولاً جداً ولم أستطع رفضه، أخذته ووضعته على شفتي. كان ملفوفاً بطريقة سيّئة وكانت جوانبه تنحلُّ وآخره منفتح تماماً. كان طرفه مبلَّلاً ومتّسخاً بأحمر الشفاه. كان مذاقه مختلفاً عن السيجارة.

كان أكثر غنى وقوة وغَرابة. بلعتُ الدخان الكثيف وحاولتُ أن لا أسعل. كل ما أحسسته في البداية هو أنني أصبحت أخفَّ وزناً. على شاكلة النقاش حول الجنس، دار الكثير من النقاش حول الماريجوانا أكثر ممّا يستحقّه الموضوع. ثم بعد ذلك - بعد دقيقة أو أكثر - حدث شيء. شيء غير معقول. كان مثل موجة كبيرة من السعادة تغمرني. أحسستُ بالأمان والراحة، والطمأنينة التامّة، والغباء وعدم الاكتراث.

وهكذا بدأَت الحكاية. لم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت أدخّن الماريجوانا يومياً. أصبحَت صديقي المفضّل، مصدر إلهام لي، وعزائي. طقسٌ دائم من اللفّ والتلصيق والإشعال. كنت أخدَّر فقط بسبب حفيف لفّ الأوراق وتوقّع النشوة العالية الدافئة والمسكرة.

تمَّ طرح جميع أنواع النظريات حول أصول الإدمان. يمكن أن يكون وراثياً. يمكن أن يكون كيميائياً؛ يمكن أن يكون نفسياً. لكن الماريجوانا كانت تفعل شيئاً أكثر من ذلك بكثير من تهدئتي: غيّرت، بشكلٍ حاسم، الطريقة التي اختبرت بها العواطف. احتضنتني واحتفظت بي آمناً كطفل مُحبّب.

بعبارة أخرى، كان الإدمان يحتويني.

كان المحلِّل النفسي دبليو آر بيون هو الذي ابتكرَ مصطلح «الاحتواء» لوصف قُدرة الأم على إدارتها لألم الطفل. تذكّر، الطفولة ليست وقتاً للسعادة المثالية. إنها فترة إرهاب. عندما كنا أطفالاً محاصرين في عالم غريب غير قادرين على الرؤية بشكلٍ صحيح، وفي حالة دائمة من الدهشة تجاه أجسادنا، منزعجين من حركات الجوع والريح والأمعاء، وتربكنا مشاعرنا. كنا نتعرّض للهجوم حرفياً. نحن

بحاجة إلى والدتنا لتهدئة جزعنا ولتعطي معنى لتجربتنا. وهي تفعل ذلك، نتعلّم ببطء كيفية إدارة حالتنا الجسدية والعاطفية لوحدنا. لكن قدرتنا على احتواء أنفسنا بشكلٍ مباشِر تعتمدُ على قدرة أُمّنا على احتوائنا - إذا لم تكن قد اختبرَت أبداً الاحتواء من قبل أمها، كيف يمكنها أن تعلّمنا ما لم تكن تعرفه؟ سيُبتلى الشخص الذي لم يتعلّم أبداً احتواء نفسه بمشاعر القلَق لبقية حياته. هذه المشاعر التي وسمها بيون على نحو مناسب بعنوان «الخوف المجهول». يسعى مثل هذا الشخص باستمرار إلى احتواء ما لا يمكن كبته بمساعدة مصادر خارجية - يحتاج إلى شراب أو سيجارة ماريجوانا للتقليل من أثر هذا القلق الذي لا نهاية لها - هكذا تولّدَ إدماني للماريجوانا.

تحدثتُ كثيراً عن الماريجوانا في العلاج. تصارعتُ مع فكرة الانقطاع وتساءلت عن سبب خوفي من هذا الاحتمال كثيراً. قالت روث إن تنفيذ الانقطاع والتقليل التدريجي من استعمالها لا ينتجان أبداً أي شيء جيّد، وبدلاً من إجبار نفسي على العيش من دون الماريجوانا، قد تكون نقطة الانطلاقة الأفضل لي هو الإقرار بالإدمان، وبعدم الرغبة أو القدرة على التخلّي عنها. كلّ ما فعلته الماريجوانا بي سيبقى يؤثر في، جادلَت روث - حتى اليوم الذي تنتهي فيه فائدتها، حينها ربما أتخلّى عنها بكل سهولة.

وكانت روث محقّة. عندما قابلت كاثي ووقعت في الحب، تلاشَت الماريجوانا في الخلفية. كنت في نشوة عالية بشكلٍ طبيعي بسبب الحب، ولم أكن بحاجة إلى البحث عن مزاج جيّد بشكلٍ مصطنع. ما ساعدَ هو أن كاثي لم تكن تدخّنها. كان مدمنو الماريجوانا، في رأيها، ضعيفي الإرادة وكسالى، ويعيشون في حركة بطيئة - قد توخزهم ولن يقولوا «أي» إلّا بعد ستة أيام. توقّفتُ

عن تدخين الماريجوانا يوم انتقلَت كاثي إلى شقتي. و - كما تنبّأت روث - بمجرّد أن أصبحت آمناً وسعيداً، سقطت العادة عني تماماً بطريقة طبيعية، مثل الطين الجافّ المُلتصِق بالحذاء.

ربما لم أكن لأدخّنها مرة أخرى، لو لم نذهب إلى حفلة وداع صديقة كاثي، نيكول، التي كانت ستنتقل إلى نيويورك. تمَّ احتكار كاثي من قبل جميع أصدقائها الممثّلين، ووجدت نفسي وحيداً. دفعني رجل قصير ومكتنز، يرتدي نظارات وردية صارخة، بمرفقه وقال لي: «هل تريد؟»، كان يقدِّم لي سيجارة ملفوفة. كنتُ على وشك الرفض، عندما أوقفني شيء ما. لست متأكّداً ما هو. نَزوَة مؤقّتة؟ أو هجوم لا واعي على كاثي لإجباري على المجيء إلى هذه الحفلة المروعة، ثم تتخلّى عني؟ نظرتُ حولي؛ لم تكن في أي مكان. تباً، فكرت حينها. جلبت السيجارة الملفوفة إلى شفتَي، ودخّنت.

وهكذا، عدت إلى حيث بدأت - كما لو لم يكن هناك انقِطاع. كان إدماني ينتظرني بصبر كل هذا الوقت، مثل كلب مخلِص. لم أخبر كاثي بما فعلت، وتناسيت الموضوع. في الحقيقة كنت أنتظر الحصول على فرصة - وبعد ستة أسابيع، قدّمَت نفسها. ذهبت كاثي إلى نيويورك لمدة أسبوع، لزيارة نيكول. في غياب تأثير كاثي، ولشعوري بالوحدة والمَلَل، استسلمتُ للإغراء. لم يعد لدي تاجر أتعامل معه، لذا قمت بما كنت أفعله كطالب - وشققتُ طريقي إلى سوق كامدن.

عندما غادرت المحطة، استطعت أن أشمَّ رائحة الماريجوانا في الهواء، مختلطة برائحة البخّور ورائحة قلي البصل في أكشاك الطعام. مشيت إلى جسر كامدن لوك. وقفتُ هناك محرَجاً، مدفوعاً ومتعرّضاً لوكز تيار لا ينتهي من السيّاح والمراهقين يسيرون ذهاباً وإياباً عبر الجسر.

بحثت عن هدفي في الحشد. لم تكن هناك أي علامة على وجود أي من التجّار الذين اعتادوا الوقوف على خطّ الجسر، ينادونك كلما مررت من هناك. شاهدت اثنين من ضبّاط الشرطة. لا يمكن أن لا تلحظ وجودهما بسترتَيهما الصفراوين وهما يراقبان الحشد. مشا بعيداً عن الجسر، نحو المحطة. ثم سمعت صوتاً منخفضاً بالجنب: «هل تريد بعض الأخضر (الماريجوانا)، رفيقي؟».

نظرت إلى الأسفل وكان هناك رجل صغير جداً. اعتقدتُ في البداية أنه كان طفلاً، كان هزيلاً ونحيفاً جداً. لكن وجهه كان خارطة طريق للتضاريس الوعرة، مليئاً بالخطوط والتقاطعات، مثل صبي كَبُر قبل الأوان، كان فاقداً لاثنين من أسنانه الأمامية، وكان صفيراً طفيفاً يرافق كلماته. «أخضر؟» كرّرَ.

أومأتُ له موافقاً.

أشار إليّ برأسه لأتبعه. انزلقَ من خلال الحشد ودار حول الزاوية ومشى على طول شارع خلفي. دخلَ حانة قديمة وتبعتهُ. كانت الحانة مهجورة في الداخل، مظلِمة وكل شيء مبعثَر فيها، ورائحة القيء الكريهة ودخان سجائر قديمة تعمُّ المكان.

«بيرة جيسا»، قال وهو يحوم حول المشرَب. لم يكن طويل القامة بما يكفي لرؤية أكثر من ذلك. اشتريتُ له نصف لتر وأنا غير راضٍ. أخذها إلى طاولة في الزاوية. جلست أمامه. نظر حوله بتوجُّس، ثم مدَّ يده تحت الطاولة وسلّمني حزمة صغيرة ملفوفة في السيلوفان. أعطيته بعض النقود.

ذهبت إلى البيت وفتحت الحزمة - متوقّعاً أن يكون التاجر قد خدعني - ولكن رائحة نفّاذة مألوفة لعشبة الماريجوانا انجرفت إلى أنفي. رأيتُ البراعم الخضراء الصغيرة تتخلّلها شظايا صفراء. تَسارعَ

خفقان قلبي كما لو كنت قد التقيت صديقاً لم أرَه منذ فترة طويلة. وهو ما اعتقدته حينها.

منذ ذلك الوقت فصاعداً، تعودت على تناول الماريجوانا بين الحين والآخر، كلما وجدت نفسي وحدي في الشقة لبضع ساعات، عندما أكون متأكّداً من أن كاثي لن تعود في وقت قريب.

وفي تلك الليلة، عندما عدت للمنزل، متعَباً ومحبَطاً، ووجدت كاثي خارج البيت في بروفة، لففتُ سيجارة ماريجوانا بسرعة. دخّنتُ السيجارة من نافذة الحمّام. لكني دخنت أكثر من اللازم وبسرعة - ضربني المخدِّر بقوة، مثل لَكمة بين العينَين. كنتُ مخدَّراً جداً لدرجة أن المشي أصبح صعباً وكأنني أغوص في دبس السكر. قمت بطقس التنظيف المألوف - معطّر الهواء، تنظيف الأسنان، الاستحمام - وأعددت نفسي بعناية لقاعة الجلوس وغصت في الأريكة.

بحثت عن جهاز التحكم في التلفاز عن بُعد، لكنني لم أتمكن من رؤيته. ثم بعد ذلك حدّدت مكانه، كان يظهر لي من خلف جهاز الحاسوب المحمول لكاثي على منضدة القهوة. مددت يدي لآخذه، ولكني كنت مخدّراً جداً وأسقطت الحاسوب في طريقي إليه. أعدت الحاسوب إلى مكانه - عادت الشاشة إلى الحياة. كان البريد الإلكتروني لكاثي مفتوحاً. لسبب ما، ظللتُ أحدّق في محتواه. كنت غير قادر على الابتعاد - كانت علبة الرسائل الوارد الخاصة بها تحدّق في وجهي مثل حفرة واسعة. لم أستطع أن أحوّل نظري في اتجاه آخر. كل أنواع الأشياء قفزت في وجهي قبل أن أعرف ما كنت أقرأه: كلمات مثل «جذابة» و«لقاء» في عناوين البريد الإلكتروني - والرسائل الإلكترونية المتكرّرة من «BADBOY22».

تمنّيت لو أنني توقفت هناك. تمنّيت لو أنني وقفت وابتعدت - لكنني لم أفعل.

نقرتُ على أحدث رسالة إلكترونية وفتحتها :

الموضوع: Re: little miss flirt

من: Katerama_1

إلى: BADBOY22

أنا في الحافلة. أنا مشتاقة إليك. أستطيع أن أشمَّ رائحتك. Kxx

مرسل من الآيفون الخاص بي

الموضوع: Re: re: re: little miss flirt

من: BADBOY22

إلى: Katerama_1

يا لك من مشاكسة! ههههه. أراك لاحقاً؟ بعد البروفة؟

الموضوع: Re: re: re: re: little miss flirt

من: Katerama_1

إلى: BADBOY22

حسناً. 8:30؟ 9؟ xx

مرسل من الآيفون الخاص بي

الموضوع: Re: re: re: re: re: little miss flirt

من: BADBOY22

إلى: Katerama_1

حسناً. سوف أرى ما الوقت الذي يمكنني المغادرة. سوف أكتبُ لك.

سحبت الحاسوب المحمول من الطاولة. جلست وهو في حضني، أحدّق فيه. لا أعرف كم من الوقت جلستُ في هذا الوضع. عشر دقائق؟ عشرون دقيقة؟ نصف ساعة؟ ربما أطول. بدا الزمن يزحفُ ببطء شَديد.

حاولتُ فهم ما رأيته للتوّ - لكني كنت ما زلت مخدَّراً جداً، لم أكن متأكّداً ممّا رأيته. هل كان حقيقياً؟ أو نوعاً ما من سوء الفهم - بعض المزاح الذي لم أكن أفهمه لأنني كنت في حالة تخدير قصوى؟

أرغمتُ نفسي على قراءة رسالة أخرى.

ثم أخرى.

انتهى بي الأمر أن قرأت جميع رسائل كاثي إلى BADBOY22. بعضها كان جنسياً، فاحشاً أيضاً. كانت أخرى أطول، وأكثر اعترافاً، وعاطفية، وكانت كاثي تبدو في حالة سُكْر - ربما كانت رسائل مكتوبة في وقت متأخّر من الليل، بعد أن كنت قد ذهبت للنوم. تخيّلت نفسي في غرفة النوم، نائماً، بينما كانت كاثي خارجاً هنا، تكتب رسائل حميمة لهذا الغريب. هذا الغريب الذي كانت تواعده.

عاد الوقت إلى إيقاعه الطبيعي. فجأة ذهب أثر التخدير وأصبحت يقظاً مدرِكاً لفظاعة الاكتشاف ومتألِّماً بسبب ذلك.

كان هناك ألم مؤلم في معدتي - ألقيت بالحاسوب المحمول جانباً. جريت إلى الحمّام.

سقطت على ركبتَي أمام المرحاض، وتقيّأت.

7

قلت: «يبدو أن هذه الجلسة مختلفة نوعاً ما عن المرة الماضية».

لم يكن هناك أي ردّ.

جلست أليسيا على الكرسي أمامي، متّجهة برأسها قليلاً نحو النافذة. جلسَت في هدوء تام، وعَمودها الفقري مستقيم وثابت. كانت تبدو مثل عازف التشيلو. أو جندي.

«أفكّر في كيفية انتهاء الجلسة الأخيرة. عندما هاجمتني جسدياً، وكان لا بدَّ من ضبطك».

لم يكن هناك ردّ. تردّدتُ.

«أتساءل إذا كنتِ قد فعلت ذلك كنوع من الاختبار؟ لمعرفة طبيعة الخصال التي تكوّن شخصيتي؟ أعتقد أنه من المهم أن تعرفي أنني لا أُرهَب بسهولة. يمكنني أن آخذ أي شيء ترميني به».

نظرت أليسيا من النافذة إلى السماء الرمادية وراء الحانات. انتظرتُ لحظة وأكملت: «هناك شيء يجب أن أخبرك به، أليسيا. أنا بجانبك. آمل أنه في يوم ما سوف تصدّقينني. بالطبع، يستغرقُ بناء الثقة الكثير من الوقت. كانت معالِجتي القديمة تقول لي إن الألفة

تتطلّب تجربة متكرّرة من الاستجابة - وهذا لا يحدث بين عشية وضحاها».

كانت أليسيا تحدق في وجهي، دون أن يتحرّك لها جفن، بنظرة غامضة. مرَّت الدقائق. شعرت بأنني في جلسة اختبار للتحمّل أكثر منها جلسة علاج.

لم أحقّق أي تقدم في أي اتجاه، على ما يبدو. ربما كان كل شيء ميئوس منه. كان كريستيان محقاً في الإشارة إلى أن الجرذان تغادر السفن التي تكون على وشك الغرق. ماذا كنت أفعل، بحقّ الإله، بتسلُّقي لهذا الحطام، وجلد نفسي على صَاري السفينة، والاستعداد للغرق؟

الجواب بالطبع كان هو جلوسها أمامي. وكما عبّر عن ذلك ديوميديس، كانت أليسيا حورية بحر صامتة، تستدرجني إلى هلاكي.

شعرتُ بيأس مفاجئ. كنت أرغب في الصراخ في وجهها: **«قولي شيئاً. أي شيء. تكلّمي فقط»**.

لكنني لم أقل ذلك. بدلاً من ذلك، قطعت الطُّرق العلاجية التقليدية. توقفت عن التدرُّج في العلاج، وتوجّهت مباشرة إلى الهدف: «أنا أحب أن أتحدّث عن صمتك. حول ما يعنيه... ما تحسّين به. وعلى وجه التحديد، سبب توقُّفك عن الكلام».

لم تنظر أليسيا إليّ. هل كانت حقاً تستمع إليّ؟

«بينما أجلس هنا معك، تحضر صورة في ذهني باستمرار - صورة لشخص يقضمُ أظافره، ويمنع نفسه من الصراخ، ويبتلع آهاته. أتذكر عندما بدأتُ العلاج لأول مرة، وجدت صعوبة في البكاء. كنت أخشى أن أنجرف مع التيار، أن تغمرني مياهه. ربما هذا ما يبدو لك. لذلك من المهم أن تأخذي وقتك لتشعري بالأمان

والثقة بأنك لن تكوني وحدك في هذا الفيضان - إنني أخطو في الماء هنا معك».

الصمت.

قلت: «أفكّر في نفسي كمعالِج نفسي مهتمّ بالعلاقات. هل تعرفين ما يعنيه ذلك؟».

الصمت.

«هذا يعني أنني أعتقد أن فرويد كان على خطأ في بعض الأمور. أنا لا أعتقد أن المعالج يمكن أن يكون فعلاً مجرّد لوحة بيضاء، كما تصوّر فرويد ذلك. نكشف جميع أنواع المعلومات عن أنفسنا، عن غير قصد - من خلال لون الجوارب التي نرتديها، أو طريقة جلوسنا أو طريقة كلامنا - فقط من خلال الجلوس هنا معك، أكشفُ الكثير عن نفسي. على الرغم من بذل قصارى جهدي في التكتُّم، فأنا أُظهر لك من أكون».

رفعت أليسيا بصرها. حدقت في وجهي، كان ذقنها مائلاً بعض الشيء - هل كان هناك تحدٍّ في هذه النظرة؟ أخيراً حصلتُ على انتباهها.

عدلتُ من جلستي.

«الموضوع هو، ما الذي يمكننا القيام به حيال ذلك؟ يمكننا تجاهله، وإنكار ذلك، والتظاهُر بأن هذا العلاج يهمّك أنتِ. أو نستطيع أن نقرَّ بأن هذا طريق ذو اتجاهين، وأن نشتغل وفقاً لذلك. ومن ثم يمكننا البدء بالفعل في الوصول إلى مكان ما».

رفعت يدي. أومأت إلى خاتم زواجي.

«هذا الخاتم يخبرك بشيء ما، أليس كذلك؟».

تحرّكت عينا أليسيا ببطء شديد في اتجاه الخاتم.

«إنه يخبرك بأنني رجل متزوّج، وأنه لدي زوجة. نحن متزوجان منذ ما يقرب من تسع سنوات».

لم يكن هناك أي ردّ، ومع ذلك ظلّت تحدق في الخاتم.

«كنتِ متزوّجة لمدة سبع سنوات تقريباً، أليس كذلك؟».

لم يكن هناك أي ردّ.

«أنا أحب زوجتي كثيراً. هل كنت تحبين زوجك؟».

تحرّكت عينا أليسيا. اندفعت إلى وجهي. كنا نحدق في بعضنا البعض.

«يشملُ الحب جميع أنواع المشاعر، أليس كذلك؟ الجيّد منها والسيّئ. أنا أحبّ زوجتي - اسمها كاثي - ولكن في بعض الأحيان أغضب منها. في بعض الأحيان. . . **أكرهها**».

بقيَت أليسيا تحدق فيّ؛ شعرت وكأنني أرنب تحت ضوء المصابيح الأمامية للسيارة، مشلول تماماً، وغير قادر على النظر بعيداً أو التحرُّك. كان إنذار الهجوم على الطاولة، في متناول اليد. بذلتُ جهداً كبيراً أن لا أنظر إليه.

كنت أعلم أنه لا يجب أن أستمرّ في التحدث - أنه يجب عليّ أن أسكت - لكني لم أستطع أن أمنع نفسي. استمررت في الكلام على دون رغبة مني: «وعندما أقول إنني أكرهها، لا أقصد أن **كل شيء فيَّ** يكرهها. بل فقط جزء مني هو الذي يكرهها. إن الأمر يتعلق بالتمسُّك بهذين الجزأين في الوقت نفسه. جزء منك أحبَّ غابرييل. . . وجزء منك كرهه».

هزّت أليسيا رأسها - لا. حركة وجيزة، ولكن محدَّدة. وأخيراً - استجابة. شعرتُ بإثارة مفاجئة. كان عليّ أن أتوقف هناك، لكني لم أفعل.

«جزء منك كان يكرهه»، قلت مرّة أخرى، بحزم أكثر.

هزة رأس أخرى. كانت عيناها تشتعلان ناراً وتخترقانني.

اعتقدت أن الغضب بدأ يسيطر عليها.

«هذا صحيح، أليسيا. وإلّا فإنك لم تكوني لتقتليه».

قفزَت أليسيا فجأة. اعتقدت أنها على وشك القفز عليّ. توتّرَ جسدي متوقِّعاً الهجوم. لكن بدلاً من ذلك، دارت ومشت إلى الباب. طرقت عليه بقوة بقبضتيها.

كان هناك صوت مفتاح يدور لفتح الباب - فتحَ يوري الباب على مصراعَيه. بدا مرتاحاً لعدم العثور على أليسيا وهي تخنقني على الأرض. دفَعَته وركضَت إلى الممرّ.

قال لها: «اهدئي، تمهّلي، عزيزتي». نظر إليّ ثانية. «هل كل شيء على ما يرام؟ ماذا حدث؟».

لم أردّ. ألقى يوري عليّ نظرة غريبة وغادر. كنت وحدي.

أنت غبي، قلتُ لنفسي. أنت غبي. ماذا فعلت؟ دفعتها بعيداً جداً، بقسوة وقبل الأوان. كان هذا فعل لا يحترِم قواعد المهنة، ناهيك عن كونه سخيفاً تماماً وغير لائق. كشفَ عن حالتي الذهنية أكثر بكثير عن حالتها هي.

لكن هذا ما فعلته أليسيا من أجلك. صمتها كان مثل مرآة - تنعكس فيها نفسك وتعود إليك.

وكان في الغالب مشهداً قبيحاً.

8

لست بحاجة إلى أن أكون طبيباً نفسياً لأشكُّ في أن كاثي تركت جهاز الكمبيوتر المحمول مفتوحاً لأنه - على مستوى اللاوعي، على الأقلّ - كانت ترغب في أن أكتشف خيانتها.

حسناً، الآن كنت قد اكتشفت. الآن عرفت.

لم أتحدّث معها منذ تلك الليلة، وكنت أتظاهرُ بالنوم عند عودتها إلى البيت، وكنت أغادر الشقّة في الصباح قبل أن تستيقظ. كنت أتجنّبها - كنت أتجنّب نفسي. كنت في حالة من الصدمة. كنت أعرف أنه يجب عليّ أن ألقي نظرة على نفسي - أو أخاطر بفقدان السيطرة على نفسي. حاولْ أن تسيطر على مشاعرك، تمتمتُ تحت أنفاسي وأنا أقوم بإعداد سيجارة الماريجوانا. دخّنتها من النافذة، ثم، وأنا مخدَّر تماماً، صببت كأساً من النبيذ في المطبخ.

انزلقَ الكأس من قبضتي وأنا أهم على حمله. حاولت أن أقبض عليه وهو يسقط - ولكني نجحت فقط في دفع قطعة من الزجاج بيدي حين تحطمت الكأس على الطاولة - وشُقّت شريحة من اللحم من إصبعي.

فجأة كان هناك دم في كل مكان: دم يتقاطر من ذراعي، ودم

على الزجاج المكسور، ودم مختلط مع النبيذ الأبيض على الطاولة. حاولت جاهداً تقطيع بعض مناديل المطبخ، وربطت إصبعي بإحكام حتى أوقف التدفُّق. رفعت يدي فوق رأسي، أراقب تيار الدم يتدفّق إلى أسفل ذراعي في جداول صغيرة متشابِكة تحاكي شكلَ الأوردة تحت جلدي.

فكّرت في كاثي.

كانت كاثي الشخص الذي ألجأ إليه في لحظة أزمة - عندما كنت بحاجة إلى التعاطُف أو الطمأنينة أو إلى شخص ما ليداوي جروحي. كنت أريدها أن تعتني بي. فكّرت في مناداتها - ولكن حتى لو كانت لدي هذه الفكرة، تخيّلتُ الباب يُغلق بسرعة، يُغلق بعنف، ليُبعدها عني. رحلت كاثي - كنت قد فقدتها. كنت أرغب في البكاء، ولكن لم أستطع - كنت محاصَراً في الداخل، ملفوفاً في الوحل والقرف.

«اللعنة»، ظللتُ أكرّر لنفسي، «اللعنة».

أصبحتُ واعياً بالساعة وهي تدقّ. بدت دقّاتها أعلى الآن إلى حدٍّ ما. حاولت التركيز عليها وترسيخ أفكاري التي كانت تدور بسرعة: تيك، تيك، تيك - لكن جوقة الأصوات في رأسي ارتفع صوتها، ولم يكن بالإمكان إسكاتها. فكرت أنه كان مؤكداً أنها بالطبع غير مخلِصة، وهذا كان يجب أن يحدث، كان أمراً لا مفرّ منه - لم أكن جيداً بما يكفي بالنسبة إليها، كنت عديم الفائدة، قبيحاً، عديم القيمة، لا شيء - كانت ستتعب حتماً مني في النهاية - لم أكن أستحقها، لم أكن أستحقُّ أي شيء - استمرَّ هذا التفكير لبعض الوقت، فكرة رهيبة تلكمني تلو أخرى.

كم هي قليلة معرفتي بها. هذه الرسائل الإلكترونية أثبتَت أنني

كنت أعيش مع شخص غريب. والآن رأيت الحقيقة. كاثي لم تنقذني - لم تكن قادرة على إنقاذ أي شخص. لم تكن البطلة التي تستحق الإعجاب - مجرّد فتاة خائفة منحطّة، كذّابة، خائنة. هذه الأساطير الكاملة التي بنيتها **لنا معاً**، آمالنا وأحلامنا، ما نحب وما نكره، وخُطَطنا للمستقبل؛ الحياة التي بدت آمنة جداً، قوية جداً، انهارت الآن في ثوانٍ - مثل منزل ورقي في عاصفة من الريح.

ذهب ذهني إلى تلك الغرفة الباردة في الكلّية، كل تلك السنوات التي مضت - أفتحُ بعنف عُلب الباراسيتامول بأصابع فاقدة للإحساس ومرتعشة. الإحساس نفسه تغلّب عليّ الآن، تلك الرغبة نفسها في الانطواء والموت. فكرت في والدتي. هل يمكنني الاتصال بها؟ ألجأ إليها في لحظة اليأس والحاجة؟ تخيّلتها تجيبني على الهاتف، صوتها مرتعش. كانت درجة ارتعاشها يحدِّدها مزاج أبي، وشربها للخمر. قد تستمع إليّ بتعاطُف، لكن عقلها سيكون في مكان آخر، عين واحدة على والدي ومزاجه. كيف يمكن لها أن تساعدني؟ كيف يمكن لجرذ يغرق أن ينقذ جرذاً آخر؟

كان عليّ الخروج. لم أستطع التنفس هنا في هذه الشقّة بأزهار السوسن الكريهة هذه. أنا بحاجة إلى بعض الهواء. كنت بحاجة إلى التنفُّس.

غادرت الشقة. أدخلتُ يدَي في جيبَي وأبقيت رأسي منخفضاً. مشيت عبر الشوارع بسرعة، ولم أكن قاصداً أي مكان. استمرَّ عقلي في التفكير واسترجعت تفاصيل علاقتنا، مشهداً تلوّ مشهد، تذكرتها، فحصتها، قلّبتها، بحثت فيها عن أدلة. تذكّرت الخصومات التي لم تُحلّ، والغيابات غير المبرَّرة والتأخُّر المتكرِّر. لكنني تذكرت أيضاً أفعال اللُّطف الصغيرة - ملاحظات عاطفية تتركها لي في أماكن غير

متوقّعة، لحظات من الحلاوة والحب الحقيقي على ما يبدو. كيف كان هذا ممكناً؟ هل كانت تمثّل طوال الوقت؟ هل حدث أنها أحبتني فعلاً؟

تذكّرتُ وميض الشكّ الذي أحسست به عند لقاء صديقاتها في الحانة. كانوا جميعاً ممثلات؛ يتحدثن بصوت عالٍ، نرجسيات، متفاخرات، ويتحدثن باستمرار عن أنفسهنّ وعن الناس الذين لم أكن أعرف - فجأة انتقلت بتفكيري إلى المدرسة، أحوم وحدي على هامش الملعب، أشاهد الأطفال الآخرين يلعبون. أقنعتُ نفسي أن كاثي لم تكن مثلهنّ على الإطلاق - ولكن من الواضح أنها كانت مثلهنّ. لو كنت قد التقيتهنّ تلك الليلة الأولى في الحانة عندما التقيت بها، هل كانوا سيبعدونني عنها؟ أشكّ بذلك. لا شيء كان يمكنه أن يمنع زواجنا: من اللحظة التي رأيت فيها كاثي، كان قدري قد تقرَّر.

ماذا يجب عليّ أن أفعل؟

واجهْها، بالطبع. أخبرْها بكل شيء رأيته. ستحاول الإنكار، ثم، لأنها ستدرك أنه لا مفرّ، ستعترف بالحقيقة، وستركع، والندم يغمرها. سترجوني أن أعفو عنها، أليس كذلك؟

ماذا لو لم تفعل؟ ماذا لو استهزأت بي؟ ماذا لو ضحكَت، ووقفت على كعبها، وغادرت؟ ماذا بعد؟

من بيننا نحن الاثنين، سأكون أنا الخاسر الأكبر، كان ذلك واضحاً. ستعيش كاثي - كانت مولعة بالقول إنها صلبة كالأظافر. سوف تختار نفسها وتنفض الغبار عن نفسها وتنسى كل شيء عني. لكنني لن أنساها. كيف يمكنني ذلك؟ من دون كاثي، سأعود إلى

هذا الوجود الفردي الوحيد الذي تحمّلته من قبل. لن ألتقي بأحد مثلها مجدداً، لم يكن لي أبداً العلاقة نفسها، أو جرّبت عمق الشعور تجاه كائن بشري آخر. كانت حب حياتي - كانت حياتي - ولم أكن مستعدّاً للتخلّي عنها. ليس بعد. على الرغم من أنها خانتني، ما زلت أحبها.

ربما كنت مجنوناً، في النهاية.

صرخ عصفور وحيد فوق رأسي، وروّعني. توقفت ونظرت حولي. لقد ذهبت أبعد بكثير ممّا كنت أظن. اكتشفت مع بعض الصدمة المكان الذي حملتني إليه قدماي - كنت قد مشيت إلى داخل بعض الشوارع حيث يوجد منزل روثْ.

دون أن أخطّط لذلك، كنت قد أخذت الطريق دون وعي إلى منزل معالجتي القديمة في وقت من المتاعب؛ كما فعلت الكثير من المرّات في الماضي. كان ذلك شاهِداً على مدى الاضطراب الذي كنت أشعر به حتى إنني فكرت في الذهاب إلى بابها ودقّ جرسها وطلب المساعدة.

ولماذا لا، فكّرت فجأة. نعم، كان سلوكاً لا يحترم قواعد المهنة وغير لائق إلى حدٍّ كبير، لكنني كنت يائساً، وكنت بحاجة إلى المساعَدة. وقبل أن أعرف ذلك، كنت أقفُ أمام الباب الأخضر لروث، وشاهدت يدي تصلُ إلى الجرس وتضغط عليه.

استغرق الأمر منها بضع لحظات للإجابة على الجرس. اشتعل ضوء في المدخل، ثم فتحَت الباب، محتفِظة بالسلسلة.

حدّقت روث إلى الخارج من خلال الشقّ. بدت أكبر سنّاً. كان واضحاً أنها في الثمانينيات من عمرها الآن؛ أصغر حجماً وأضعف

ممّا تذكرت، ومنحنية قليلاً. كانت ترتدي سترة رمادية على قميص النوم الوردي الباهت.

قالت «مرحباً» بعصبية. «من هناك؟».

«مرحباً يا روث»، قلتُ لها، ثم خطوت إلى النور. عرفتني ونظرت إليّ متفاجأة.

«ثيو؟ ماذا بحقّ الإله...».

حوّلت نظرها من وجهي إلى الضِّمادة المرتجَلة وغير المحكمة حول إصبعي، والدم يتسرّب من خلالها.

«هل أنت بخير؟».

«لست بخير حقاً. هل يمكنني الدخول؟ أنا - أنا بحاجة إلى الحديث معك».

لم يكن هناك تردُّد من جهة روث، فقط نظرة قلق.

أومأت.

«بالطبع بكل تأكيد. تعال». فكّت السلسلة وفتحت الباب.

خطوت إلى الداخل.

9

«هل تريد فنجان شاي؟» سألتني وهي تقودني إلى قاعة الجلوس.

كانت الغرفة كما كانت دائماً، كما كنت أتذكرها دائماً - البِساط، والستائر الثقيلة، والساعة الفضّية تدقُّ فوق الموقد، الكرسي، الأريكة الزرقاء الباهتة. شعرت على الفور بالطمأنينة.

«لأكون صادقاً»، قلت: «يمكنني أن أتناول شيئاً أقوى».

ألقت روث عليّ نظرة خاطفة وثاقبة، لكنها لم تعلّق. كما أنها لم ترفض، كما توقعت ذلك تقريباً.

صبّت لي كأسا من خمر الشيري، وسلّمته لي. جلست على الأريكة. سُلطة العادة جعلتني أجلس حيث كنت دائماً أفعل في جلسات العلاج، في أقصى اليسار، أريح ذراعي على المسند. كان الثوب تحت أطراف أصابعي قد أصبح رقيقاً بسبب الحكّ القلِق للعديد من المرضى، وأنا واحد منهم.

أخذت رشفة من الشيري. كانت دافئة وحلوة وفاترة بعض الشيء، لكني شربتها، مدركاً أن روث كانت تراقبني كل الوقت. كانت نظرتها واضحة، لكنها لم تكن ثقيلة أو غير مريحة. خلال

عشرين سنة، لم تكن روث قد جعلتني أبداً أشعر بالإحراج. لم أتحدث ثانية حتى أنهيت شرب كأس الشيري.

«من الغريب أن أكون جالساً هنا بكأس في يدي. أنا أعلم أنك لست معتادة على تقديم المشروبات لمرضاك».

«أنت لم تعد مريضي. أنت مجرّد صديق - ومن خلال ما تبدو عليه»، أضافت بلطف، «أنت بحاجة إلى صديق الآن».

«هل أبدو بهذا السوء؟».

«أخشى أنك كذلك. ومن الأكيد أن الأمرَ خطير، وإلا فإنك لن تأتي عندي دون دعوة بهذه الطريقة. بالتأكيد ليس في الساعة العاشرة ليلاً».

«أنت على حقّ. شعرت - شعرت أنه ليس لدي خيار آخر».

«ما الخطب، ثيو؟ ما الأمر؟».

«لا أعرف كيف أخبرك. لا أعلم من أين سأبدأ».

«ماذا عن البداية؟».

أومأت. أخذت نفَساً وبدأت. أخبرتها عن كل شيء حدث. قلت لها عن بدئي تدخين الماريجوانا من جديد، وكيف كنت أدخّنها سرّاً - وكيف أدّى ذلك إلى اكتشافي لرسائل كاثي الإلكترونية وعلاقتها الغرامية. تحدّثت بسرعة، وبإرهاق، راغباً في إزاحة كل ذلك الحمل عن صدري. شعرت وكأنني كنت في جلسة اعتراف.

استمعَت روث إليّ دون أن تقاطعني حتى انتهيت. كان من الصعب قراءة التعبير على وجهها. وأخيراً قالت: «أنا آسفة جداً أن هذا حدث، ثيو. أنا أعرف كم تعني كاثي لك. كم تحبها».

«نعم فعلاً. أنا أحب -» توقّفت، غير قادر على ذكر اسمها. كانت هناك هزة في صوتي. استشعرت روث ذلك، ودفعت صندوق

المناديل نحوي. اعتدت أن أغضب عندما كانت تفعل هذا في جلساتنا. كنت أتّهمها بمحاولة جعلي أبكي. كانت تنجح في ذلك بشكلٍ عام. ولكن ليس هذه الليلة. هذه الليلة كانت دموعي مجمّدة. خزّان من الجليد.

كنت أرى روث لفترة طويلة قبل أن أقابل كاثي، وواصلت العلاج للسنوات الثلاث الأولى من علاقتنا. أتذكّر النصيحة التي أعطتها لي روث عندما أنا وكاثي التقينا لأول مرة. «اختيار الحبيب يشبه كثيراً اختيار المعالج»، قالت روث. «يجب أن نسأل أنفسنا، هل هذا الشخص سوف يكون صادقاً معي، ويستمع إلى النقد، ويعترف بارتكاب الأخطاء، ولا يَعدُ بالمستحيل؟».

أخبرتُ كاثي بكلّ هذا في ذلك الوقت واقترحت أن نعقد نحن الاثنين اتفاقاً. لقد أقسمنا ألا نكذب على بعضنا البعض. أن لا نتظاهر أبداً. وأن نكون دائماً صادقَين.

قلت: «ماذا حدث؟ ما هو المشكل؟».

ترددت روث قبل أن تتحدث. ما قالته فاجأني.

«أظن أنك تعرف الإجابة عن ذلك. يكفي أن تعترف بذلك لنفسك».

«أنا لا أعرف»، قلت محرّكاً رأسي، «أنا لا أعرف».

دخلتُ في صمت ساخط - ومع ذلك، ظهرت صورة مفاجئة في ذهني لكاثي وهي تكتبُ كل تلك الرسائل، وللجوّ الحميمي لعلاقتهما، وللحيوية التي كانت تحرّكهما؛ كما لو أنها كانت تحسُّ بنشوةٍ عالية من فعل الكتابة، ومن الطبيعة السرّية والخفية لعلاقتها مع هذا الرجل. لقد استمتعَت بالكذب والتسلُّل: كانت أفعالها تشبه التمثيل، ولكن في الكواليس.

قلت أخيراً: «أعتقد أنها تشعر بالملل».

«ما الذي يدفعك لقول هذا؟».

«لأنها بحاجة إلى الإثارة. الإثارة المسرحية. لديها دائماً شيء منها. أفترض أنها كانت تشتكي - لفترة من الوقت، أننا لا نملك أي متعة أخرى - وأنا دائماً متوتّر، وأشتغلُ أيضاً بكدٍّ. تخاصمنا بهذا الشأن مؤخّراً. ظلّت تستخدم كلمة «ألعاب نارية»».

«ألعاب نارية؟».

«لأنه لا يوجد أي منها بيننا».

«آه. أرى ذلك»، أومأَت روث. «لقد تحدّثنا عن هذا من قبل. أليس كذلك؟».

«حول الألعاب النارية؟».

«عن الحب. حول كيف نخطئ في كثير من الأحيان باعتبارنا الحب ألعاباً نارية - إثارة أو خللاً. لكن الحب الحقيقي هو هادئ جداً، وساكن جداً. إنه أمر مملّ، إذا نظرنا إليه من منظور الإثارة العالية. الحب عميق وهادئ - وثابت. أتخيّلُ أنك تعطي كاثي الحب - بالمعنى الحقيقي للكلمة. سواء كانت أم لم تكن قادرة على مبادلتك إياه فهذا سؤال آخر».

حدّقت إلى علبة المناديل على الطاولة أمامي. لم يعجبني ما كانت روث ترمي إليه. حاولت أن أغيّرَ مجرى الحديث.

قلت: «هناك أخطاء في كلا الجانبَين. أنا كذبت عليها أيضاً. حول الحشيش».

ابتسمَت روث بحزن. «أنا لا أعرف ما إذا كانت الخيانة الجنسية والعاطفية المستمرّة مع إنسان آخر هي على نفس مستوى تناول الحشيش بين الحين والآخر. أعتقد أنها تشير إلى نوع مختلف

جداً من الأفراد - شخص قادر على الكذب مراراً وتكراراً، ويستطيع أن يخون شريكه دون أن يشعر بأي ندم——».

«لا تستطيعين معرفة ذلك. ربما قد تشعر بأنها فظيعة»، قلت وأنا أبدو مثيراً للشفقة كما كنت أشعر.

ولكن عندما قلت ذلك، لم أكن أعتقده فعلاً، وروث أيضاً.

«أنا لا أظن ذلك»، قالت. «أعتقد أن سلوكها يشير إلى أنها محطَّمة تماماً - وتفتقر إلى الإحساس بالآخرين والاستقامة، واللُّطف التام - وكل الصفات التي ترافقه».

هززتُ رأسي. «هذا ليس صحيحاً».

«صحيح، ثيو». تردّدَت. «ألا تظن أنك ربما كنت هنا من قبل؟».

«مع كاثي؟».

هزّت روث رأسها. «لا أقصد ذلك. أعني مع والديك. عندما كنت أصغر سنّاً. إذا كانت هناك ديناميكية الطفولة هنا، فأنت تعيد استعمالها».

قلت لها: «لا»، وشعرتُ فجأة بالغضب. «ما يحدث مع كاثي لا علاقة له بطفولتي».

«أوه، حقاً؟» بدت روث منكرة لادّعائي. «محاولةُ إرضاء شخص لا يمكن التنبؤ به، شخص ما غير متجاوب عاطفياً، غير مكترث، قاسٍ - في محاولة لإبقائه سعيداً، والفوز بحبه - أليست هذه قصّة قديمة، ثيو؟ قصّة مألوفة؟».

جمعت قبضتي بشدّة ولم أتحدّث. أكملَت روث حديثها، بتردُّد: «أعرف مدى حزنك. لكني أريدك أن تفكر في احتمال أنك شعرت بهذا الحزن قبل وقت طويل من لقاءك مع كاثي. إنه الحزن

الذي كنت تحمله لسنوات عديدة. أنت تعلم، ثيو، أن أحدَ أصعب الأمور التي يجب الاعتراف بها هو أننا لم نكن نُحَبّ عندما كنا في حاجة إلى الحب أكثر من أي شيء آخر. إنه شعور رهيب، أَلَم أن لا تكون محبوباً».

كانت على حقّ، بطبيعة الحال. كنت أفكّر في الكلمات الصحيحة للتعبير عن هذا الشعور القاتم بالخيانة في الداخل، وجع رهيب أجوف؛ وأنا أسمع روث تتحدّث عنه - «أَلَم أن لا تكون محبوباً» - رأيت كيف سادَ وعيي بالكامل، وكان في الوقت نفسه قصة ماضيّ وحاضري ومستقبلي. لم يكن الأمر يتعلّق فقط بكاثي: كان يتعلق بوالدي، وبإحساسي الطفولي بالخِذلان؛ حزني على كل شيء لم أحصل عليه أبداً، وفي قلبي، كنت ما زالت أعتقد أنني لن أحصل عليه أبداً. وكانت روث تقول إن هذا هو السبب الذي جعلني أختار كاثي. ما هي أفضل طريقة بالنسبة إليّ لإثبات أن والدي كان على صواب - أن أكون من دون قيمة وغير محبوب - غير السعي نحو شخص لن يحبني أبداً؟

دفنتُ رأسي في يدَي. «لذلك لم يكن هناك مفرّ من كل هذا؟ هذا ما تقولينه - يجب أن أهيّئ نفسي لهذا الأمر؟ إنه أمر ميئوس منه تماماً؟».

«ليس ميئوساً منه. لم تعد طفلاً تحت رحمة والدك. أنت رجل ناضج الآن - ولديك القدرة على الاختيار. استعمل هذا للتأكيد مرة أخرى على أنك من دون قيمة - أو اقطع مع الماضي. حرّر نفسك من تكراره بلا نهاية».

«كيف يمكنني فعل ذلك؟ أتعتقدين أنه يجب عليّ أن أتركها؟».

«أعتقد أنه وضع صعب للغاية».

«لكنك تعتقدين أنه يجب عليّ أن أرحل، أليس كذلك؟».

«لقد حقّقتَ تقدُّماً كبيراً، وعملت بجدٍّ، حتى لا تعود إلى حياة خيانة الأمانة والإنكار والاعتداء العاطفي. أنت تستحق شخصاً يعاملك بشكلٍ أفضل، أفضل بكثير——».

«فقط قوليها روث. قوليها. تعتقدين أنه يجب عليّ أن أرحل».

نظرت روث إلى عينَي. سيطرت على انتباهي.

«أعتقد أنه يجب عليك أن تنهي علاقتك بها»، قالت. «وأنا لا أقول هذا بصفتي معالجتك القديمة - ولكن كصديقتك القديمة. لا أعتقد أنه يمكنك أن تعود إلى علاقتك السابقة بها، حتى لو كنت تريد. قد تستمرّ لفترة قصيرة، ربما، ولكن في غضون بضعة أشهر سوف يحدث شيء آخر وسوف ينتهي بك المطاف هنا على هذه الأريكة. كُن صادقاً مع نفسك، ثيو - حول كاثي وهذا الوضع - وكل شيء مبنيّ على الأكاذيب والادّعاءات سوف يقع بعيداً عنك. تذكر، الحب الذي لا يشمل الصدق لا يستحق أن يطلق عليه اسم الحب».

تنهّدتُ، وأنا مقبوض، مكتئب ومتعَب جداً.

«شكراً لك يا روث - على صدقك. فهذا يعني الكثير».

عانقتني روث عند الباب عندما كنت أغادر. لم تفعل ذلك أبداً من قبل. كانت هشّة بين ذراعَيّ، وعظامها حسّاسة جداً. استنشقتُ رائحتها الوردية الخفيفة ورائحة صوف سترتها، ومرة أخرى شعرت بالرغبة في البكاء. لكني لم أفعل أو لم أستطع ذلك.

وبدلاً من ذلك، ابتعدت ولم أنظر إلى الوراء.

أخذتُ الحافلة إلى البيت. جلست بجانب النافذة، أحدق إلى الخارج، وأفكر في كاثي، في بشرتها البيضاء، وتلك العينَين

الخضراوين الجميلتَين. كنت أحسُّ بمثل هذا الحنين - للطعم الحلو لشفتيها، ولنعومتها. لكن روث كانت على حقّ. الحب الذي لا يشمل الصدق لا يستحق أن يطلق عليه اسم الحب.

كان عليّ أن أذهب إلى البيت وأواجه كاثي.

كان عليّ أن أنهي علاقتي بها.

10

كانت كاثي هناك عندما وصَلتُ إلى المنزل. كانت تجلس على الأريكة، تكتب رسائل إلكترونية.

«أين كنت؟» سألَت دون أن ترفع نظرها.

«مجرّد نزهة. كيف كانت البروفة؟».

«جيدة. متعِبة».

شاهدتها تكتب الرسائل النصية، متسائلاً عمّن كانت تكتب إليه.

كنت أعلم أن هذه كانت لحظتي للحديث. **أعلم أنك على علاقة برجل آخر - أريدُ الطلاق.** فتحت فمي لأقول ذلك. لكن وجدت أنني كنت أخرس. وقبل أن أتمكّن من استعادة صوتي، سبقتني كاثي إلى ذلك. توقّفَت عن إرسال الرسائل النصية ووضعَت هاتفها جانباً.

«ثيو، نحتاج إلى التحدُّث».

«عن ماذا؟».

«أليس لديك شيء لتخبرني به؟».

كانت هناك نبرة صارمة في صوتها. تجنّبتُ النظر إليها، حتى لا

تتمكن من قراءة أفكاري. شعرت بالخجل والمراوغة - كما لو كنت الشخص الذي لديه إحساس بالذنب.

وكنت كذلك، من وجهة نظرها. مدّت كاثي يدها وراء الأريكة والتقطَت شيئاً ما. وفي الحال أحسستُ بالخيبة. كانت تحمل الجرّة الصغيرة حيث كنت أحتفظ بالحشيش. لقد نسيت أن أخفيها مرة أخرى في الغرفة الاحتياطية بعد قطع إصبعي.

«ما هذا؟»، سألَت وهي تحملها.

«إنه الحشيش».

«أعرف ذلك. ماذا يفعل هنا؟».

«اشتريته. أحب ذلك».

«تحبه؟ لتدرك نشوة التخدير؟ هل أنت جادّ؟».

هززتُ كتفَي، متهرِّبا من النظر إلى عينيها، مثل طفل شَقيّ.

«اللعنة؟ أعني، بحقّ الإله -» هزَّت كاثي رأسها، غاضبة جداً. «في بعض الأحيان أعتقد أنني لا أعرفك على الإطلاق».

كنت أرغب في ضربها. كنت أرغب في القفز عليها وضربها بقبضتَي. كنت أرغب في سحق الغرفة، وكسر الأثاث على الجدران. كنت أرغب في البكاء، والعواء، ورمي نفسي في ذراعيها.

لم أفعل شيئاً من هذا.

«دعنا نذهب إلى النوم»، قلت، وخرجت.

ذهبنا للنوم في صمت. استلقيت في الظلام بجانبها. بقيتُ مستيقظاً لساعات، أشعرُ بالحرارة المنبعثة من جسدها، وأحدّق إليها وهي نائمة.

لماذا لم تأتِ إليّ، أردت أن أقول لها. لماذا لم تتحدثي معي؟

كنت صديقك المفضّل. لو قلت كلمة واحدة فقط، لكان ممكناً أن نجدَ حلاً. لماذا لم تتحدثي معي؟

أنا هنا. **أنا هنا بجانبك.**

كنت أرغب في الوصول إليها وسحبها أقرب إليّ. كنت أرغب في ضمّها. لكنني لم أستطع. رحلَت كاثي - الشخص الذي أحببته كثيراً اختفى للأبد، وترك هذا الشخص الغريب في مكانها.

ارتفعَ شهيق البكاء في مؤخّرة حنجرتي. أخيراً، انهمرت الدموع، لتتدفّق أسفل وجنتي.

بصمت، وفي الظلام، بكيت.

في صباح اليوم التالي، استيقظنا وقمنا بالروتين المعتاد - ذهبَت إلى الحمّام بينما أعددتُ القهوة. سلّمتها فنجاناً عندما جاءت إلى المطبخ.

وقالت: «كنت تصدر أصواتاً غريبة في الليل. كنت تتحدث في نومك».

«ماذا قلت؟».

«لا أعرف. لا شيء. لم يكن كلاماً ذا معنى. ربما لأنك كنت مخدَّراً جداً». ألقت عليّ نظرة ذابلة ثم ألقت نظرة على ساعتها. «يجب أن أذهب. سأتأخّر».

أنهَت كاثي قهوتها ووضعَت الكأس في الحوض. قبّلتني بسرعة على الخدّ. جعلتني لمسة شفتيها تقريباً أجفل.

بعد أن غادرَت، أخذتُ حمّاماً. رفعتُ درجة الحرارة حتى أصبح الماء حارقاً. كان الماء الساخن يرشُّ وجهي بقوة وأنا أبكي - يحرقُ الدموع الفوضوية والطفولية. وأنا أجفّف الماء عن جسدي،

لمحتُ صورتي في المرآة. لقد صُدمت - كنت ذابلاً، منكمّشاً، وزادَ عمري ثلاثين عاماً بين عشية وضحاها. كنت كبير السنّ، منهَكاً، وتبخّر شبابي.

لقد اتخذت قراراً، هناك وفي ذلك الوقت.

سيكون الانفصال عن كاثي مثل تقطيع جزء مني. لم أكن على استعداد لتقطيع نفسي بهذه الطريقة. مهما كان الكلام الذي قالته لي روث. ليست روث معصومة عن الخطأ. لم تكن كاثي والدي. لست محكوماً بتكرار الماضي. يمكنني تغيير المستقبل. كنت أنا وكاثي سعيدَين من قبل. يمكن أن نكون كذلك مرة أخرى. في يوم ما قد تعترف لي بكل شيء، وتخبرني عن ذلك، وسأغفر لها. سوف نتجاوز هذه المرحلة.

لن أسمح لكاثي بالرحيل. بدلاً من ذلك، لن أقول أي شيء. سوف أتظاهرُ بأنني لم أقرأ هذه الرسائل الإلكترونية أبداً. وعلى نحو ما، سأنسى. سأدفن هذا السرّ. لم يكن أمامي خيار سوى الاستمرار. رفضت أن أستسلم لهذا الأمر؛ رفضتُ التفكُّك والانهيار.

على أي حال، لم أكن مسؤولاً فقط عن نفسي. ماذا عن المرضى الذين يوجَدون في رعايتي؟ بعض الناس يعتمدون عليّ.

لم أكن أستطيع أن أتخلّى عنهم.

11

قلت: «أبحث عن إليف. هل لديك فكرة عن أين يمكنني العثور عليها؟».

نظر إليّ يوري نظرة غريبة. «هل هناك سبب يجعلك تريد لقاءها؟».

«فقط لأقول لها مرحباً بسرعة. أريد مقابلة جميع المرضى - لأجعلهم يعرفون من أكون، وبأنني موجود هنا».

بدا يوري متشكِّكاً. «جيد. حسناً، لا تأخذ ذلك على نحو شخصي إذا لم تكن مرحِّبة للغاية». نظر إلى الساعة على الحائط. «إنها بعد النصف، لذا فهي ستكون قد أنهت حصة العلاج الفني. أفضل رهان هي غُرفة الاستراحة».

«شكراً».

كانت منطقة الاستراحة غرفة دائرية كبيرة مفروشة بأرائك قديمة وطاولات منخفِضة وخزانة كتب مليئة بالكُتُب الممزّقة لا أحد كان يريد أن يقرأها. كانت تنبعث من المكان رائحة الشاي الفاسد ودخان السجائر القديمة الذي كان قد لطّخ الأثاث. كان بعض المرضى يلعبون لعبة الطاولة في الزاوية. كانت إليف وحدها بالقرب من طاولة البليارد. اقتربتُ مع ابتسامة.

«مرحباً إليف».

نظرَت إليّ بعينَين خائفتَين ومتشكِّكتَين. «ماذا؟».

«لا تقلقي، ليس هناك أي مشكل. أريد فقط أن أتحدّث معك بسرعة».

«أنت لست طبيبي. لدي بالفعل واحدة».

«أنا لست طبيباً. أنا طبيب نفسي».

نخرَت إليف بازدراء. «حصلتُ على واحد منهم أيضاً».

ابتسمَت، وشعرتُ بارتياح داخلي أنها مريضة إنديرا وليست مريضتي. عن قرب كانت إليف أكثر إخافة. لم يكن للأمر علاقة بحجمها الكبير، ولكن أيضاً بالغضب المحفور في عمق وجهها - عبوس دائماً وعينَين سوداوين غاضبتَين، عينَين مضطربتَين تماماً وبشكلٍ واضح. كانت تنبعث منها رائحة العرق ورائحة السجائر الملفوفة التي كانت دائماً تدخّنها، والتي تركَت أناملها ملطّخة بالأسود وجعلَت أظافرها وأسنانها صفراء داكنة.

«أردت فقط أن أطرح عليك بعض الأسئلة»، قلتُ، «إذا لم يكن لديك أي اعتراض - حول أليسيا».

تجهّمَت إليف وضربت العصا بقوة على الطاولة. بدأَت في إعداد الكُرات للعبة أخرى. ثم توقّفت. وقفَت هناك، مشتتة الانتباه، في صمت.

«إليف؟».

لم تردّ. كنت أستطيع أن أعرف من التعبير على وجهها ما كان يحدث لها.

«هل تسمعين أصواتاً، إليف؟».

نظرة متشكِّكة. تجاهُل.

«ماذا يقولون؟».

«أنت لست آمنة. يطلبون مني أن أحترس».

«أتفهّم ذلك. إنه صحيح تماماً. أنت لا تعرفينني - لذلك من المعقول أن لا تثقي بي. ليس بعد. ربما، مع مرور الوقت، سيتغيّر ذلك».

ألقَت إليف عليّ نظرة توحي أنها تشكُّ في ذلك.

أومأتُ إلى طاولة البليارد. «هل تريدين اللعب؟».

«كلا».

«لمَ لا؟».

هزّت كتفيها. «تكسّرت العصا الأخرى. ولم يعوضوها بعد».

«لكن يمكنني استعمال عصاك، أليس كذلك؟».

كانت العصا موضوعة على الطاولة. مددت يدي للمسها - سحبتها بعنف بعيداً عن متناولي. «إنها عصاي! احصل على عصاك الخاصة!».

تراجعتُ، متوتّراً من ضراوة ردّة فعلها. لعبَت ضربة بقوة كبيرة. شاهدت لعبها للحظة. ثم حاولت مرة أخرى.

«كنت أتساءل ما إذا كان بإمكانك أن تخبريني عن شيء ما حدث عندما تمَّ قبول أليسيا لأول مرّة في ذا غروف. هل تتذكرين؟».

هزّت إليف رأسها متجاهِلة سؤالي. أكملت: «قرأتُ في ملفّها أنكِ تشاجرتِ معها في المقصف. وكنتِ من تعرّضَ للهجوم؟».

«أوه، نعم، نعم، حاولَت قتلي هناك؟ حاولَت قطع رقبتي، تباً».

«وفقاً لملاحظات التسليم، رأتك ممرّضة تهمسين شيئاً ما في أذن أليسيا قبل الهجوم. كنت أتساءل عمّا قلته لها؟».

«لا» هزّت إليف رأسها ناكرة بشراسة. «أنا لم أقل أي شيء».

«لا أحاول أن أوحي بأنك قُمت باستفزازها. أنا فقط أشعر بالفضول لمعرفة ما قلته لها».

«لقد سألتها شيئاً، شيئاً ما».

«عمَّ سألتها؟».

«سألتها إن كان يستحق ذلك».

«من؟».

«هو. رجلها». ابتسمَت إليف. على الرغم من أنها لم تكن في الواقع ابتسامة، كانت تشبه أكثر تكشيرة غريبة.

«هل تقصدين - زوجها؟» تردّدتُ، غير متأكدٍ من أني فهمت ما تقصده. «لقد سألتِ أليسيا إن كان زوجها يستحق أن يُقتل؟».

حرّكت إليف رأسها وضربت كُرة. «وسألتها عن حاله. عندما أطلقت النار عليه وتمَّ كسر جمجمته وسالَ مخّه منها». ضحكَتْ.

شعرت بموجة مفاجئة من الاشمئزاز - على غرار الشعور الذي تخيّلت أن إليف أثارته في أليسيا. تجعلكُ إليف تشعر بالنفور والكراهية - وكان هذا هو المرض الذي تعاني منه، وهذا هو الشعور الذي غرسَته أمها فيها عندما كانت طفلة صغيرة جداً. بغيضة ومثيرة للاشمئزاز. وهكذا تستفزّك إليف عن غير وعي منها - وفي الغالب تتمكّن من ذلك.

«وكيف هي الأمور الآن؟» سألتُ. «هل أنت وأليسيا على علاقة جيّدة؟».

«آه، نعم، صديقة. نحن قريبتان جداً من بعضنا البعض. أحسن الأصدقاء».

ضحكَت إليف مرة ثانية. قبل أن أتمكّن من الردّ، أحسست بهاتفي يهتزُّ في جيبي. فحصته لكني لم أعرف الرقم.

«يجب أن أردّ على الهاتف. شكراً. لقد كنت متعاونة جداً».

قالت إليف شيئاً غير مفهوم، واستأنَفت اللعب.

مشيت إلى الممرّ وأجبت على الهاتف.

«مرحباً؟» قلتُ.

«هل المتكلم ثيو فابر؟».

«نعم هو. من المتحدِّث؟».

«أنا ماكس بيرينسون، أردُّ على مكالمتك السابقة».

«آه، نعم. مرحباً. شكراً على المكالمة. كنت أتساءلُ إن كان مُمكناً أن نتكلّم حول أليسيا؟».

«لماذا؟ ماذا حدث؟ هل هناك أي مشكل؟».

«لا. أعني، ليس تماماً - أنا أعالجها وأريدُ أن أطرح عليك بعض الأسئلة بشأنها. في أي وقت يناسبك».

«أليسَ بإمكاننا فعل ذلك على الهاتف؟ أنا مشغول بعض الشيء».

«أريد أن أتكلّمَ معك مباشرة، إن كان ذلك ممكناً».

تنهّد ماكس بيرينسون، وتكلَّم مع شخص بجانبه كلاماً لم أسمع تفاصيله. ثم بعد ذلك: «غداً مساء، على الساعة السابعة، في مكتبي».

وقبل أن أتمكن من السؤال عن العنوان، أنهى المكالمة.

12

كانت موظفة الاستقبال في مكتب ماكس بيرينسون تعاني من نزلة برد سيّئة. أخذَت منديلاً، أفرغت أنفها، وأشارت إليّ أن أنتظر.

«إنه يتكلم على الهاتف. سيخرج إليك بعد دقيقة واحدة».

أومأتُ متفهِّماً وأخذت مقعداً في قاعة الانتظار. بعض الكراسي القائمة غير المريحة، طاولة القهوة مع كومة من مجلات قديمة. جميع غرف الانتظار بدت متشابِهة، قلت في نفسي؛ كان يمكنني أن أنتظر بالسهولة نفسها زيارة طبيب أو مدير شركة مآتم أو محامٍ.

فُتح الباب عبر الرواق. ظهر ماكس بيرينسون، وطلب مني أن أدخل. اختفى مرة أخرى إلى داخل مكتبه. وقفت وتبعته إلى الداخل.

كنت أتوقع الأسوأ، نظراً إلى طريقة كلامه غير اللطيفة على الهاتف.

ولكن لدهشتي، بدأ باعتذار.

وقال: «أنا آسف إن كنت غير لطيف معك عندما تحدّثنا. لقد كان أسبوعاً طويلاً وكنت مريضاً. اجلس من فضلك؟».

جلستُ على كرسي على الجانب الآخر من المكتب.

قلت: «شكراً. وأشكرك على موافقتك على مقابلتي».

«حسناً، لم أكن متأكّداً من أنه يجب عليّ أن أوافق في البداية. اعتقدت أنك كنت صحافياً، يحاول أن يجعلني أتحدّثُ إليه عن أليسيا. ولكن بعد ذلك اتصلتُ بذا غروف وتأكّدت أنك تشتغل هناك».

«أتفهّمُ ذلك. هل يحدث هذا كثيراً؟ الصحافيون، أعني؟».

«ليس مؤخّراً. كان ذلك في الماضي. تعلمت أن أكون محترساً -».

كان على وشك أن يقول شيئاً آخر، لكنّ عَطسة باغتته. وصل بيده إلى صندوق المناديل. «آسف - لدي حالة زكام عائلي».

أفرغ أنفه. نظرت إليه عن كثب. بخلاف أخيه الأصغر، لم يكن ماكس بيرينسون رجلاً جذّاباً. كان ماكس مهيباً، أصلع، وكان وجهه أرقط تتخلّله ندوب عميقة لحبّ الشباب. كانت تنبعث منه رائحة عطر رجالي لاذعة من الطراز القديم، من النوع الذي كان يستعمله أبي. وكان مكتبه تقليدياً كذلك، وكانت له رائحة مطمئنة للأثاث والجلود والخشب والكُتب. إنه عالم مختلف تماماً عن العالم الذي كان يسكنه غابرييل؛ عالم من الألوان والجمال من أجل الجمال. من الواضح أنه كان هو وماكس مختلفَين تماماً.

كانت هناك صورة مؤطَّرة لغابرييل على المكتب. صورة عادية - ربما أُخِذت من قبل ماكس؟ - كان غابرييل يجلس على سِياج في حقل بالريف، شعره يهب في النسيم، وكاميرا متدلية حول عنقه. بدا مثل ممثّل أكثر منه مصوّر، أو ممثّل يلعب دورَ المصوّر.

لمحني ماكس وأنا أنظر إلى الصورة، وأومأ كما لو كان يقرأ عقلي. «كان لأخي الشعر والمظهر الجميل. وحصلت أنا على

الذكاء». ضحكَ. «أنا أمزح. في الواقع، كنت ابناً بالتبنّي. لم تكن بيننا صلة قرابة بالدم».

«لم أكن أعلم ذلك. هل كنتما معاً أبناء بالتبني؟».

«لا فقط أنا. اعتقدَ آباؤنا أنهم لا يستطيعون إنجاب الأطفال. لكن بعد أن تبنّوني، رُزقوا بطفل من صُلبهم بعد وقت قصير. إنه شيء شائع جداً على ما يبدو. شيء له علاقة بنقصان التوتر».

«هل كنت أنت وغابرييل قريبَين؟».

«أقرب من معظم الإخوة. على الرغم من أنه تولّى مركز الصدارة، بالطبع. غطّى بروزه على وجودي في العائلة».

«لمَ كان ذلك؟».

«حسناً، كان من الصعب ألا يكون كذلك. كان غابرييل مميّزاً، حتى وهو طفل».

كان ماكس معتاداً على اللعب بخاتم زفافه. كان يدوّره باستمرار حول إصبعه وهو يتحدّث. «كان غابرييل يحملُ آلة التصوير في كل مكان، كما تعلم، ليلتقط الصور. اعتقدَ والدي أنه كان مجنوناً. تبيّن أنه كان عبقرياً إلى حدٍّ ما، أخي. هل تعرف عمله؟».

ابتسمت بطريقة دبلوماسية. لم يكن لدي أي رغبة في الدخول في مناقشة عن جدارة غابرييل كمصوّر. بدلاً من ذلك وجّهت المحادَثة مرة أخرى إلى أليسيا.

«من الأكيد أنك تعرفها جيّداً؟».

«أليسيا؟ هل يجب عليّ؟».

شيء ما تغيّر في ماكس عند ذكر اسمها. تبخّر الدفء وكانت نبرته باردة.

وتابع، «لا أعرف إن كان يمكنني مساعدتك. لم أكن أنوب عن

أليسيا في المحكمة. يمكنني أن أجعلك على اتصال مع زميلي، باتريك دوهرتي، إذا كنت تريد تفاصيل حول المحاكمة».

«هذا ليس نوع المعلومات الذي أبحث عنه».

ألقى عليّ نظرة غريبة. «كمعالج نفسي، ليس ممارسة شائعة أن تقابل محامي المريض؟».

«لا إذا كان مريضي يستطيع التحدث عن نفسه، لا».

بدا ماكس أنه يفكّر ملياً في هذا الأمر. «أفهم ذلك. حسناً، كما قلت، لا أعرف كيف يمكنني المساعدة، لذلك. . .».

«عندي فقط بضعة أسئلة».

«ممتاز. ابدأ استجوابك».

«أتذكر أنني قرأت في الصحافة في ذلك الوقت، أنك رأيت غابرييل وأليسيا ليلة قبل القتل؟».

«نعم، تناولنا العشاء معاً».

«كيف بدَوَا؟».

كانت عينا ماكس جامدتَين وخاليتَين من أي تعبير. من المفترض أنه سُئل هذا السؤال مئات المرات وكان ردّه تلقائياً، دون أي تفكير.

«عاديان. طبيعيان تماماً».

«وأليسيا؟»

«عادية». هزّ كتفيه. «ربما أكثر تعصُّباً من المُعتاد، لكن. . .».

«لكن؟».

«لا شي».

شعرت أن هناك المزيد من المعلومات. انتظرتُ. وبعد لحظة، تابعَ ماكس كلامه: «لا أعرف كم تعرف عن علاقتهما».

«فقط ما قرأته عنهما في الصحف».

«وماذا قرأت؟».

«كانا سعيدَين».

«سعيدان؟» ابتسم ماكس ببُرود. «أوه، لقد كانا سعيدَين. فعل غابرييل كل ما في وسعه لجعلها سعيدة».

«أفهم الآن ما تعنيه».

لكني لم أفهم. لم أكن أعرف ما يرمي إليه. كان مؤكّداً أنني بدوت حائراً لأنه هزَّ كتفَيه، وقال: «أنا لن أضيف أي تفسير. إذا كنت تبحث عن القيل والقال والإشاعات، تحدّث إلى جان-فيليكس، وليس إليّ».

«جان-فيليكس؟».

«جان-فيليكس مارتن. كان المسؤول عن قاعة عرض لوحات أليسيا. كانا يعرفان بعضهما البعض لسنوات. علاقة وثيقة مثل اللصوص. لم أحبه كثيراً، لأكون صادقاً معك».

قلت له: «لست مهتمّاً بالثرثرة». سجّلت ملاحظة للتحدث إلى جان-فيليكس في أقرب وقت ممكن - «أنا مهتمّ أكثر برأيك الشخصي. هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً مباشراً؟».

«اعتقدت أنك فعلت للتو».

«هل كنت تحب أليسيا؟».

بدا ماكس لي بلا تعبير واضح عندما تحدّث. «بالطبع كنت أحبّها».

لم أصدّقه.

«أشعر أنك ترتدي قبّعتَين مختلفتَين. قبّعة المحامي وهو غير واضح بشكلٍ مفهوم، وقبّعة الأخ. أنا هنا لأتكلّم إلى الأخ».

كانت هناك وقفة. تساءلتُ عمّا إذا كان ماكس سيطلب مني أن أغادر. بدا وكأنه على وشك أن يقول شيئاً لكنه غيّر رأيه. ثم غادرَ فجأة المكتب وذهب إلى النافذة. فتحَها. كانت هناك نفحة من الهواء البارد. تنفّس ماكس بعُمق، كما لو أن الغُرفة كانت تخنقه. وفي النهاية تحدّث بصوت منخفض: «الحقيقة هي... كنت أكرهها... كنت أبغضها».

لم أقل شيئاً. انتظرته أن يكمل حديثه. ظلَّ ينظر من النافذة. تحدّث ببطء: «لم يكن غابرييل أخي فقط، كان أعزّ صديق لي. كان أكرمَ رجل في الوجود. طيّب للغاية. وكلّ موهبته، طيبته، شغفه للحياة - تمَّ تحطيمهم للأبد، بسبب **تلك العاهرة**. لم تكن حياته فقط التي دمّرتها - دمّرت حياتي أيضاً. الحمد لله لم يعش أبواي لرؤية ذلك -» اختنقَ، أصبحَ عاطفياً فجأة.

كان من الصعب عدم الشعور بألم ماكس، وشعرت بالأسف تجاهه. «من الأكيد أنه كان من الصعب للغاية بالنسبة إليك الدفاع عن أليسيا»، قلت.

أغلقَ ماكس النافذة وعاد إلى المكتب. استعادَ السيطرة على نفسه. كان يرتدي قبّعة المحامي مرة أخرى. كان محايداً ومتوازناً وبارد العاطفة. هزَّ كتفَيه.

«هذا ما كان يريده غابرييل. أرادَ الأفضل لأليسيا دائماً. كان يحبها بجنون. كانت مجنونة».

«هل تعتقد أنها كانت مجنونة؟».

«أخبرني أنت - أنت معالجها النفسي».

«ماذا تعتقد؟».

«أنا أعرف ما لاحظته».

«وماذا كان ذلك؟».

«تقلُّبات مزاج. نوبات غضب. نوبات عنيفة. كانت تكسر الأشياء وتحطّم كل شيء. قال لي غابرييل إنها هدّدته بالقتل في عدة مناسبات. كان يجب عليّ الاستماع إليه، القيام بشيء ما - بعد أن حاولَت أن تقتلَ نفسها، كان يجب أن أتدخّل - وأن ألحَّ على ضرورة حصولها على بعض المساعدة الطبّية. لكني لم أفعل. كان غابرييل مصمِّماً على حمايتها، وأنا كنت غبياً، سمحت له بذلك».

تنهّد ونظرَ إلى ساعته - كان تلميحاً لي بأن أنهي المحادثة. لكنني فقط حدّقت إليه دون تعبير تماماً.

«حاولَت أليسيا أن تقتل نفسها؟ ماذا تعني؟ متى؟ هل تعني بعد القتل؟».

حرّك ماكس رأسه. «لا، عدة سنوات قبل ذلك. أنت لا تعرف؟ أفترض أنك تعرف».

«متى كان هذا؟».

«بعد وفاة والدها. أخذَت جرعة زائدة... أقراصاً أو شيئاً من هذا القبيل. لا أتذكّر بالضبط. كان لديها نوع من الانهيار».

كنت على وشك الضغط عليه أكثر عندما فتح الباب. ظهرت موظّفة الاستقبال وتحدّثت بصوت فيه بعض الاحتقار. «عزيزي، يجب أن نذهب. سنتأخّر».

«صحيح»، قال ماكس. «قادم، عزيزتي».

أُغلق الباب. وقف ماكس، نظر إليّ نظرة اعتذارية.

«لدينا تذاكر للمسرح». من الأكيد أنني كنت أبدو مندهشاً، لأنه ضحك. «نحن - تانيا وأنا - تزوجنا العام الماضي».

«أوه. أرى ذلك».

«جمعنا موت غابرييل. لم أكن أستطيع تجاوز المحنة من دونها».

رنَّ هاتف ماكس، وأخذَ انتباهه. أومأتُ له بالردّ على الاتصال.

قلت له: «شكراً لك، لقد كانت مساعدتك لي رائعة».

خرجت من المكتب. ألقيت نظرة فاحصة على تانيا في الاستقبال - كانت شقراء، جميلة، صغيرة إلى حدّ ما. أفرغَت أنفها، ولاحظتُ الماسة الكبيرة على خاتم زواجها.

لدهشتي، نهضَت ومشت نحوي، مقطّبة الحاجبين.

تحدثت بشكلٍ عاجل وبصوت منخفض.

«إذا كنت تريد أن تعرف عن أليسيا» قالت، «تحدث مع ابن عمها، بول - يعرفها أفضل من أي شخص آخر».

قلت: «حاولت الاتصال بعمّتها، ليديا روز. لم تكن لها رغبة في التواصل».

«انسَ ليديا. اذهب إلى كامبريدج. تكلّم مع بول. اسألهُ عن أليسيا وعن الليلة بعد وقوع الحادث، و. . .».

فُتح باب المكتب. صمتت تانيا على الفور. ظهرَ ماكس وهرعَت إليه، مبتسِمة ابتسامة عريضة.

سألت: «عزيزي. هل أنت مستعدّ؟».

كانت تانيا تبتسم، لكنها بدت عصبية. كانت خائفة من ماكس، اعتقدت ذلك. وكنت أتساءل عن السبب.

13

يوميّات أليسيا بيرينسون

22 يوليو

أكره وجود سلاح في المنزل.

تخاصمنا مرة أخرى حول هذا الموضوع الليلة الماضية. على الأقل أعتقد أن هذا ما كنا نتجادل بشأنه - لست متأكِّدة الآن.

قال غابرييل إنني كنت من تسبّب في هذا الخصام. أفترض أنه كان البادئ. أكره رؤيته مستاء جداً، وينظر إليّ بعينَين مجروحتَين. أكره أن أسبّب له الألم - ولكن في بعض الأحيان أريد أن أؤذيه بشدّة، ولا أعرف السبب.

قال إنني عدت إلى البيت في مزاج فظيع، وإنني صعدت إلى الطابق العلوي وبدأتُ أصرخ في وجهه. ربما فعلتُ. أظنُّ أنني كنت مضطربة. لستُ متأكدة تماماً ممّا حدث. كنت قد رجعت للتوّ من المرج. لا أتذكّر الكثير من هذه الجَولة - فقط بعض أحلام اليقظة، والتفكير في العمل، وفي صورة يسوع. أتذكر أنني مشيت بالقرب من منزل في طريقي إلى البيت. كان ولدان يلعبان بخرطوم ماء. لا يمكن أن يكون عمرهما أكثر من سبعة أو ثمانية أعوام. كان الصبي

الأكبر يرشُّ الأصغر بواسطة تدفُّق مضغوط من الماء - وكان قوس قزح من الألوان يتألَّقُ في الضوء. قوس قزح كامل الأوصاف. مدَّ الصبي الأصغر يدَيه وهو يضحك. مشيت بالقرب منهم وأدركت أن وجنتَي كانتا مبلّلتَين بالدموع.

رفضت ذلك، لكنني عندما أفكر في الأمر الآن، يبدو واضحاً. لا أريد أن أعترف بالحقيقة لنفسي - حقيقة أن جزءاً ضخماً من حياتي مفقود. أنكرت أنني أريد أطفالاً، متظاهِرة بأنه ليس لدي أي رغبة فيهم، وأن كل ما يهمني هو الفنّ. وهذا غير صحيح. إنه مجرّد ذريعة - الحقيقة هي أني خائفة من إنجاب الأطفال. لا يجب أن يُعهد إليّ بتربيتهم.

ليس بدم أمي الذي يجري في عروقي.

هذا ما كان يدور في ذهني، بوعي أو بغير وعي، عندما وصلتُ إلى المنزل. كان غابرييل على حقّ، كنت فعلاً في حالة سيّئة.

لكنني لم أكن لأنفجر غضباً أبداً لو لم أجده ينظّف المُسدّس. يزعجني كثيراً أنه يمتلكه. ويؤلمني أنه لن يتخلّص منه، بغضّ النظر عن عدد المرات التي توسّلته فيها أن يفعل. يقول دائماً الشيء نفسه - أنه كان واحداً من بين بنادِق والده القديمة في المزرعة وأعطاه له عندما كان عمره ستة عشر عاماً، وأن له قيمةً عاطفية وغير ذلك من الكلام. أنا لا أصدّقه. أعتقد أن هناك سبباً آخر وراء ذلك. قلت له ذلك. قال غابرييل أن ليس هناك عيب في أن تكون له الرغبة في أن نكون آمنَين - يريد حماية منزله وزوجته. ماذا لو أن شخصاً ما تسلّلَ إلى البيت؟

«حينها نطلب الشرطة»، قلت. «لا نطلق عليهم النار، اللعنة!».

رفعت صوتي، لكنه رفع صوته، وقبل أن أدرك ذلك، كنا

نصرخ في وجه بعضنا البعض. ربما فقدت السيطرة على نفسي قليلاً. لكني كنت أتفاعل معه فقط - هناك جانب عدواني في غابرييل، جزء منه أكتشفه فقط من حين إلى آخر - وعندما أفعل، فإن ذلك يخيفني. في هذه اللحظات القصيرة، كان الأمر يبدو لي وكأنني أعيش مع شخص غريب. وهذا مرعِب.

لم نتحدّث لبقية المساء. ذهبنا للنوم.

هذا الصباح تصالحنا على طريقتنا. يبدو أننا نحلُّ مشاكلنا دائماً في السرير. إنه أسهل، بطريقة ما - عندما تكون نصف نائم تحت الأغطية، أن تهمسَ «أنا آسف»، وتقصد ذلك. يتمُّ إبعاد كل الدفاعات والتبريرات التافهة، ونحن مستلقين على كومة من ملابسنا على الأرض.

ربما ينبغي لنا أن نجعلها قاعدة، أن نتخاصم دائماً في السرير.

«قبّليني. أحبك. سوف أتخلّص من المسدّس، أعدك».

«لا»، قلت. «لا يهم، انسَ الأمر. ليس هناك أي مشكل. حقاً».

قبّلني غابرييل مرة أخرى وجذبني أقرب إليه. حضنته، وضعت جسدي العاري على جسده. أغلقتُ عينَي، ومددتُ جسدي على صخرة صديقة تمَّ نحتها على شكلي. وشعرت بالسلام أخيراً.

23 يوليو

أكتبُ هذا في مقهى ديل أرتيستا. آتي إلى هنا معظم الأيام الآن. أظلُّ أشعر بالحاجة إلى الخروج من المنزل. عندما أكون مع أشخاص آخرين حولي، حتى ولو كانت هناك فقط النادلة المَلُول،

أشعرُ بالارتباط بالعالم بطريقة ما، مثل كائن إنساني. وإلا فأنا في خطر التوقُّف عن الوجود. وكأنني ربما قد أختفي.

أحياناً أتمنّى أن أختفي - مثل هذه الليلة. دعا غابرييل أخاه لتناول العشاء. أخبرني بذلك فجأة هذا الصباح.

وقال: «لم نرَ ماكس منذ فترة طويلة. ليس منذ الحفل الترحيبي لجويل. سأقوم بالشواء». نظرَ غابرييل إلى وجهي بطريقة غريبة.

«أنتِ لا تمانعين، أليس كذلك؟».

«ولماذا سأمانع؟».

ضحك غابرييل. «أنت لست كذّابة جيّدة، هل تعلمين ذلك؟ يمكنني أن أقرأ وجهك ككتاب قصير جداً».

«وماذا يقول؟».

«أنك لا تحبين ماكس. لم تحبيه أبداً».

«هذا ليس صحيحاً». شعرت بوجهي يحمرّ، هززتُ كتفَي ونظرت بعيداً. قلت: «بالطبع أحب ماكس. سيكون لطيفاً أن نراه... متى ستجلس أمامي مرة أخرى؟ أنا بحاجة إلى إنهاء اللوحة».

ابتسمَ غابرييل. «ماذا عن نهاية هذا الأسبوع؟ في موضوع اللوحة - هل يمكن أن تقدّمي لي معروفاً. لا تظهري اللوحة لماكس، اتفقنا؟ لا أريده أن يراني كمسيح - لن أستطيع تحمّل هذا الإحراج أبداً».

قلت: «لن يراها ماكس. ليست جاهزة بعد».

وحتى لو كانت جاهزة، ماكس هو آخر شخص أريده في مرسَمي. فكرت في ذلك، لكنني لم أقله.

أشعر بالخوف من الذهاب إلى المنزل الآن. أريدُ أن أبقى هنا

في هذا المقهى المكيَّف، والاختباء حتى يغادر ماكس. لكن النادلة بدأت بالفعل تصدر بعض الضجيج للتعبير عن تذمّرها وتتحقّق من الساعة بطريقة ملحوظة. سأُطرد قريباً وهذا يعني، لعدم قدرتي على التجول في الشوارع طوال الليل مثل شخص مجنون، ألّا خيار أمامي سوى العودة إلى المنزل، ومواجهة الموسيقى. ومواجهة ماكس.

24 يوليو

عدت إلى المقهى. كان شخص ما يجلس على طاولتي، نظرَت إليّ النادلة نظرة متعاطِفة - على الأقل اعتقدت أن هذا هو ما كانت تعبِّر عنه تجاهي، شعور بالتضامُن، لكنني قد أكون مخطئة. أخذت طاولة أخرى، في مواجهة الداخل، وليس الخارج، بالقرب من المكيّف. ليس هناك الكثير من الضوء - والمكان بارد ومظلم - محيط يناسب مزاجي.

كانت الليلة الماضية فظيعة. أسوأ ممّا كنت أعتقد أنها ستكون. لم أعرف ماكس عندما وصل - لا أعتقد أنني رأيته من دون بذلة من قبل. بدا سخيفاً بعض الشيء في البنطال القصير. كان يتصبّبُ عرقاً بغزارة بعد السير من المحطة - كان رأسه الأصلع أحمر ولامعاً، وكانت البُقَع الداكِنة تنتشر من تحت الإبطَين. لم تلتقِ عينيه بعيني في البداية. أم كنت أنا التي لا تنظر إليه؟

أبدى اهتماماً كبيراً بالمنزل، قائلاً إنه بدا له مختلفاً وأنه مرَّ وقت طويل منذ دعوناه آخر مرة حتى أنه بدأ يعتقد أننا لن ندعوه مرة أخرى أبداً. ظلَّ غابرييل يعتذر له، مفسّراً له مدى انشغالنا، أنا بالاستعداد للمعرض القادم، وهو بعمله، وأننا لم نستقبل أي

ضيوف. كان غابرييل يبتسم لكن كان بإمكاني أن أعرف أنه شعرَ بالضيق من أن ماكس قد حوّل هذه النقطة إلى موضوع للنقاش.

حافظت على مظهر جيّد في البداية. كنتُ أنتظر اللحظة المناسبة. ثم وجدت ذلك. ذهب ماكس وغابرييل إلى الحديقة، وبدأ عملية الشواء. ذهبت إلى المطبخ بذريعة إعداد سلطة. كنت أعلم أن ماكس سيجدُ سبباً ما ليأتي ويلتحق بي. وكنت على حقّ. بعد حوالي خمس دقائق، سمعت وقع خطاه الثقيلة. لا يمشي مثل غابرييل على الإطلاق - غابرييل صامت جداً، إنه مثل قطة، لا أسمعه وهو يتحرّك في جميع أنحاء المنزل على الإطلاق.

«أليسيا»، قال ماكس.

أدركت أن يدَي كانتا ترتعشان أثناء تقطيع الطماطم. وضعت السكّين. استدرت لمواجهته.

كان ماكس يحملُ زجاجة بيرة فارغة وابتسم. ما زال لم ينظر إليّ. وقال: «لقد جئت من أجل بيرة أخرى».

أومأتُ. لم أقل شيئاً. فتحَ الثلّاجة وأخرج بيرة أخرى. بحثَ حوله عن الفتّاحة. أشرت إليها على المنضدة.

ابتسم ابتسامة غريبة عندما فتح الزجاجة، وكأنه كان سيقول شيئاً. لكنني سبقته إلى ذلك: «سأقول لغابرييل عمّا حدث. أعتقد أنه يجب أن يعرف».

توقّف ماكس عن الابتسام. نظرَ إليّ للمرة الأولى، بعينيَن تشبهان عينَي الأفعى. «ماذا؟».

«سأخبر غابرييل. حول ما حدث في منزل جويل».

«أنا لا أعرف ما الذي تتحدّثين عنه».

«أنت لا تعرف؟».

«أنا لا أتذكر. كنت في حالة سُكْر، أنا آسف».

«هراء».

«إنها حقيقة».

«أنت لا تتذكر تقبيلي؟ أنت لا تتذكر الإمساك بي؟».

«أليسيا، لا تفعلي ذلك».

«لا أفعل ماذا؟ أجعل منها قضية كبيرة؟ لقد اعتديت عليّ».

شعرت بأني بدأت أغضب. بذلتُ جُهداً للسيطرة على صوتي وعدم البدء بالصُّراخ. نظرتُ من النافذة. كان غابرييل في نهاية الحديقة، يراقبُ الشواء. حال الدخان والهواء الساخن من أن أراه بوضوح، وكان مُنحني القامة.

قلت له: «إنه يحترمك. أنت أخوه الأكبر. سوف يحسُّ بجرح عميق عندما أخبره».

«إذاً لا تفعلي ذلك. لا يوجد شيء نخبره به».

«إنه بحاجة إلى معرفة الحقيقة. يحتاج أن يعرف حقيقة أخيه. أنت——».

قبل أن أتمكّن من إنهاء كلامي، أمسك ماكس ذِراعي بقوّة، وسحبني نحوه. فقدت توازني وسقطت عليه. رفع قبضته واعتقدت أنه سيوجّه إليّ لكمة. «أنا أحبك»، قال لي، «أحبك، أحبك، أنا أحب——».

قبل أن أتمكّن من الردّ، قبّلني. حاولتُ الانسحاب لكنه لم يسمح لي بذلك. شعرت بشفتَيه الخشنتَين فوق شفتَي، ولسانه يشقُّ طريقه إلى فمي. سيطرَت الغريزة.

عضضت لسانه بأقصى ما أستطيع.

صرخَ ماكس ودفعني بعيداً عنه. عندما رفع رأسه، كان فمه مليئاً بالدم.

«تباً لك أيها العاهرة!» كان صوته مشوّهاً، وأسنانه حمراء. حملقَ فيّ غاضباً كحيوان جريح.

لا أستطيع أن أصدّق أن ماكس هو شقيق غابرييل. ليس لديه شيء من صفات غابرييل الجميلة، لا شيء من حشمته، لا شيء من لُطفه. يثير ماكس اشمئزازي - وقلتُ له ذلك.

«أليسيا، لا تقولي أي شيء لغابرييل»، قال. «أعني ذلك. أنا أحذّرك».

لم أقل كلمة أخرى. كنت أستطيع تذوّق دمه على لساني، لذلك قمتُ بتشغيل الصنبور وشطف فمي حتى خرج كل الدم. ثم خرجت إلى الحديقة.

من حين إلى آخر شعرتُ بأن ماكس يحدّق في وجهي على العشاء. كنتُ أرفع بصري وأنظر إلى عينَيه وكان ينظر بعيداً. لم آكل أي شيء.

جعلَتني فكرة الأكل مريضة. ظللتُ أتذوّق دمه في فمي.

لم أعرف ما يجب عليّ القيام به. أنا لا أريد أن أكذب على غابرييل. ولا أريد أن أُبقي الأمر سرّاً. لكن إذا أخبرتَ غابرييل، لن يتكلّم أبداً إلى ماكس مرة أخرى. ستدمّره معرفة أنه وضعَ ثقته في غير محلِّها عندما وثقَ في أخيه. إنه يثق بماكس، فهو يعتبره نموذجاً له. ولا يجب عليه فعل ذلك.

لا أعتقد أن ماكس يحبني. أعتقد أنه يكره غابرييل، هذا كل شيء. أعتقد أنه يحسده بجنون - يريد أن يأخذ كل ما يخصّ غابرييل، بما في ذلك أنا. لكنني الآن قاومته، لا أعتقد أنه سيزعجني مرة أخرى - على الأقل آمل ألّا يفعل ذلك. لن يفعل لبعض الوقت، على أي حال.

لذلك، في الوقت الحالي، سأبقى صامتة.

بالطبع، يمكن لغابرييل أن يقرأني ككتاب. أو ربما أنا لست ممثّلة جيّدة جداً. الليلة الماضية، ونحن نستعدُّ للنوم، قال إنني كنت غريبة طوال الوقت الذي كان فيه ماكس هنا.

«كنت متعَبة فقط».

«لا، لقد كان أكثر من ذلك. كنتِ بعيدة جداً. كان بإمكانك أن تبذلي جهداً أكثر. نحن بالكاد نراه. لا أعرف لماذا لديك مثل هذه المشكلة معه».

«لا. ليس للأمر علاقة بماكس. كنت مشتّتة الانتباه. كنت أفكّر في العمل. أنا متأخِّرة في الإعداد للمعرض - هذا كل ما يمكنني أن أفكّر به». قلتُ هذا بما أمكنني إظهاره من قناعة.

أعطاني غابرييل نظرة غير مُصدّقة لكنه لم يلحّ في السؤال، للحظة. سيكون عليّ أن أواجه الأمر مرة أخرى في المرة القادمة التي فيها سنرى ماكس - ولكنّ شيئاً ما يخبرني أنه لن يكون هناك لقاء لفترة من الوقت.

أشعرُ بتحسُّن لأنني كتبتُ هذا. أشعرُ بأمان أكثر، إلى حدٍّ ما، بتدوينه على الورق. هذا يعني أن لدي شهادة ما - بعض الأدلة.

إذا ما استدعى الأمر.

26 يوليو

إنه عيد ميلادي اليوم. عمري ثلاث وثلاثون سنة.

إنه أمر غريب - أشعر بأنني أكبر سنّاً من أي وقت مضى؛ لم أستطع أبداً أن أذهب بمخيّلتي أبعد من هذا السنّ. أعيشُ أكثر ممّا

عاشت والدتي الآن - إنه شعور غير مستقرّ، كوني أكبر سنّاً ممّا كانت عليه. عاشت حتى بلغت سنّ الاثنين والثلاثين، ثم توقّفت. الآن عشتُ أكثر منها، ولن أتوقّف. سوف أصبح أكبر وأكبر سنّاً - لكنها لن تفعل.

كان غابرييل حلواً جداً هذا الصباح - أيقظني بقُبلة، وقدّم لي ثلاثين وردة حمراء. كانت جميلة. وخزه أحد الأشواك. نقطة دم حمراء على شكل دمعة. كان منظراً مثالياً.

ثم أخذني لنزهة في المَرْج لتناول الإفطار. كانت الشمس بالكاد تشرق، لذلك كانت الحرارة لطيفة. كان هناك نسيم بارد ينبعث من الماء وفي الهواء رائحة العشب المقطّع. جلسنا بالقرب من البركة تحت شجرة الصفصاف على البطّانية الزرقاء التي اشتريناها من المكسيك. شكّلت فروع الصفصاف مظلّة فوقنا، وكانت الشمس تنفذ إلينا من خلال الأوراق. شربنا الشمبانيا وأكلنا الطماطم الصغيرة الحلوة مع سمك السلمون المدخّن وشرائح الخبز. في مكان ما، في الجزء الخلفي من ذهني، كان هناك شعور غامض بالأُلفَة؛ شعور مزعج من ديجافو لم أستطع تحديده. ربما كان مجرّد تذكّر لقصص الطفولة، قصص خيالية، وأشجار سحرية التي هي بوابات لعوالم أخرى. ربما كان شيئاً أكثر ابتذالاً. ثم عادت الذاكرة إليّ:

رأيتُ نفسي عندما كنت صغيرة جداً، أجلسُ تحت أغصان شجرة الصفصاف في حديقتنا في كامبريدج. كنت أقضي ساعات مختبئة هناك. ربما لم أكن طفلة سعيدة، ولكن خلال الوقت الذي كنت أقضيه تحت شجرة الصفصاف، شعرتُ برضى مماثل للرضى الذي أشعر به هنا وأنا في أحضان غابرييل. والآن، أشعرُ وكأن الماضي والحاضر يتواجدان في لحظة واحدة مثالية. أردت تلك

اللحظة أن تدوم للأبد. نامَ غابرييل، رسمته محاوِلة التقاط أشعّة الشمس المتفرِّقة في شكل بُقَع على وجهه. فعلتُ ذلك أفضل مع عينَيه هذه المرة. كان رسمهما أكثر سهولة لأنهما كانتا مغلقتَين - ولكن على الأقل حصلت على شكلهما الصحيح. كان يشبه الصبي الصغير، نائماً ملتفّاً على نفسه ويتنفّس بلطف، وفتات الخبز حول فمه.

انتهينا من النزهة، وذهبنا إلى البيت. حضنني غابرييل بين ذراعَيه، وقالَ لي شيئاً مذهلاً: «أليسيا، حبيبتي، اسمعي، هناك شيء في داخلي أريد أن أتحدّث معك بشأنه».

جعلتني الطريقة التي تحدّث بها أتوتر على الفور. استعددت، خوفاً من الأسوأ. «تابع حديثك».

«أريد أن يكون لنا طفل».

صمت للحظة قبل أن أردَّ. لقد فوجئت بذلك ولم أكن أعرف ما أقول. «لكن - لم تكن تريد أي أطفال. أنت الذي قلت ذلك——».

«انسي ذلك. لقد غيّرت رأيي. أريدُ أن يكون لدينا طفل سوية. حسناً؟ ما هو رأيك؟».

نظر غابرييل إليّ بأمل، وبتوقُّع، منتظِراً ردّي. شعرت بعينَي تمتلئان بالدموع. «نعم»، قلت، «نعم، نعم، نعم...».

عانقنا بعضنا البعض، بكينا وضحكنا.

إنه في السرير الآن، نائم. اضطررت للتسلُّل وكتابة كل شيء - أريد أن أتذكر هذا اليوم لبقية حياتي.

كل ثانية واحدة من ذلك.

أشعرُ بالبهجة. أشعرُ بالأمل.

14

ظللت أفكر في ما قاله ماكس بيرينسون - حول محاولة انتحار أليسيا، بعد وفاة والدها. لا يوجد ذكر لها في ملفّها، وتساءلتُ عن السبب.

هاتفتُ ماكس في اليوم التالي، وتمكّنت من مكالمته عندما كان على وشك مغادرة المكتب.

«أريد فقط أن أطرح عليك المزيد من الأسئلة إذا لم يكن لديك أي اعتراض».

«أنا على وشك مغادرة المكتب».

«لن يستغرق هذا الأمر وقتاً طويلاً».

تنهّد ماكس، أبعد سماعة الهاتف ليقول شيئاً غير واضح لتانيا.

قال: «خمس دقائق. هذا كل ما تحصل عليه».

«شكراً، أنا أقدّر ذلك. لقد ذكرتَ محاولة انتحار أليسيا. كنتُ أتساءل عن المستشفى الذي عالجها؟».

«لم يتم إدخالها إلى المستشفى».

«لم تدخل؟».

«لا. تعافت في المنزل. اعتنى أخي بها».

«لكن - بالتأكيد زارها طبيب؟ كانت جُرعة زائدة، هل هذا ما قلته لي؟».

«نعم فعلاً. وبالطبع استدعى غابرييل طبيباً. وهو... الطبيب - وافق على الحفاظ على الأمر سرّاً».

«من كان الطبيب؟ هل تتذكر اسمه؟».

كان هناك توقُّف لأن ماكس فكّرَ للحظة.

«أنا آسف، لا يمكنني إخبارك... لا أستطيع التذكر».

«هل كان طبيبها العام؟».

«لا، أنا متأكد من أنه لم يكن كذلك. كنت أنا وأخي نزور الطبيب نفسه. أتذكر أن غابرييل طلب مني عدم ذكر ذلك له».

«وأنت متأكّد أنك لا تستطيع تذكر الاسم؟».

«أنا آسف. هل هذا كل شيء؟ يجب عليّ أن أذهب».

«شيء آخر فقط. كنت أريد أن أعرف مضمون وصية غابرييل».

تنفّس ماكس كمّية صغيرة من الهواء، واحتدّت نبرة كلامه على الفور.

«وصيته؟ أنا حقاً لا أرى أهمية لذلك في الموضوع -».

«هل كانت أليسيا المستفيد الرئيس؟».

«يجب أن أقول، أجدُ ذلك بالأحرى سؤالاً غريباً».

«حسناً، أحاول أن أفهم——».

«تفهم ماذا؟» تابعَ ماكس كلامه دون انتظار الجواب، وكان يبدو منزعِجاً. «كنتُ المستفيد الرئيس. ورثَت أليسيا قدراً كبيراً من المال من والدها، لذلك شعرَ غابرييل أنه يمكنها العيش بشكلٍ جيّد. وهكذا ترك الجزء الأكبر من ممتلكاته لي. بالطبع لم يكن لديه أي

فكرة أن تصبح ممتلكاته بهذه القيمة الكبيرة بعد وفاته. هل هذا كل شيء؟».

«وماذا عن وصية أليسيا؟ عندما تموت، من سيرثها؟».

«هذا»، قال ماكس بحزم، «أكثر ممّا أستطيع أن أخبرك به. وأتمنى بصدق أن تكون هذه محادثتنا الأخيرة».

كانت هناك نقرة عندما أنهى المكالمة. لكنّ شيئاً في نبرة صوته أخبرني أن هذا لن يكون آخر ما سأتلقّى من ماكس بيرينسون.

لم يكن عليّ الانتظار طويلاً.

اتصل بي ديوميديس ليطلب مني القدوم إلى مكتبه بعد الغداء. رفعَ رأسه عندما دخلت ولكنه لم يبتسم.

«ما هي مشكلتك؟».

«أي مشكلة؟».

«لا تتظاهر بالغباء. أنت تعرف من اتصل بي هذا الصباح؟ ماكس بيرينسون. يقول إنك اتصلت به مرّتَين، وسألت الكثير من الأسئلة الشخصية».

«لقد طلبت منه بعض المعلومات عن أليسيا. لم يبدِ أي اعتراض».

«حسناً، له اعتراض الآن. يصفُها بأنها مضايقة».

«أووه، لا تقل ذلك -».

«آخر شيء نحتاج إليه هو محامٍ يثير ضجّة. كل شيء يجب أن يكون داخل حدود القسم، وتحت إشرافي. هل تفهم ذلك؟».

كنت غاضباً، لكنني أومأت موافقاً. حدّقت في الأرض مثل

مراهق متجهّم. كان ردّ ديوميديس مناسِباً، أعطاني ضربة أبوية خفيفة على الكتف.

«ثيو. اسمح لي أن أقدّم لك بعض النصائح. أنت تسير في الطريق الخطأ. أنت تسأل أسئلة، وتبحث عن أدلة، وكأنها قصة بوليسية». ضحك، وهزّ رأسه. «لن تحصل على شيء بهذه الطريقة».

«أحصل على ماذا؟».

«الحقيقه. تذكّر بيون: «لا ذاكرة، لا رغبة». لا يوجد برنامج محدَّد - كمعالِج، هدفك الوحيد هو أن تكون حاضراً وتستجيب لمشاعرك وأنت تجلس معها. هذا كل ما تحتاج أن تفعله. الباقي سيعتني بنفسه».

«أعرفُ ذلك»، قلت. «أنت على حقّ».

«نعم أنا على حقّ. ولا تدعني أسمع أنك قمت بالمزيد من الزيارات لأقرباء أليسيا، مفهوم؟».

«أعدك».

15

بعد ظهر ذلك اليوم، ذهبت إلى كامبريدج لزيارة ابن عمّة أليسيا، بول روز.

عندما اقترب القطار من المحطّة، انبسطت الأرض وسمحت الحقول بفسحة من الضوء الأزرق البارِد. شعرتُ بالسعادة للخروج من لندن - كانت السماء أقل خنقاً واستطعت التنفُّس بسهولة أكبر.

غادرتُ القطار مع عدد قليل من الطلّاب والسائحين، واستخدمت الخريطة على هاتفي لتوجيهي. كانت الشوارع هادئة. كنت أسمع صدى خطواتي على الرصيف. بشكلٍ مفاجئ توقّف الطريق. كانت هناك أرض خراب أمامي، أرض موحِلة وعشب يؤدّي إلى النهر.

فقط منزل واحد وقفَ بمفرده بجانب النهر، معانداً وفارضاً وجوده، مثل طوب أحمر كبير انغرز في الوحل. لقد كان منزلاً قبيحاً، وحشاً فيكتورياً. كانت الجدران مغطّاة باللَّبلاب، والحديقة مغطّاة بالكامل بالنباتات والأعشاب الضارّة في الغالب. كان لدي شعور بأن الطبيعة تجاوزت الحدود، واسترجعَت الأراضي التي كانت ذات مرة ملكها. كان هذا هو المنزل حيث ولدت أليسيا. كان

المكان الذي قضت فيه الثمانية عشر عاماً الأولى من حياتها. تمَّ تشكيل شخصيتها وسطَ هذه الجدران: جذور حياتها الراشدة، وكل الأسباب والخيارات اللاحقة، دُفنت هنا. في بعض الأحيان يكون من الصعب فهم السبب الذي يجعل الإجابات عن أسئلة الحاضر تكمن في الماضي. قد تكون المقارنة البسيطة مُفيدة: قالت لي طبيبة نفسية رائدة في مجال الاعتداء الجنسي أنها لم تلتقِ، خلال ثلاثين عاماً من العمل المكثّف مع مغتصبي الأطفال، بشخص لم يكن قد أسيئت معاملته جنسياً عندما كان طفلاً. هذا لا يعني أن جميع الأطفال المعتدى عليهم يصبحون ممارسين لمثل هذه الانتهاكات الجنسية؛ لكن يستحيل أن يصبح شخص لم يتعرض للاعتداء الجنسي كطفلٍ ممارِساً لهذا النوع من الاعتداء. لا أحد يولد شريراً. وكما عبّر عن ذلك وينيكوت: «لا يستطيع الطفل أن يكره الأم، دون أن تكون الأم قد كرهته أولاً». نحن كأطفال اسفنج بريء، ألواح فارغة - نسعى فقط إلى تحقيق الاحتياجات الأساسية الآنية: تناول الطعام، إخراج الغائط، الحبّ وأن نكون محبوبين. لكنّ شيئاً ما خطأ يحدث، حسب الظروف التي نولدُ فيها، والبيت الذي نكبرُ فيه. لا يستطيع الطفل المعذّب أن ينتقمَ في الحقيقة، لأنه لا حول له ولا قوة، لكنه يستطيع - ويجب عليه - أن يحتفظ بتخيُّلات انتقامية في مخيّلته. الغضب، مثل الخوف، هو ردّ فعل في طبيعته. حدث شيء سيّئ لأليسيا، ربما في وقت مبكّر من طفولتها، أثار دوافع القتل التي ظهرت في كل تلك السنوات اللاحِقة. مهما كان الاستفزاز، لن يستطيع كل الناس في هذا العالم أن يلتقطوا مسدّساً ويطلقوا النار في وجه غابرييل من تلك المسافة القصيرة جداً - في الواقع، لا يستطيع معظَم الناس فعل ذلك. يدلُّ قيام أليسيا بذلك على شيء مزعِج في

عالمها الداخلي. لهذا كان من المهم بالنسبة إليّ أن أفهم نوعية الحياة التي عاشتها في هذا البيت. لمعرفة ما الذي شكّلها بتلك الطريقة، وجعلها الشخص الذي أصبحته - شخص قادر على القتل.

تجوّلتُ أكثر في تلك الحديقة المفرِطة في النمو، بين الحشائش والزهور البرّية المتمايلة، ومشيت على طول جانب المنزل. في الخلف كانت هناك شجرة صفصاف كبيرة - شجرة جميلة، مهيبة، مع فروع عارية طويلة متدلّية نحو أرض. تخيّلتُ أليسيا كطفلة تلعبُ حولها وفي العالم السرّي والسحري تحت فروعها. ابتسمت.

ثم شعرت بعدم الارتياح فجأة. شعرتُ بأن شخصاً ما كان يراقبني. نظرتُ إلى المنزل. كان هناك وجه في نافذة بالطابق العلوي. وجه قبيح، وجه امرأة عجوز، مضغوط على الزجاج - يحدّق فيّ مباشَرة. شعرتُ بقشعريرة خوف غريبة وغير مفهومة.

لم أسمع خطى ورائي إلّا بعد فوات الأوان. كانت هناك فرقعة - ضربة قوية - وخز من الألم في الجزء الخلفي من رأسي.

أصبح العالم مظلِماً من حولي.

16

استيقظت على أرض باردة وصلبة، مستلقياً على ظهري. كان إحساسي الأول هو الألم. كان رأسي ينبضُ ألماً، وكأن جمجمتي كانت قد فتحت بفعل الضربة. تلمّستُ مكان الضربة خلف رأسي بحذرٍ شديد.

«لا يوجد أي دم»، قال صوت. «لكن سيكون لديك كدمة سيّئة غداً ناهيك عن رأس مصدوع».

نظرت إلى الأعلى ورأيت بول روز للمرّة الأولى. كان يقفُ فوقي، يحمل عصا البيسبول. كان سنّه يقارب سنّي ولكنه كان أطول، وكان يبدو عريضاً وهو يحملها. كان لديه وجه طفولي وشعر أحمر، لون شعر أليسيا نفسه. كانت رائحة الويسكي تنبعثُ منه.

حاولت الجلوس ولكنني لم أستطع تماماً.

«من الأفضل لك البقاء هناك. لتستريح لثانية».

«أعتقد أنني مُصاب بارتجاج في المخّ».

«ربما».

«ما الذي جعلك تفعل هذا؟».

«ماذا تتوقّع، يا صاح؟ اعتقدت أنك كنت لِصّاً».

«حسناً، أنا لست لِصّاً».

«أنا أعرف ذلك الآن. فتّشت محفظتك. أنت معالِج نفسي».

أدخلَ يدَيه في جيبه الخلفي وسحبَ محفظتي.

ألقى بها في وجهي. نزلت فوق صدري. أخذتها.

وقال: «رأيت بطاقة هويتك. أنت تشتغل في هذه المصحّة - ذا غروف».

أومأتُ وجعلَت الحركة رأسي يحسُّ بوخز مؤلِم. «نعم فعلاً».

«إذاً أنت تعرف من أكون».

«ابن عمة أليسيا؟».

«بول روز». مدَّ يده. «خذ يدي. دعني أساعدك على الوقوف». سحبني لأقف على قدمي بسهولة مذهلة. كان قوياً. كنت غير مستقرّ على قدمَي. «كان يمكن أن تقتلني»، تمتمتُ.

هزَّ بول كتفَيه. «كان من الممكن أن تكون مسلّحاً. كنت تعتدي على ممتلكات الغير. ماذا توقعت؟ لماذا أنت هنا؟».

«جئتُ لرؤيتك». انقبضَ وجهي من الألم. «أتمنّى لو أنني لم أفعل».

«ادخل، اجلس لبعض الوقت».

كنتُ أشعرُ بألم قوي جداً لفعل أي شيء آخر غير الذهاب إلى حيث قادني. كان رأسي ينبض ألماً مع كل خطوة. دخلنا من خلال الباب الخلفي.

كان داخلُ المنزل متهالِكاً كما في الخارج. كانت جدران المطبخ مغطّاة بتصميم هندسي برتقالي بدا أنه وُضع هناك لأكثر من أربعين سنة. كانت قطع من ورق الجدران قد انفصلَت عن الجدار. ملفوفة، وملتوية، ومسودّة كما لو كانت محترقة. كانت الحشرات

المحنّطة معلّقة في أنسجة العنكبوت في زوايا السقف. كان الغبار سميكاً جداً على الأرض، بدا مثل سَجّادة قذرة. وجعلتني رائحة بول القط المنبعثة منها أشعر بالغثيان. عددت ما لا يقلّ عن خمس قطط حول المطبخ، نائمة على الكراسي أو على الأرض، كانت هناك أكياس بلاستيكية مفتوحة خرجت منها علب نَتْنة من طعام القطط.

قال: «اجلس. سأعدُّ بعض الشاي».

وضعَ بول عصا البيسبول على الجدار، بالقرب من الباب. أبقيتُ عينَي عليها. لم أشعر بالأمان في ذلك المكان.

سلّمني بول فنجاناً متشقّقاً مليئاً بالشاي. «اشرب هذا»، قالَ لي.

«هل لديك أي مسكّنات؟».

«لدي بعض الأسبرين في مكان ما، سألقي نظرة. هنا –» التقط زجاجة من الويسكي. «ستكون هذه مساعِدة».

سكبَ بعض الويسكي في الفنجان. ارتشفتُ ذلك. كان ساخناً، حلواً وقوياً. كان هناك توقف عندما كان بول يشرب الشاي، ويحدّق في وجهي - تذكّرت أليسيا ونظراتها الثاقبة.

«كيف هي؟» سألَ أخيراً. وتابعَ قبل أن أتمكن من الردّ. «لم أذهب لرؤيتها. ليس من السهل الابتعاد عن المنزل... أمي ليست بخير - ولا أحبُّ أن أتركها لوحدها».

«أفهم ذلك. متى كانت آخر مرة رأيت فيها أليسيا؟».

«أوه، سنوات. لفترة طويلة. فقدنا الاتصال. حضرت زفافهما، ورأيتها بضع مرات بعد ذلك، ولكن... كان غابرييل شخصاً تملُّكياً تماماً، على ما أعتقد. توقفَت عن الاتصال بمجرد الزواج. توقفَت عن الزيارة. شعرَت أمي بجرح عميق، بكلّ صراحة».

لم أتكلّم. لم أستطع أن أفكر، مع النبض المؤلم في رأسي. شعرتُ به يراقبني.

سألني: «لماذا كنت تريد أن تراني؟».

«فقط بعض الأسئلة... أردت أن أسألك عن أليسيا. حول... طفولتها».

أومأ بول وصبَّ بعض الويسكي في كوزه. كان يبدو أنه استرخى الآن. كان للويسكي تأثير علي أنا أيضاً، خفّف عني الألم، وكنت أفكّر بشكلٍ أفضل.

قلتُ لنفسي، تابع المسار. احصل على بعض الحقائق. ثم غادر هذا المكان اللعين بسرعة.

«نشأتما معاً؟».

أومأ بول. «انتقلت أنا وأمي إلى هنا عندما مات والدي. كان عمري حوالي ثمانية أو تسعة أعوام. أعتقدُ أنه كان من المفترض أن يكون مقامنا مؤقّتاً - ولكن أم أليسيا قُتلت في حادث... لذا بقيَت أمي - لرعاية أليسيا والعمّ فيرنون».

«فيرنون روز - والد أليسيا؟».

«صحيح».

«وتوفي فيرنون هنا قبل بضع سنوات؟».

«نعم فعلاً. قبل عدة سنوات». قطّب حاجبَيه وقال: «قتل نفسه. شنقَ نفسه. هنا في الطابق العلوي، في العُليّة. أنا الذي وجدت الجثة».

«من الأكيد أنه كان أمراً فظيعاً».

«نعم، كان الأمر صعباً - على أليسيا في الغالب. بالمناسبة وفي موضوع هذا الحادث، أتذكر أن هذه هي آخر مرة رأيتها فيها.

جنازة العمّ فيرنون. كانت تشعر بحزن كبير». وقف بول، «هل تريد شراباً آخر؟».

حاولتُ الرفض، لكنه استمرّ في الحديث بينما كان يصبُّ الويسكي. «لم أصدّق ذلك قط، أنها قتلت غابرييل - لم يكن ذلك منطقياً بالنسبة إليّ».

«لمَ لا؟».

«حسناً، لم تكن كذلك على الإطلاق. لم تكن شخصاً عنيفاً».

هي عنيفة الآن، فكرت بذلك. لكنني لم أقل أي شيء. رشفَ بول من الويسكي. «أما زالت لا تتحدث؟».

«نعم. إنها ما زالت لا تتحدث».

«هذا غير منطقي. لا شيء يبدو كذلك. أنت تعرف، أعتقد أنها كانت——».

قطع حديثنا صوت ضرب وضجيج على الأرض في الأعلى. كان هناك صوتاً مكتوماً، صوت امرأة. كان كلامها غير مفهوم.

قفزَ بول على قدميه. «استأذنك للحظة»، قال ومضى. سارعَ إلى سفح الدرج. رفع صوته. «كل شيء على ما يرام، أمي؟».

وجاء جواب مغمِغم لم أستطع فهمه من الطابق العلوي.

«ماذا؟ آه حسناً. فقط - دقيقة واحدة فقط». بدا مضطرباً.

نظر إليّ بول عبر الممرّ، وهو مقطّب. أومأ إليّ.

«إنها تريدك أن تصعد».

17

وقفت بثبات على قدمَي، لكنني كنت ما زلت أشعر بالضعف.

تبعت بول وهو يخبط بقدميه على الدرج المترَب.

كانت ليديا روز تنتظرُ في أعلى الدرج. تعرّفتُ إلى وجهها الغاضب من النافذة. كان شعرها أبيض طويلاً، يتمدّد عبر كتفيها مثل شبكة العنكبوت. كانت ضخمة جداً - رقبة منتفِخة، وساعدان سمينان، وساقان ضخمتان مثل جذوع الأشجار. كانت تتكئ بشدّة على العكاز، الذي كان معوجّاً تحت وطأ وزنها وبدا وكأنه قد يتكسّر في أي لحظة.

«من هو؟ من هو؟».

وجّهت سؤالها بنبرة عالية إلى بول، على الرغم من أنها كانت تنظر إليّ. لم ترفع عينيها عني. مرة أخرى تلك النظرة الثاقبة نفسها التي تعرّفتُ إليها من أليسيا.

تكلّم بول بصوت منخفض. «ماما. لا تنزعجي إنه معالِج أليسيا. هذا كل شيء. من المصحّة. إنه هنا للتحدث معي».

«أنت؟ لماذا يريد التحدث معك؟ ماذا فعلت؟».

«إنه يريد فقط معرفة بعض المعلومات عن أليسيا».

«إنه صحافي، أنت أيه الأبله السخيف». صرخَت بقوة. «أخرجه!».

«إنه ليس صحافياً. لقد رأيت هويته، حسناً؟ هيا، أمي من فضلك. دعيني أعيدك إلى السرير».

كانت متذمِّرة لكنها سمحت له بأن يقودها إلى غرفة النوم. أومأ بول إليّ أن أتبعه.

سقطت ليديا محدِثة صوتاً عميقاً. ارتعشَ السرير وهو يمتصُّ وزنها. قامَ بول بتعديل الوسائد. كانت قطة مسنّة نائمة بالقرب من قدميها. كانت أبشع قطة رأيتها على الإطلاق - كأنها خارجة للتوّ من معركة، ندوب وبُقع صلع في بعض الأماكن وأذن واحدة قُضِمت. كانت تدمدم في نومها.

نظرتُ حول الغرفة. كانت مليئة بالقمامة: رُكام من المجلّات القديمة وصُحف مصفرّة، وأكوام من الملابس القديمة. كانت هناك قنينة أكسجين قرب الجدار، وعلبة حلويات مليئة بالأدوية على طاولة السرير.

استطعت أن أشعر بعينَي ليديا العدوانيتَين تراقباني طوال الوقت. كان هناك جنون في نظرتها. كنت متأكّداً تماماً من ذلك.

«ماذا يريد؟» تساءلَت، واندفعت عيناها إلى أعلى وإلى أسفل بشكلٍ محموم وهي تتفحّصني. «من هو؟».

«لقد أخبرتك للتوّ، أمي. يريد أن يعرف بعض المعلومات العائلية عن أليسيا، لكي تساعده على علاجها. إنه معالجها النفسي».

لم تترك ليديا أي شكّ حول رأيها في الأطباء النفسيين. أدارت رأسها، واستجمعت شيئاً في حلقها - وبصقت على الأرض أمامي.

تأوّه بول. «أمي، من فضلك——».

«اخرس». نظرت ليديا بغضب إلى وجهي. «لا تستحق أليسيا أن تكون في مستشفى».

«لا؟»، قلتُ. «أين يجب أن تكون؟».

«أين تظن؟ السجن». نظرَت ليديا إليّ بازدراء. «تريد أن تسمع عن أليسيا؟ سأخبرك عنها. إنها مومس. كانت دائماً كذلك، حتى عندما كانت طفلة».

استمعتُ، وشعرت برأسي ينبض ألماً. أكملَت ليديا حديثها، مع تصاعد في نبرة الغضب: «أخي المسكين، فيرنون. لم يتعافَ أبداً من وفاة إيفا. اعتنيتُ به. واعتنيتُ بأليسيا. وهل كانت ممتنّة؟».

كان من الواضح أن أي ردّ لم يكن مطلوباً. ولم تكن ليديا تنتظر أي ردّ.

«هل تعرف كيف ردّت لي أليسيا الجميل؟ كلّ لُطفي تجاهها؟ هل تعرف ماذا فعلت بي؟».

«أمي، من فضلك——».

«اسكت، بول!» دارت ليديا نحوي. تفاجأتُ بقوة الغضب الذي كان في صوتها. «**العاهرة رسمتني**. رسمتني، دون علمي أو إذن مني. ذهبتُ إلى معرضها – وكانت معلَّقة هناك. حقيرة، مثيرة للاشمئزاز – سخرية فاحشة».

كانت ليديا ترتجفُ من الغضب، وبدا بول قلِقاً.

نظر إليّ نظرة غير سعيدة.

«ربما يكون من الأفضل أن تذهب الآن، يا صاح. ليس جيّداً لأمي أن تنزعج».

أومأتُ. لم تكن ليديا روز شخصاً جيّداً، ولم يكن هناك شك في ذلك. شعرت أكثر من سعيد بالهروب.

غادرتُ المنزل وعدت إلى محطة القطار، برأسٍ منتفخ وصداع. يا لها من مضيعة سخيفة للوقت. لم أكتشف شيئاً - سوى أنه كان واضحاً لي لماذا خرجت أليسيا من هذا البيت في أقرب وقت ممكن. ذكّرني هذا بخروجي من المنزل في سنّ الثامنة عشرة، فارّاً من والدي. كان من الواضح جداً مَن الذي كانت أليسيا تهرب منه - ليديا روز.

فكرت في اللوحة التي رسمتها أليسيا لليديا. سخرية فاحشة، كما سمّتها. حسناً، حان الوقت لزيارة معرض أليسيا، ومعرفة لماذا أزعجت الصورة عمّتها كثيراً.

عندما غادرت كامبريدج، كانت أفكاري الأخيرة حول بول. شعرت بالأسف نحوه، لعيشه مع تلك المرأة المتوحّشة لكونه عبدها غير مدفوع الأجر. كانت حياته منعزلة - لم أكن أتخيّل أن له العديد من الأصدقاء. أو حبيبة. في الواقع، لن أفاجأ إذا كان لا يزال بَتولاً بعد. كان هناك شيء أوقف نموه، على الرغم من حجمه. شيء ما أحبطَ ما بداخله.

شعرت بكراهية فورية وعنيفة تجاه ليديا - على الأرجح لأنها ذكّرتني بوالدي. كان سينتهى بي الأمر مثل بول لو بقيت في ذلك البيت، لو كنت بقيت مع أبوَي في سُري، تحت رحمة مجنون.

شعرت بالاكتئاب طوال الطريق إلى لندن. حزين، متعَب، وعلى وشك البكاء. لم أتمكّن من معرفة ما إذا كنت أشعر بحزن بول - أو بحزني الخاص.

18

كانت كاثي خارج المنزل عندما وصلت.

فتحتُ جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها وحاولت الوصول إلى بريدها الإلكتروني - ولكن لم يسعفني الحظ. كانت قد أقفلته.

كان عليّ قبول احتمال أنها لن تكرّر أبداً الخطأ نفسه.

هل سأظلُّ أردِّد الكلام المملّ نفسه، وأستسلم للهوس، الذي يقودني إلى الجنون؟ كان لدي ما يكفي من الوعي الذاتي لأعرف الصورة النمطية التي أصبحتُ أمثّلها - الزوج الغيّور - كما أن سخرية تمثيل كاثي حالياً لدور ديدمونة في مسرحية **عطيل** كانت حاضرة في ذهني.

كان يجب أن أحوّل رسائل البريد الإلكتروني إلى حسابي في الليلة الأولى، بمجرّد قراءتها. وبالتالي كانت ستكون لدي بعض الأدلّة الفعلية والملموسة. كان هذا خطأي. والحالة هذه، بدأت أتساءلُ عمّا رأيته في المرة الأولى. هل يجب أن أثق بتذكراتي؟ لقد كنت مخدَّراً، على أي حال - هل أسأت فهم ما قرأت؟ وجدت نفسي أجرّب نظريات غريبة لإثبات براءة كاثي. ربما كان ذلك مجرّد تمرين للتمثيل - كانت تكتبُ عن الشخصية، وتحضِّر لمسرحية

عطيل. كانت قد أمضت ستة أسابيع في التحدُّث إليّ بلهجة محلية أميركية عندما كانت تحضّر دورها في مسرحية **كلهم أبنائي**. كان من الممكن أن شيئاً مماثلاً يحدثُ هنا. باستثناء أن رسائل البريد الإلكتروني وُقّعت من قبل كاثي - وليس ديدمونة.

تمنّيت لو أنني كنت قد تخيّلت كل شيء - وبالتالي كان يمكنني أن أنسى ذلك، بالطريقة نفسها التي ننسى بها حُلماً - يمكنني أن أستيقظ وسيتلاشى كل شيء. بدلاً من ذلك كنت محاصَراً في كابوس عدم الثقة والشكّ وجنون الارتياب هذا الذي لا نهاية له. رغم أنه على مستوى الظاهر، لم يتغيّر إلّا القليل. ما زلنا نخرجُ معاً في نزهة يوم الأحد. كنا نشبه كلَّ زوجَين يسيران في الحديقة. ربما كانت لحظات صمتنا أطول من المعتاد، لكنها بدت مريحة بما فيه الكفاية. في لحظات الصمت، ورغم ذلك، كانت محادثة محمومة من جانب واحد تحدث في ذهني. لقد طرحت مليون سؤال. لماذا فعلَت ذلك؟ كيف يمكن لها أن تفعله؟ لماذا تقول إنها تحبّني، وتتزوّجني، وتضاجعني، وتشاركني سريري - ثم تكذب في وجهي، وتستمرّ في الكذب، سنة بعد سنة؟ منذ متى كان يحدث هذا؟ هل هي تحب هذا الرجل؟ هل كانت ستتركني من أجله؟

فتّشتُ هاتفها عدة مرات عندما تكون في الحمّام، لأبحث عن الرسائل النصية، ولكني لم أعثر على أي شيء. إذا كانت قد تلقت أي نصوص تجرّمها، فقد تكون حذفتها. هي ليست غبية، على ما يبدو؛ بل مجرّد لا مبالية في بعض الأحيان.

كان من الممكن أن لا أعرف أبداً الحقيقة، وأن لا أكتشف أبداً ما حدث.

بطريقة ما، كنتُ آمل أنني لم أفعل ذلك.

نظرت كاثي إليّ بينما كنا نجلس على الأريكة بعد المشي.

«هل أنت بخير؟».

«ماذا تعنين؟».

«لا أدري، لا أعرف. تبدو فاتراً بعض الشيء».

«اليوم؟».

«ليس فقط اليوم. مؤخّراً».

تهرّبتُ من النظر إلى عينَيها. «مجرد انشغال بالعمل. ذهني مشغول جداً».

أومأَت كاثي. ضغط متعاطِف على يدي. كانت ممثّلة جيّدة. كنت سأصدّق تقريباً أنها تهتم.

سألتُ: «كيف تسير البروفات؟».

«أفضل. اقترح توني بعض الأفكار الجيّدة. سوف نبقى في العمل إلى وقت متأخِّر في الأسبوع المقبل للتدرّب عليها».

«لا بأس».

لم أعد أصدّق أي كلمة قالتها. قمت بتحليل كل جملة، بالطريقة نفسها التي أتعامل بها مع مريض. كنت أبحث عن نصٍّ خفي، أقرأ بين السطور بحثاً عن قرائن غير لفظية - عن التغيُّرات الدقيقة في النبرات الصوتية، عن المراوغات وعن الحذف، عن الأكاذيب.

سألتُ: «كيف هو توني؟».

قالت: «بخير»، مع هزّة كتف، كأنها تريد أن تبيّن لي أنها لا تهتم بالموضوع. لم أصدّق ذلك. أُعجبَت بتوني، مديرها، وكانت دائماً تتحدّث عنه - على الأقل كانت معتادة على ذلك، لم تتحدّث عنه كثيراً جداً مؤخّراً. كانا يتحدّثان عن المسرحيات وعن التمثيل

والمسرح - عالم يتجاوز معرفتي. سمعت الكثير عن توني. لكني رأيته فقط مرة واحدة، ولوقت وجيز، عندما ذهبتُ لمقابلة كاثي بعد البروفة. أعتقدُ أنه غريب أن لا تقدمنا كاثي لبعضنا البعض. كان متزوّجاً، وكانت زوجته ممثّلة؛ شعرتُ أن كاثي لم تكن تحبها كثيراً. ربما كانت زوجته تغارُ من علاقتهما، كما كنت أفعل. اقترحت أن نلتقي نحن الأربعة خارج البيت لتناول العشاء لكن كاثي لم تكن متحمِّسة للفكرة. كنت في بعض الأحيان أتساءل ما إذا كانت تحاول إبقاءنا بعيدَين عن بعضنا البعض.

شاهدت كاثي تفتح جهاز الكمبيوتر المحمول. أبعدت شاشة الكمبيوتر عني عندما كانت تكتب. كنت أسمع نقر أصابعها. إلى من كانت تكتب؟ توني؟

«ماذا تفعلين؟» سألتُ، وأنا أتثاءب.

«أرسل فقط بريداً إلكترونياً إلى ابنة عمتي... إنها في سيدني الآن».

«حقاً؟ بلّغيها سلامي».

«سأفعل».

كتبت كاثي لوقت أطول، ثم توقّفت عن الكتابة ووضعت الكمبيوتر المحمول. «سآخذ حمّاماً».

أومأتُ، «حسناً».

أعطتني نظرة مرِحة. «ابتهج، حبيبي. هل أنت واثق أنك بخير؟».

ابتسمتُ وأومأتُ. وقفَت وخرجَت. انتظرت حتى سمعت صوت باب الحمّام يُقفل، وصوت الماء يتدفّق. انزلقت إلى المكان الذي كانت تجلس فيه. وأخذتُ الحاسوب المحمول. كانت

أصابعي ترتجف عندما فتحته. أعدت فتح محرّك البحث - وذهبت إلى صفحة تسجيل الدخول إلى البريد الإلكتروني الخاص بها.

لكنها كانت قد سجّلت مغادرتها للحساب.

دفعت الكمبيوتر المحمول باشمئزاز. فكرت أنه يجب أن يتوقف هذا في وقت ما. هذا هو الطريق إلى الجنون. أو إنني مجنون فعلاً؟

كنتُ قد دخلت إلى السرير، وسحبت الأغطية، عندما دخلت كاثي غرفة النوم وهي تنظّف أسنانها.

«نسيت أن أخبرك. ستعود نيكول إلى لندن الأسبوع المقبل».

«نيكول؟».

«تتذكّر نيكول. ذهبنا إلى حفلة توديعها».

«آه أجل. اعتقدت أنها انتقلت إلى نيويورك».

«بالفعل انتقلت هناك. والآن ستعود». توقُّف. «إنها تريد مني أن ألتقي بها يوم الخميس. . . ليلة الخميس بعد البروفة».

لا أعرف ما أثار شكوكي. هل كانت الطريقة التي نظرت بها كاثي في اتجاهي لكن دون أي اتصال بالعين؟ شعرت أنها تكذب. لم أقل شيئاً وهي لم تقل أي شيء أيضاً. اختفت من الباب. كنت أسمعُها في الحمّام تبصقُ معجون الأسنان وتشطف فمَها.

ربما لم يكن هناك أي شيء مريب في الأمر. ربما كانت كاثي بريئة تماماً، وكانت فعلاً ستقابل نيكول يوم الخميس.

ربما.

هناك فقط طريقة واحدة لمعرفة ذلك.

19

لم تكن هناك طوابير خارج معرض أليسيا هذه المرة، كما كانت هناك في ذلك اليوم، منذ ست سنوات، عندما ذهبت لرؤية **ألسيستيس**. كانت هناك لوحات فنان مختلف في النافذة الآن - وعلى الرغم من موهبته الممكنة، إلا أنه كان يفتقر إلى سمعة أليسيا وإلى قدرتها اللاحقة على جذب الحشود.

عندما دخلت المعرض، شعرتُ برعشة؛ كان المعرض أكثر برودة من الشارع. كان هناك شيء بارد في الجوّ وكذلك درجة الحرارة. كانت رائحة الدعّامات الفولاذية المكشوفة والأرضية الخرسانية العارية تعمُّ المكان. أحسست أنه كان مكان بلا روح. فارغ.

كان المسؤول عن المعرض جالساً وراء مكتبه. وقفَ عندما اقتربتُ.

كان جان-فيليكس مارتن في أوائل الأربعينيات من عمره، رجل وسيم بعينَين سوداوين وشعر أسود، وقميص ضيّق عليه رسم لجمجمة حمراء. قدّمت له نفسي وأخبرته عن سبب قدومي إلى المعرض. لدهشتي، بدا سعيداً تماماً للحديث عن أليسيا. تحدّث معي بلكنة. سألته إن كان فرنسياً.

«في الأصل - أنا من باريس. لكنني مكثت هنا منذ كنت طالباً - عشرون عاماً على الأقل. أفكّر في نفسي أكثر كبريطاني هذه الأيام». ابتسمَ وأشار إلى غرفة خلفية.

«تعال، يمكننا شرب بعض القهوة».

«شكراً».

قادني جان-فيليكس إلى مكتب كان في الأساس مخزناً، وكان مزدحماً برُزم من اللوحات.

سأل: «كيف حال أليسيا؟»، مستعمِلاً آلة إعداد القهوة معقدة المظهر. «هل ما زالت لا تتحدّث؟».

حرّكتُ رأسي. «لا».

هزَّ رأسه وتنهّد. «حزين جداً. تفضّل بالجلوس. ماذا تريد أن تعرف؟ سأبذل قصارى جهدي للإجابة بصدق». ابتسمَ جان-فيليكس ابتسامة مرِحة، مشوبة بالفضول. «على الرغم من أنني غير متأكّد تماماً من سبب قدومك إليّ بالذات».

«أنت وأليسيا أصدقاء، أليس كذلك؟ بصرف النظر عن علاقتكما المهنية. . .».

«من قال لك ذلك؟».

«أخ غابرييل، ماكس بيرينسون. اقترحَ عليّ أن أتحدث معك».

أدار جان-فيليكس عينَيه. «أوه، إذاً رأيت ماكس، أليس كذلك؟ يا له من شخص مضجِر».

قال ذلك بازدراء كبير حتى أنني لم أستطع الامتناع عن الضحك. «هل تعرف ماكس بيرينسون؟».

«جيّداً بما فيه الكفاية. أكثر ممّا أحب». سلّمني فنجاناً صغيراً

من القهوة. «أنا وأليسيا كنا قريبَين. قريبَين جداً. عرفنا بعضنا البعض لسنوات - قبل وقت طويل من لقاءها بغابرييل».

«لم أكن أعرف ذلك».

«نعم بالتأكيد. كنا في مدرسة الفنّ معاً. وبعد تخرّجنا، رسمنا معاً».

«هل تقصد أنكما تعاونتما؟».

«حسناً، ليس حقاً»، ضحك جان-فيليكس. «أعني أننا صبغنا الجدران سوياً. كصباغ للمنازل».

ابتسمتُ. «حسناً، أرى ذلك».

«اتّضح أنني كنت أفضل في طلاء الجدران من رسم اللوحات. لذلك توقفت، في الوقت نفسه الذي بدأ فيه فنّ أليسيا بالفعل يحقّق نجاحاً. وعندما بدأتُ في إدارة هذا المكان، كان من المنطقي بالنسبة إليّ أن أعملَ على التعريف بأعمال أليسيا. كان طبيعياً جداً، عملية عضوية».

«نعم، يبدو الأمر كذلك. وماذا عن غابرييل؟».

«ماذا تعني؟».

لمستُ خشونة في جوابه، وهو ردّ فعل دفاعي أعطاني إشارة على أن هناك إمكانية تستحق الاستكشاف. «حسناً، أتساءل عن دوره في هذه الديناميكية. من المفترض أنك عرفته جيّداً؟».

«ليس حقاً».

«لا؟».

«لا». تردّدَ جان-فيليكس للحظة. «لم يبذل غابرييل جهداً ليعرفني. كان... مهتمّاً فقط بنفسه».

«يبدو وكأنك لم تحبّه».

«لم أحبه على وجه الخصوص. لا أعتقد أنه أحبني. في الواقع، أعلم أنه لم يفعل».

«لما كان ذلك؟».

«ليست لدي أي فكرة».

«هل تعتقد أنه كان ربما غيّوراً؟ من علاقتك مع أليسيا؟».

رشف جان-فيليكس من قهوته وأومأ برأسه. «نعم. ربما».

«كان يراك كتهديد، ربما؟».

«أخبرني أنت. يبدو أنك تملك جميع الإجابات».

فهمت التلميح. لم أدفع بالحديث في هذا الاتجاه أكثر. بدلاً من ذلك، حاولت نهجاً مختلفاً. «رأيتَ أليسيا قبل أيام من القتل، على ما أعتقد؟».

«نعم فعلاً. ذهبت إلى المنزل لرؤيتها».

«هل يمكنك أن تخبرني بعض الشيء عن ذلك؟».

«حسناً، كان لديها معرض قريب، وكانت متأخِّرة في عملها. كانت قلِقة جداً».

«ألم ترَ أياً من أعمالها الجديدة؟».

«لا. كانت تراوغني لوقت طويل. اعتقدت أنه من الأفضل أن أتحقّق من الأمر. كنت أتوقع أن أجدها في المرسَم في نهاية الحديقة. لكنها لم تكن هناك».

«لا؟».

«لا، لقد وجدتها في المنزل».

«كيف دخلت؟».

بدا جان-فيليكس مندهشاً من السؤال. «ماذا؟».

استطعت أن أعرف أنه كان يقوم ببعض التقييم العقلي السريع.

ثم أومأ. قال: «أوه، أرى ما تعنيه. حسناً. كانت هناك بوابة تؤدّي من الشارع إلى الحديقة الخلفية. كانت عادة ما تكون غير مقفَلة. ذهبت من الحديقة إلى المطبخ من خلال الباب الخلفي. والذي كان مفتوحاً أيضاً». ابتسم. «يبدو أنك تشبه مخبِراً أكثر من طبيب نفسي».

«أنا معالِج نفسي».

«هل هناك فرق؟».

«أنا أحاول فقط فهم حالة أليسيا النفسية. كيف وجدتَ مزاجها؟».

هزَّ جان-فيليكس كتفَيه. «بدت بخير. متوتِّرة قليلاً حول موضوع العمل».

«هل هذا كل شيء؟».

«لم تكن تبدو وكأنها ستطلقُ النار على زوجها في الأيام القليلة اللاحقة، إذا كان هذا ما تقصده. بدت - بخير». شربَ كل قهوته، وتردّد وكأنه فكّر في شيء ما.

«هل ترغب في رؤية بعض لوحاتها؟». دون انتظار للردّ، نهض جان-فيليكس وسارَ إلى الباب، وأشار إليّ أن أتبعه.

«هيا».

20

تبعتُ جان-فيليكس إلى غرفة تخزين. اتّجه نحو صندوق كبير، فتحه وأخرج ثلاث لوحات ملفوفة في بطانيات. ثبّتها وأزال الغطاء بعناية عن كل لوحة. ثم تراجع بعض الشيء وقدّمَ الأولى إليّ بحركة بيديه.

«ها هي الأولى».

نظرتُ إليها. كانت اللوحة بنفس جودة الصور الواقعية لبقية أعمال أليسيا. كانت صورة فوتوغرافية تقريباً تمثّل حادث السيارة الذي قُتلت فيه والدتها. كان جسد امرأة جالساً على حطام السيارة، ومتكئاً على عجلة القيادة. كانت المرأة مُلطّخة بالدماء ومن الواضح أنها كانت ميتة. روحها، كانت روحها ترتفع من الجثة، مثل طائر كبير مع أجنحة صفراء، تصعد إلى السماء.

قال جان-فيليكس وهو ينظر إليها: «أليس هذا مجيداً؟ كل هذه الألوان، الأصفر والأحمر والأخضر - يمكن أن أضيع تماماً فيها. إنها فرِحة».

لم تكن فرِحة الكلمة التي كنت سأختارها. عدم الاستقرار، ربما. لم أكن متأكّداً من شعوري حيال ذلك.

انتقلتُ إلى الصورة التالية. لوحة يسوع على الصليب. هل كانت فعلاً تمثّل ذلك؟

قال جان-فيليكس: «إنه غابرييل. يوجدُ بها شَبَه كبير».

كانت صورة غابرييل - ولكنه غابرييل رُسم كيسوع، المصلوب، معلَّق على الصليب، والدم ينزف من جروحه، وتاج من الشَّوك على رأسه. لم تكن عيناه تنظران إلى الأرض، بل إلى السماء، من دون حركة، معذّبتَين وتصدران عتاباً من دون خجل. كانت نظراتهما الحارقة تخترقني. نظرتُ إلى اللَّوحة عن قرب أكثر - إلى شيء غير متطابِق مع الصورة مربوط على جسده. مسدّس.

«هذا هو المسدّس الذي قتلَته به؟».

أومأ جان-فيليكس. «نعم فعلاً. كان في ملكيته، على ما أعتقد».

«وتمَّ رسم هذه اللوحة قبل مقتله؟».

«شهر قبل ذلك. تُظهر لك اللوحة ما كانت أليسيا تفكّر فيه، أليس كذلك؟»، انتقلَ جان-فيليكس إلى الصورة الثالثة. رُسمت على قماش أكبر من الآخَر. «هذه هي الأفضل. تراجعْ قليلاً لتحصل على نَظرة أفضل».

فعلتُ كما قال وأخذتُ بضع خطوات إلى الوراء. ثم التفت ونظرتُ إلى اللوحة. في اللحظة التي رأيت فيها اللوحة، ضحكت بطريقة لا إرادية.

كان موضوع اللوحة عمة أليسيا، ليديا روز. وكان واضحاً لماذا كانت مُستَاءة من ذلك. كانت ليديا عارية، مستلقية على سرير صغير. كان السرير منحنياً تحت وطأ وزنها. كانت سمينة بشكلٍ كبير

وفظيع - انفجار للّحم المتراكِم يتدفّق على السرير ويضرب الأرضية وينتشرُ عبر الغرفة، ويمتدُّ وينطوي مثل موجات من الكريمة الرمادية.

قلتُ: «يا إلهي. هذا فظيع».

«أعتقد أنها جميلة جداً». نظر إليّ جان-فيليكس باهتمام، «هل تعرف ليديا؟».

«نعم، ذهبت لزيارتها».

قال بابتسامة: «أرى ذلك. لقد كنت تقوم بأداء واجبك. أنا لم أقابل ليديا أبداً. كانت أليسيا تكرهها، كما تعرف».

«نعم»، قلت، حدّقت في اللوحة. «نعم أستطيع أن أرى ذلك».

بدأ جان-فيليكس في لفّ الصور بعناية مرّة أخرى.

قلت: «وألسيستيس؟ هل يمكن أن أراها؟».

«بالطبع بكل تأكيد. اتبعني».

قادني جان-فيليكس على طول الممرّ الضيّق إلى نهاية صالة العرض. هناك احتلّت لوحة ألسيستيس جداراً لنفسها. كانت جميلة وغامضة كما تذكّرتها. كانت أليسيا عارية في المرسَم، أمام قماش فارغ، ترسم بفرشاة عليها لون أحمر يشبهُ الدم. درستُ تعبير أليسيا. استعصى مرة أخرى على التأويل. قطّبت حاجبَي.

«إنها مستحيلة القراءة».

«هذا هو الهدف - إنها رفض للتعليق. إنها لوحة حول الصمت».

«لست متأكّداً من أنني أفهم ما تقصده».

«حسناً، في قلب الفن يكمن الغموض. صمت أليسيا هو سرّها - غموضها، بالمعنى الديني. هذا هو السبب الذي جعلَها تسمّيها

ألسيستيس. هل قرأتها؟ مسرحية ليوربيديس». نظرَ إليّ نظرة غريبة. «اقرأها. ثم ستفهم».

أومأتُ - ثم لاحظت شيئاً في اللَّوحة لم أرَه من قبل. انحنيت إلى الأمام لأرى عن كثب. إناء من الفاكهة موضوع على الطاولة في خلفية الصورة - مجموعة من التفاح والإجاص. وعلى التفاح الأحمر، كانت هناك بعض النقط البيضاء الصغيرة - تنزلق على الفاكهة وحولها. أشرتُ إليهم.

«هل هم. . .؟».

«يَرَقات»، أومأ جان-فيليكس. «نعم فعلاً».

«رائع. أتساءل عمّا يعنيه ذلك».

«إنه لأمر رائع. تُحفة. إنها حقاً تحفة». تنهّد جان-فيليكس، ونظرَ إلى وجهي عبر اللَّوحة. وخفضَ صوته كما لو أن أليسيا كانت قادرة على سماعنا. «لسوء الحظ أنك لم تكن تعرفها حينها. كانت أكثر شخص مثير للاهتمام قابلته في حياتي. معظم الناس ليسوا على قيد الحياة، ليسوا حقاً - هم كالماشين نياماً خلال الحياة. لكن أليسيا كانت شديدة الحيوية. . . كان من الصعب أن ترفع عينيك عنها». أدار جان-فيليكس رأسه نحو اللوحة، وحدّق في جسد أليسيا العاري. «جميلة جداً».

نظرتُ إلى جسد أليسيا. لكن حيث رأى جان-فيليكس الجمال، رأيت الألم فقط. لقد رأيت جروحاً ذاتية، وندوباً من إيذاء النفس.

«هل تحدّثَت معك عن محاولة الانتحار؟».

كنت أصطاد، لكن جان-فيليكس بلعَ الطُّعم.

«آه. أنت تعرف ذلك؟ نعم بالطبع».

«بعد وفاة والدها؟».

«تأثّرَت كثيراً». أومأ برأسه. «في الحقيقة كانت أليسيا مأزومة بشكلٍ كبير. ليس كفنانة، ولكن كشخص، كانت ضعيفة للغاية. عندما قامَ والدها بشنق نفسه، كان الأمر صعباً عليها. لم تستطع أن تتحمّل الحادث».

«لا بدَّ أنها أحبّته كثيراً».

أخرجَ جان-فيليكس ضحكة مخنوقة. نظر إليّ كما لو أنني كنت مَعتوهاً.

«ما الذي تتحدث عنه؟».

«ماذا تعني؟».

«أليسيا لم تحبه. كانت تكره والدها. كانت تحتقره».

فوجئت بهذا. «هل أخبرتك أليسيا بذلك؟».

«بالطبع أخبرتني. كرهَته منذ كانت طفلة - منذ وفاة والدتها».

«لكن - لماذا تحاول الانتحار بعد موته؟ لو لم يكن حُزناً، ماذا كان إذاً؟».

هزَّ جان-فيليكس كتفَيه. «الشعور بالذنب، ربما؟ أمر مُحتمل؟».

اعتقدت أن هناك شيئاً لم يقله لي. هناك شيء غير مفهوم. كان هناك خطأ ما.

رنَّ هاتفه. وقال: «اعذرني لحظة». التفتَ مبتعِداً عني للإجابة على المكالمة. كان هناك صوت امرأة على الطرف الآخر. تحدّثوا للحظة، كانا يرتّبان وقتاً للقاء.

قال: «سأتصل بك يا عزيزتي».

عادَ جان-فيليكس إليّ. «آسف بشأن ذلك».

«لا بأس. حبيبتك؟».

ابتسم. «مجرد صديقة... لدي أصدقاء كُثر».

من الأكيد أن لك أصدقاء كُثر، فكّرت حينها. شعرت بوميض من الكراهية. لم أكن متأكّداً من السبب. عندما كان يودّعني، سألتُ سؤالاً أخيراً.

«فقط سؤال إضافي. هل ذكرت لك أليسيا اسمَ طبيب ذات مرة؟».

«طبيب؟».

«على ما يبدو أنها رأت طبيباً ما، بعد محاولة انتحارها. أحاولُ تحديد مكانه».

«آم». عبسَ جان-فيليكس وهو يفكّر في سؤالي. «ربما - كان هناك شخص ما...».

«هل يمكنك تذكّر اسمه؟».

فكّر للحظة، وهزَّ رأسه. «أنا آسف. لا، بصراحة لا أستطيع».

«حسناً، إذا تذكّرته لاحقاً، فربما يمكنك إخباري بذلك؟».

«بالتأكيد. لكنني أشكُّ في ذلك». نظر إليّ وتردَّد. «أتريد نصيحة؟».

«أرحّب بها».

«إذا كنت تريد حقاً دفع أليسيا للتحدُّث... أعطِها بعض الصباغة والفرشاة. دعها ترسُم. هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستتحدّث بها إليك. من خلال فنّها».

«هذه فكرة مثيرة... لقد كنت مفيداً جداً لي. شكراً، سيد مارتن».

«ناديني جان-فيليكس. وعندما ترى أليسيا، أخبرها أنني أحبها».

ابتسمَ، ومرة أخرى شعرتُ بنُفور طَفيف: كان هناك شيء ما عن جان-فيليكس وجدت صعوبة في فهمه. أستطيع أن أقول إنه كان قريباً حقّاً من أليسيا. كانا يعرفان بعضهما البعض لوقت طويل وكان واضحاً أنه كان منجذباً إليها. هل كان في علاقة حبّ معها؟ لم أكن متأكّداً. فكّرت في وجه جان-فيليكس عندما كان ينظر إلى **ألسيستيس**. نعم، كان هناك حبّ في عينَيه - ولكن حبّ للرسم، وليس بالضرورة للرسّام. كان الفنّ مطمع جان-فيليكس. وإلا لكان قد زار أليسيا في ذا غروف. لكان تمسّك بها - كنتُ أعرف ذلك عين المعرفة.

الرجل لا يتخلّى أبداً عن امرأة في هذه الظروف.

ليس إن كان يحبّها.

21

ذهبت إلى ووترستونز في طريقي إلى العمل، واشتريتُ نسخة من **ألسيستيس**. قالت المقدِّمة إنها من أولى المسرحيات التراجيدية ليوربيديس التي ما زالت موجودة. وأحد أعماله الأقل أداءً.

بدأتُ أقرأها في المترو. لم تكن بالضبط مسرحية سهلة القراءة. كانت مسرحية غريبة، حقاً. كان البطل، أدميتوس، محكوماً عليه بالموت من الأقدار. ولكن بفضل التفاوض مع أبولو، عرض عليه ثغرة - يمكن لأدميتوس النجاة من الموت إذا كان قادراً على إقناع شخص آخر ليموت مكانه. بدأ بطلب والدته ووالده أن يموتا في مكانه، لكنهما رفضا بشدّة. كان من الصعب الحكم على أدميتوس في هذه المرحلة. لم يكن تصرُّفه بالضبط تصرُّفاً بطولياً، بأي مقياس، ومن الأكيد أن سكان اليونان القديمة كانوا يعتقدون أن أدميتوس هو شخص غبي. كانت ألسيستيس ذات شخصية قوية - تقدّمَت وتطوّعَت للموت مكان زوجها. ربما لم تتوقّع أن يقبل أدميتوس عرضها - لكنه فعل، واستسلمَت ألسيستيس للموت ورحلت لهادس.

غير أن الأمرَ لم ينتهِ هناك. كانت هناك نهاية سعيدة، من النوع

الخارق. سحب هرقل ألسيستيس من هادس، وأرجعها منتصرة إلى أرض الأحياء. عادت إلى الحياة مرّة أخرى. أذرفَ أدميتوس الدموع للمِّ شمله مع زوجته. كان من الصعب قراءة مشاعر ألسيستيس - بقيَت صامتة. لا تتكلّم.

قفزتُ من مكاني وأنا أقرأ هذه النهاية. لم أصدّق ذلك.

قرأتُ الصفحة الأخيرة من المسرحية مرة أخرى، ببطء، وبعناية.

تعود ألسيستيس من الموت، وتستعيدُ الحياة - غير قادرة أو غير راغبة في التحدُّث عن تجرُبتها. يناشد أدميتوس هرقل بيأس: «لكن لماذا زوجتي هي واقفة هنا، ولا تتكلم؟».

لا يتلقّى أية إجابة. تنتهي المأساة بإدخال ألسيستيس إلى المنزل من قبل أدميتوس - في صمت.

لماذا؟ لماذا لا تتكلّم؟

22

يوميّات أليسيا بيرينسون

2 أغسطس

إن الجوَّ أكثر سخونة اليوم. أكثر حرارة في لندن منه في أثينا، على ما يبدو. لكن على الأقل أثينا لديها شاطئ.

اتصلَ بي بول اليوم من كامبريدج. فوجئت لسماع صوته. لم نتحدّث منذ شهور. فكرتي الأولى كانت أن تكون العمة ليديا قد ماتت - لا أشعرُ بالخجل أن أقول إنني شعرت بوميض ارتياح.

لكن لم يكن هذا سبب مكالمة بول لي. في الواقع، ما زلت غير متأكّد من سبب اتصاله بي. كان مراوِغاً جداً. ظللتُ أنتظره أن يصل إلى الموضوع الحقيقي لاتصاله، لكنه لم يفعل. ظلَّ يسأل إن كنت بخير، إن كان غابرييل بخير، وتمتمَ شيئاً عن ليديا مفاده أنها ما زالت على الحال نفسها.

قلتُ: «سآتي لزيارتها. لم أزركم لوقت طويل، لكنني كنت أنوي ذلك».

في الحقيقة، لدي الكثير من المشاعر المعقّدة حول الذهاب إلى

المنزل، وحول وجودي في البيت مع ليديا وبول. لذلك أتجنّبُ العودة - والشعور في نهاية المطاف بالذنب، لا أستطيع كسب أي شيء في الحالتَين.

قلت: «سيكون من اللطيف أن أجدِّد لقائي بكما. سآتي لرؤيتكما قريباً. أنا على وشك الخروج، لذلك...».

ثم تحدّث بول بهدوءٍ شديد ولم أتمكّن من سماعه.

«آسفة؟»، قلت. «هل يمكنك تكرار ذلك؟».

«قلت إنني في ورطة، أليسيا. أنا بحاجة إلى مساعدتك».

«ما الأمر؟».

«لا يمكنني التحدُّث عن ذلك على الهاتف. أحتاج أن أراك».

«إنه فقط - لستُ متأكّدةً من أنني أستطيع الوصول إلى كامبريدج في هذه اللحظة».

«سوف آتي إليك. بعد ظهر اليوم. موافِقة؟».

كان هناك شيء ما في صوت بول جعلني أوافق دون التفكير في ذلك. بدا يائساً.

قلتُ: «حسناً. هل أنت متأكّد من أنك لا تستطيع أن تخبرني عنه الآن؟».

قال بول: «سأراكِ لاحقاً». وأنهى المكالمة.

ظللتُ أفكر في ذلك لبقية الصباح. ماذا يمكن أن يكون خطيراً بما فيه الكفاية ليلجأ بول إليّ، دون كلّ الناس؟ هل كان الأمر يتعلّق بليديا؟ أو بالمنزل، ربما؟ لم أستطع أن أفهم أي شيء.

لم أتمكّن من إنجاز أي عمل بعد الغداء. كنت ألوم الحرارة، ولكن في الحقيقة كان عقلي في مكانٍ آخر. ظللتُ أتمشّى في

المطبخ، وألقي نظرة خاطفة على النوافذ، حتى رأيت بول في الشارع. لوّح لي بيده.

«أليسيا، مرحباً».

الشيء الأول الذي أدهشني هو مدى فظاعة شكله. لقد فقدَ الكثير من وزنه، خصوصاً حول وجهه، الصدغان والفكّ. كان يبدو نحيفاً جداً، ولم يكن على ما يرام. كان مرهَقاً. مذعوراً.

جلسنا في المطبخ والمروحة مشغّلة. قدمت له بيرة لكنه قال إنه يفضّل أن يأخذَ مشروباً أقوى، الأمر الذي فاجأني لأنني لا أتذكر أنه كان يشرب كثيراً. صببت الويسكي - بمقدار صغير - شربه دفعة واحدة عندما اعتقد أنني لا أنظر إليه.

لم يقل شيئاً في البداية. جلسنا هناك في صمت للحظة. ثم كرّر ما قاله على الهاتف. الكلمات نفسها: «أنا في ورطة».

سألتهُ ما الذي كان يقصده. هل كان الأمر يتعلّق بالمنزل؟

نظر إليّ بول بهدوء. لا، لم يكن المنزل.

«ماذا إذاً؟».

قال: «أنا». تردّدَ للحظة ثم نطق بحقيقة أمره. «لعبتُ القِمار. وفقدت الكثير، للأسف».

اتّضح أنه كان يقامر بانتظام لسنوات. قال إنه بدأ يلعب القِمار كوسيلة للخروج من المنزل - إلى مكانٍ ما، ولفعلِ أمر ما، وللحصول على بعض المرح - ولا أستطيع أن أقول إنني ألومه. بالعيش مع ليديا، يجب أن يكون هناك نقص في المتعة. لكنه خسرَ المال أكثر فأكثر، والآن خرجَ الأمر عن السيطرة. لقد كان يسحب من حساب التوفير. ولم يكن هناك الكثير من المال.

سألت: «كم تحتاج؟».

«عشرون ألفاً».

لم أستطع أن أصدّق أذنَي. «فقدت العشرين ألف؟».

«ليس دفعة واحدة. واقترضت من بعض الناس - والآن يريدونني أن أرجعَ لهم المال».

«من الناس؟».

«إذا لم أعِد إليهم المال، فسوف أكون في ورطة».

«هل أخبرت والدتك؟».

كنت أعرف بالفعل الإجابة عن هذا السؤال. قد يكون بول غير منظَّم لكنه ليس غبياً.

«بالطبع لا. لكانت أمي قتلتني. أحتاجُ إلى مساعدتك يا أليسيا. لهذا السبب أنا هنا».

«ليس لدي هذا القدر من المال، بول».

«سأدفعه مستقبلاً. لا أحتاج إليه في الحال. مجرّد قدر بسيط».

لم أقل أي شيء وظلَّ يتوسّل. هم يريدون بعض المال هذه الليلة. لم يجرؤ على العودة خالي الوفاض. أي قَدْر يمكنني أن أعطيه، أي قدر. لم أكن أعرف ماذا أفعل.

كنت أرغب في مساعدته، لكن كان لدي شكّ في أن إعطائه المال هو الطريقة للتعامُل مع هذا المشكل. كنت أعرف أيضاً أن ديونه ستكون سرّاً يصعب إخفاؤه عن العمّة ليديا. لا أدري ما كنت سأفعل لو كنت بول. قد تكون مواجهة ليديا ربما أكثر رعباً من مواجهة أسماك القرش التي تنتظره.

«سأكتب لك شيكاً»، قلت في النهاية.

بدا بول ممتنّاً بشكلٍ مثير للشفقة، وظلَّ يتمتم «شكراً لك. شكراً لك».

كتبتُ له شيكاً بمبلغ ألفي جنيه، يُصرف نقداً. أعلم أن هذا ليس ما يريده لكن الأمر كله كان منطقة مجهولة بالنسبة إليّ. ولستُ متأكدة من أنني صدّقت كل ما قاله. شيء ما حول هذا الموضوع لم يكن صحيحاً.

«ربما أستطيع أن أقدّم لك المزيد عندما أتحدّث إلى غابرييل»، قلتُ له. «لكن من الأفضل أن نبحث عن طريقة أخرى للتعامُل مع هذا الأمر. كما تعلم، شقيق غابرييل محامٍ. ربما يستطيع——».

قفزَ بول، مرعوباً، وهزَّ رأسه رافضاً الفِكرة.

«لا»، استمرّ يقول، «لا، لا. لا تخبري غابرييل. لا تدخليه في الموضوع، رجاء. سوف أجدُ طريقة للتعامُل مع المشكل. سأجد حلاً».

«ماذا عن ليديا؟ أعتقد أنه ربما يجب عليك -».

هزَّ بول رأسَهُ رافِضاً بضراوة، وأخذَ الشيك. نظرَ بخيبة أمل إلى المبلغ، ولكنه لم يقل أي شيء. غادرَ بعد ذلك بوقت قصير.

كان لدي شعور بأنني خذلته. إنه شعور كنت دائماً أحس به تجاه بول، منذ كنا طفلَين. لقد فشلت دائما في تلبية توقُّعاته - أن أكون شخصية الأم بالنسبة إليه. يجب أن يعرفني أفضل من ذلك. أنا لست نوع الأم الذي يبحث عنه.

أخبرتُ غابرييل بذلك عندما عاد. وبالطبع كان منزعجاً ممّا فعلت. قال إنه لا يجب عليّ إعطاء بول أي مال؛ وأنني لا أدين له بشيء، فأنا لست مسؤولة عنه.

أعرفُ أن غابرييل على حقّ، لكن الحقيقة هي أنني لا أستطيع أن لا أشعر بالذنب. هربتُ من هذا البيت، ومن ليديا - لكن بول لم يفعل.

لا يزال محاصَراً هناك. كان لا يزال عمره ثماني سنوات. أريد أن أساعده.

لكنني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

6 أغسطس

قضيتُ كل اليوم في الرسم، اشتغلتُ على خلفية لوحة يسوع. كنت أعدُّ رسوماً من الصور التي أخذناها في المكسيك - الأرض الحمراء المشقّقة، والشجيرات المظلمة والشوكية - وأفكر في الكيفية التي تمكّنني من التقاط تلك الحرارة، وذلك الجفاف الشديد - ثم سمعت جان-فيليكس يناديني باسمي.

فكرت للحظة في أن أتجاهله، متظاهرة بأنني لم أكن في البيت. ولكن بعد ذلك سمعت صوت فتح الباب، وكان الأوان قد فات. أخرجتُ رأسي من النافذة وكان يسير عبر الحديقة. ولوّح لي بيده.

قال: «يا فتاة. هل أضايقك؟ هل تشتغلين؟».

«نعم، في الحقيقة».

وقال «جيّد، جيّد. استمرّي في العمل. فقط ستة أسابيع على افتتاح المعرض، كما تعلمين. أنت متأخّرة بشكلٍ مُرعِب». ضحكَ ضحكته المزعجة تلك. أفشى التعبير على وجهي ما بداخلي، لأنه أضاف بسرعة، «فقط أمزح. أنا لست هنا للتحقُّق ممّا تفعلين».

لم أقل شيئاً. عدت للتوّ إلى المرسَم، وتبعني. سحبَ كرسياً وجلسَ أمام المروحة. أشعلَ سيجارة ودار الدخان حوله بفعل النسيم. عدتُ إلى حامل اللَّوحة وأخذت الفرشاة. تحدّث جان-

فيليكس إليّ وأنا أشتغل. شَكَا من الحرارة، قائلاً إن لندن لم تكن مصمَّمة للتعامُل مع هذا النوع من الطقس. وقارنها بطريقة سلبية مع باريس والمدن الأخرى. توقّفتُ عن الاستماع بعد فترة. استمرَّ في حديثه، يشكو، يبرّر نفسه، يتأسّف على نفسه، مسبّباً لي مللاً فظيعاً. لم يسألني عن أي شيء. لم يكن حقّاً يهتم بي. حتى بعد كل هذه السنوات، أنا فقط وسيلة لغاية - جمهور في عرض جان-فيليكس.

ربما هذا غير لطيف في حقّه. إنه صديق قديم - وكان دائماً موجوداً من أجلي. إنه وحيد، هذا كل شيء. أنا كذلك. حسناً، أنا أفضّل أن أكون وحيدة من أن أكون مع الشخص الخطأ. هذا هو السبب في أنني لم يكن لدي أبداً أي علاقات جدّية قبل غابرييل. كنت أنتظر غابرييل، أنتظر شخصاً حقيقياً، صلباً وصادقاً لأن الآخرين كانوا مزيّفين. كان جان-فيليكس يشعرُ دائماً بالغيرة من علاقتنا. حاول إخفائها - ولا يزال - ولكن يبدو واضحاً لي أنه يكره غابرييل. إنه ينتقده دائماً، ويحاول أن يوحي إليّ أن غابرييل أقلَّ موهبة مني، وأنه مغرور وأناني. أظنُّ أن جان-فيليكس يعتقدُ أنه في يوم من الأيام سيستميلني إلى جانبه، وسأسقط تحت قدميه. لكن ما لا يدركه هو أنه مع كلّ تعليق خبيث وملاحظة انتقاديه، يدفعني بعيداً عنه لأرتمي في أحضان غابرييل.

يلمّح جان-فيليكس دائماً إلى صداقتنا الطويلة جداً - إنه العَقد الذي يربطني به - قوة العلاقة في تلك السنوات المبكّرة، عندما كان الأمر يتعلّق بـ«نحن ضدّ العالم». لكنني لا أعتقد أن جان-فيليكس يدرك أنه يحتفظ بجزء من حياتي عندما لم أكن سعيدة. وأي عاطفة تجاه جان-فيليكس كانت في ذلك الوقت. نشبهُ زوجَين فقدا الحبَّ الذي كان يربطهما. أدركتُ اليوم تماماً كم أكرهه.

«أنا أشتغل»، قلت. «أنا في حاجة إلى إتمام العمل، إذا كنت لا تمانع...».

كشّر جان-فيليكس. «هل تطلبين مني المغادرة؟ لقد كنت أشاهدك وأنت ترسمين منذ التقطت الفرشاة لأول مرة. لو كنت قد تسبّبت لك في أي إزعاج كل هذه السنوات، ربما كان عليك قول ذلك قبل الآن».

«أنا أقول شيئاً الآن».

بدأتُ أشعر بالحرارة في وجهي وبدأت أغضب. لم أستطع السيطرة على الغضب. حاولتُ أن أرسم، لكن يدي كانت تهتز.

كنت أشعر بجان-فيليكس يراقبني - كنت أسمع فعلياً عقله يشتغل - يدقُّ، يطنُّ ويدورُ.

وقال في النهاية: «لقد أزعجتك. لماذا؟».

«لقد أخبرتك للتوّ. لا يمكنك الاستمرار في القدوم على هذا النحو. يجب أن تكتب لي رسالة أو تتصل أولاً».

«لم أدرك أنني بحاجة إلى دعوة مكتوبة لأرى أفضل صديقة لدي».

كانت هناك وقفة. تأثّر بكلامي كثيراً. أعتقد أنه لم تكن هناك طريقة أخرى للتصرُّف تجاهه. لم أخطِّط لقول ما قلته. كنت أقصد أن أمرّر له رأيي بلطف أكثر. لكن بطريقة ما كنت غير قادرة على منع نفسي عن فعل ذلك. والشيء المضحِك هو أنني أردت أن أجرحه. كنت أريد أن أكون وحشية.

«جان-فيليكس، اسمع».

«أنا أستمع».

«ليس هناك طريقة سهلة لقول هذا. لكن بعد العرض، حان الوقت للتغيير».

«تغيير ماذا؟».

«تغيير قاعة العرض. بالنسبة إليّ».

نظر إليّ جان-فيليكس، مندهِشاً. كان يبدو إلى حدٍّ ما كطفل، كنت أفكّر، على وشك الانفجار بالبكاء. ووجدت نفسي لا أشعر بأي شيء سوى الرغبة في مضايقته.

«لقد حان الوقت لبداية جديدة»، قلت. «لكلينا».

«فهمتُ». أشعلَ سيجارة أخرى. «وأفترض أنها فكرة غابرييل؟».

«غابرييل لا علاقة له بهذا».

«إنه يكرهني بشدّة».

«لا تكن غبياً».

«سمّمكِ ضدّي. لقد رأيت ذلك يحدث. كان يقوم بذلك لسنوات».

«هذا ليس صحيحاً».

«هل هناك تفسير آخر؟ ما السبب الآخر الذي يمكن أن يدفعك لطعني في الظهر؟».

«لا تكن دراماتيكياً. يتعلّقُ هذا فقط بالمعرض. لا يتعلق بك وبي. سنظلُّ صديقَين. لا يزال بإمكاننا أن نلتقي ونمضي الوقت معاً».

«إذا كتبت أو اتصلت أولاً؟».

ضحكَ، وبدأ الحديث بسرعة، كما لو كان يحاول التعبير عن كل شيء قبل أن أتمكّن من منعه. «واو»، قال، «واو، واو، كل هذا

الوقت كنت أعتقد حقاً في شيء، كما تعلمين، في أنت وأنا - والآن قرّرتِ أنه كان لا شيء. بهذه الطريقة. لا أحد يهتم بك كما أفعل. لا أحد».

«جان-فيليكس، من فضلك——».

«لا أستطيع أن أصدّق أنك قرّرتِ مثل هذا الأمر».

«كنتُ أرغب في إخبارك منذ مدة».

كان من الواضح أن هذا هو الشيء الخطأ لأقوله. بدا جان-فيليكس متفاجئاً.

«ماذا تقصدين، منذ مدة؟ منذ متى؟».

«لا أدري، لا أعرف. مدة ما».

«وأنت كنت تفعلين ذلك من أجلي؟ هل هذا هو القصد؟ يا إلهي، أليسيا. لا تنهي علاقتنا هكذا. لا تتخلّصي مني بهذه الطريقة».

«أنا لا أتخلّص منك. لا تكن دراماتيكياً سنكون دائماً أصدقاء».

«دعينا نتمهّل هنا. هل تعرفين لماذا جئت؟ لأدعوك إلى المسرح يوم الجمعة». سحبَ تذكرتَين من داخل سترته وأظهرهما لي - كانا لمشاهدة تراجيديا ليوربيديس، في المسرح الوطني. «أودُّ منك أن تأتي معي. إنها طريقة أكثر تحضُّراً للوداع، ألا تعتقدين ذلك؟ بحقّ كل الوقت الذي قضيناه معاً. لا تقولي لا».

ترددت. كان آخر شيء أريد القيام به. لكني لم أكن أريد أن أزعجه أكثر. في تلك الظروف أعتقد أنني كنت سأوافق على أي شيء - فقط لإخراجه من هناك. لذلك قلت نعم.

10:30 مساءً

عندما عاد غابرييل إلى المنزل، تحدّثت معه عمّا حدث مع جان-فيليكس. وقال إنه لم يفهم أبداً صداقتنا على أي حال. قال إن جان-فيليكس مزعِج، ولا تعجبه الطريقة التي ينظر بها إليّ.

«وكيف ذلك؟».

«كما لو كان يملكك أو شيئاً ما من هذا القبيل. أعتقد أنه يجب عليك أن تتركي المعرض الآن - قبل العرض».

«لا يمكنني فعل ذلك - لقد فات الأوان. لا أريده أن يكرهني. أنت لا تدري كيف يمكنه أن ينتقم مني».

«يبدو أنك خائفة منه».

«أنا لست خائفة. سيكون الأمر أسهل بهذه الطريقة - أن أتخلّصَ منه تدريجياً».

«كلما كان ذلك أسرع كان ذلك أفضل. هو يحبك. أنت تعلمين ذلك، أليس كذلك؟».

لم أجادله - لكن غابرييل كان على خطأ. جان-فيليكس لا يحبني. هو أكثر تعلُّقاً بلوحاتي، من تعلُّقه بي. وهو سبب آخر للابتعاد عنه. جان-فيليكس لا يهتمّ بي على الإطلاق. كان غابرييل محقّاً في أمر واحد، على أية حال.

أنا خائفة منه.

23

وجدت ديوميديس في مكتبه. كان يجلس على كرسي، أمام قيثارته ذات الوتر الذهبي.

«هذا شيء جميل»، قلت.

أومأ ديوميديس. «ومن الصعب للغاية العزف عليه». قام بالعزف ممرِّراً أصابعه بمحبّة على طول الأوتار. تردّد لحنٌ متتالٍ عبر الغُرفة. «هل تريد أن تحاول؟».

ابتسمت وهززت رأسي. ضحكَ.

«سأظل أطلب ذلك، كما ترى، على أمل أن تقوم بتغيير رأيك. أنا مِلحاح جداً».

«لست موهوباً جداً في العزف. قيل لي ذلك بطريقة غير مباشرة من قبل مُعلّمي للموسيقى في المدرسة».

«الموسيقى، مثل العلاج، هي علاقة، تعتمدُ كلياً على المعلّم الذي تختاره».

«لا شكّ في أن هذا صحيح».

نظرَ من النافذة وأومأ إلى السماء المظلِمة. «تلك الغيوم محملة بالثلج».

«يبدو لي كأنها غيوم مطر».

قال: «لا، إنه ثلج. ثق بي، أنتمي إلى سلالة من الرعاة اليونانيين. سيسقطُ الثلج هذه الليلة».

نظرَ ديوميديس إلى الغيوم آخر نظرة متفائلة، ثم رجع إليّ. «ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك، ثيو؟».

«هذا».

مرّرت له نسخة المسرحية عبر المكتب. نظر إليها.

«ما هذا؟».

«تراجيديا يوربيديس».

«أستطيع أن أرى ذلك. لماذا تُريها لي؟».

«حسناً، إنها ألسيستيس - العنوان الذي أعطته أليسيا لصورتها الذاتية التي رسمتها بعد مقتل غابرييل».

«أوه، نعم، نعم بالطبع». نظرَ إليها بمزيد من الاهتمام.

«تُصوّر نفسها كبطلة تراجيدية».

«ربما. يجب أن أعترف، أنا مرتبك نوعاً ما. اعتقدت أن يكون تعامُلك معها ربما أفضل مني».

ضحكَ. «لأنني يوناني؟ أنت تفترض أن لدي معرفة حميمة بكل التراجيديا اليونانية؟».

«حسناً، أفْضل مني، على أي حال».

«لا أرى السبب. إنه مثل افتراض أن كل رجل إنجليزي له معرفة بأعمال شكسبير». ابتسمَ في وجهي ابتسامة رثاء. «لحسن حظك، هذا هو الفرق بين بلدينا. كل يوناني يعرف مسرحيات التراجيديا لبلده. المآسي هي أساطيرنا، تاريخنا - دمنا».

«إذاً ستتمكن من مساعدتي في هذا الأمر».

التقطَ ديوميديس المسرحية وتصفّحها.

«وما هي الصعوبة التي تواجهك؟».

«الصعوبة التي أواجهها هي أنها لا تتكلم. تموت ألسيستيس من أجل زوجها. وفي النهاية، تعود إلى الحياة - لكن تبقى صامتة».

«آه. مثل أليسيا».

«نعم فعلاً».

«مرة أخرى، أطرح السؤال - ما هي الصعوبة التي تواجهها؟».

«حسناً، من الواضح أن هناك صلة - لكنني لا أفهم ذلك. لماذا لا تتكلّم ألسيستيس في النهاية؟».

«حسناً، ما هو السبب في رأيك؟».

«لا أدري. تغلّبت عليها العاطفة، ربما؟».

«ربما. أي نوع من العاطفة؟».

«الفرح؟».

ضحك. «ثيو، فكّر. كيف سيكون شعورك؟ الشخص الذي تحبه أكثر في العالم يحكم عليك بالموت، بسبب الجبن. هذه خيانة تماماً».

«هل تعني أنها كانت منزعجة؟».

«هل سبق لك أن تعرضت للخيانة؟».

طعنني السؤال مثل سكّين. شعرت بوجهي يحمرّ. وتحرّكت شفتاي، لكن لم يصدر منهما أي صوت.

ابتسم ديوميديس. «أستطيع أن أرى أنك مررت بالتجربة نفسها. وبالتالي. . . أخبرني. كيف تشعر ألسيستيس؟».

كنت أعرف الإجابة هذه المرّة.

«غاضبة. هي. . غاضبة».

«نعم». أومأ ديوميديس. «أكثر من غاضبة. إن لها رغبة في القتل - مع كل هذا الغضب الذي تحملُه». ضاحكاً. «لا يسع المرء إلا أن يتساءل عن العلاقة التي ستربط ألسيستيس وأدميتوس في المستقبل. الثقة، بعد أن تُفقد، يصعب استردادها».

استغرق الأمر بضع ثوانٍ قبل أن أثق بنفسي وأتكلّم. «وأليسيا؟».

«ماذا عنها؟».

«حُكم على ألسيستيس أن تموت بسبب جبن زوجها. وأليسيا...».

«لا، أليسيا لم تمت... ليس جسدياً». تركَ الكلمة معلّقة. «نفسياً، من ناحية أخرى...».

«تعني أن شيئاً ما حدث - قتلَ روحها... قتلَ شعورها بالحيوية؟».

«ربما».

شعرتُ بعدم الرضى. التقطت المسرحية ونظرتُ إليها. كان على الغلاف صورة تمثال قديم - امرأة جميلة خُلّد وجودها في الرخام. حدّقت فيه، وفكّرت في ما قاله لي جان-فيليكس. «إذا ماتت أليسيا... مثل ألسيستيس، فإننا نحتاج إلى إعادتها إلى الحياة».

«صحيح».

«أعتقد أنه إذا كان فنّ أليسيا هو وسيلتها للتعبير، أقترح أن نمنحها صوتاً».

«وكيف سنفعل ذلك؟».

«لنسمح لها أن ترسم».

نظرَ ديوميديس إليّ نظرة اندهاش - متبوعة بحركة يد تقلِّلُ من قيمة الاقتراح. «هي فعلاً تخضع للعلاج الفني».

«لا أتكلّم عن العلاج الفني. أتكلّم عن اشتغال أليسيا حسب شروطها هي - لوحدها، مع فضاء خاص بها للإبداع. دعها تعبِّر عن نفسها، حرّر مشاعرها. ربما قد يُحدث ذلك نتائج باهرة».

لم يردّ ديوميديس للحظة. فكّر في الأمر. «يجب عليك أن تناقش الأمر مع معالِجتها الفنية. هل التقيت بها؟ روينا هارت؟ إنها ليست سهلة الإقناع».

«سأتكلّم معها. لكن هل حصلتُ على مباركتكَ للأمر؟».

هزَّ ديوميديس كتفَيه. «إذا استطعت أن تقنع روينا، لك كامل الصلاحية للقيام بذلك. يمكنني أن أخبرك الآن أنها لن تحبّذ الفكرة. لن تحبّذها أبداً».

24

قالت روينا: «أعتقد أنها فكرة رائعة».

«حقاً؟»، حاولت أن لا أبدو متفاجئاً. «حقاً؟».

«نعم بالتأكيد. المشكلة الوحيدة هي أن أليسيا لن ترغب في ذلك».

«ما الذي يجعلك على يقين من ذلك؟».

أصدرت روينا شخيراً ساخراً.

«لأن أليسيا هي العاهرة الأقل استجابة والأقل تواصُلاً التي اشتغلت معها».

«آه».

تبعتُ روينا إلى غرفة الفنّ، التي كانت أرضيتها مرشوشة بالصباغة مثل فسيفساء تجريدية - وجدرانها مغطّاة بالأعمال الفنية - كان بعضها جيد، ومعظمها غريب. كان شَعر روينا قصيراً وأشقر، ويظهر على وجهها عُبوس محفور بعمق، ولها طريقة تصرّف بها إرهاق وضجر، ممّا لا شكّ فيه كان ذلك بسبب اشتغالها المستمرّ مع مرضى غير متعاونين. كان واضحاً أن أليسيا واحدة من خيبات الأمل هذه.

قلت: «هي لا تشارك في العلاج بالفنّ؟».

«لا تفعل». واصلَت روينا، تكدِّس الأعمال الفنية على الرفّ وهي تتحدّث. «كانت لدي آمال كبيرة عندما انضمّت إلى المجموعة - فعلتُ كل ما بوسعي لجعلها تشعر بالترحيب - لكنها كانت فقط تجلس هناك، تحدّق في الصفحة الفارغة. لا شيء يحثُّها على الرسم أو حتى على التقاط قلم رصاص لترسم. مثال رهيب للآخرين».

أومأتُ بِرومانسية. الغرض من العلاج بالفنّ هو أن نشجّع المرضى على الرسم، والأهم من ذلك، أن يتحدثوا عن أعمالهم الفنية، ويربطوها بحالتهم العاطفية. إنها طريقة رائعة للحصول على لا وعيهم مباشرة على الصفحة - حيث يمكن التفكير فيه والتحدُّث عنه. كما هو الحال دائماً، يتوقّف هذا الأمر على المهارة الفردية للمعالِج. كانت روث تقول دائماً أن عدداً قليلاً جداً من المعالجين كانوا مهرة أو حدسيين - معظمهم كانوا سبّاكين فقط. كانت روينا، في رأيي، سبّاكة إلى حدٍّ كبير. كان من الواضح أنها شعرت بالازدراء من أليسيا. حاولتُ أن أكون مسترضياً لها قدر الإمكان.

«ربما كان ذلك مؤلماً لها»، اقترحتُ بلطف.

«مؤلماً؟».

«حسناً، لا يمكن أن يكون من السهل على فنانة لها موهبتها الجلوس والرسم مع المرضى الآخرين».

«لَم لا؟ لأنها أعلى مستوى منهم؟ لقد رأيت عملها. لا أعتبرها متفوّقة للغاية على الإطلاق». قامت بامتصاص فمها كما لو كانت تتذوّق شيئاً مرّاً.

لذلك كانت روينا تكره أليسيا - كانت غيّورة منها.

وقالت: «يمكن لأي شخص أن يرسم هكذا. ليس صعباً تمثيل

شيء في صورة واقعية - ما هو أصعب هو التعبير عن وجهة نظر حول هذا الموضوع».

لم أكن أريد الدخول في جدال حول فنّ أليسيا. «ما تقولينه هو أنك سترتاحين إذا أخذتها من يديك؟».

نظرَت روينا إليّ نظرة حادّة. «تفضّل. يمكنك أن تتكفّل بها».

«شكراً لك. أنا ممتنّ».

أصدرَت روينا صوتاً من أنفها ينمّ عن الازدراء. «ستحتاج إلى توفير الموادّ الفنية. ميزانيتي لا تسمح بشراء الزيوت».

25

«أريد أن أعترف لكِ بشيء».

لم تنظر أليسيا إليّ. تابعتُ كلامي، أراقبها بعناية: «حدث أن مررت بمعرضك القديم ذات يوم عندما كنت في سوهو. لذا دخلت إليه. كان المدير لطيفاً جداً وأراني بعض أعمالك. هو صديق قديم لك؟ جان-فيليكس مارتن؟»

انتظرت الردّ. لم يأتِ أي ردّ.

«آمل ألا تعتقدين أنه كان انتهاكاً لخصوصيتك. ربما كان يجب عليّ أن أستشيرك أولاً. آمل أن لا يكون لك أي اعتراض على ذلك».

لا يوجد أي ردّ.

«رأيتُ بعض اللوحات لم أكن قد رأيتها من قبل. واحدة لأمك... وأخرى لعمّتك، ليديا روز».

رفعَت أليسيا رأسها ببطء ونظرت إليّ. كان هناك تعبير في عينَيها لم أرَه من قبل. لم أستطع أن أفهمه. أكان... تسلية؟

«بغضّ النظر عن الاهتمام الواضح بالنسبة إليّ - أعني كمعالِجك - وجدت أن للّوحات تعبيراً على المستوى الشخصي. إنها لوحات قوية للغاية».

خفضَت أليسيا عينَيها. كانت قد بدأت تفقد الاهتمام بما أقول. واظبت بسرعة: «لقد صدمني شيئان. في اللوحة الخاصة بحادثة السيارة لأمك، هناك شيء مفقود في الصورة... أنتِ. لم ترسمي نفسك في السيارة، على الرغم من أنك كنت هناك».

لا يوجد أي ردّ فعل.

«تساءلت عمّا إذا كان هذا يعني أنك كنت قادرة على التفكير في الأمر فقط كأنها مأساتها هي؟ لأنها ماتت؟ لكن في الحقيقة كانت هناك أيضاً فتاة صغيرة في تلك السيارة. فتاة كان شعورها بالخسارة، على ما أظن، غير مؤكّد، ولا مُعاش بطريقة تامة».

تحرّك رأس أليسيا. نظرَت إليّ. كانت نظرة تحدٍّ. حصلتُ على شيء ما. تابعت الحديث.

«سألت جان-فيليكس عن لوحة صورتك الشخصية، **ألسيستيس**. حول معناها. واقترَح أن ألقي نظرة على هذا».

سحبتُ نسخة المسرحية، **ألسيستيس**. ودفعتُ بالنسخة عبر منضدة القهوة نحوها. نظرَت أليسيا إليها.

««لماذا لا تتحدّث؟»، هذا ما يسأله أدميتوس. وأنا أسألُك السؤال نفسه، أليسيا. ما هذا الذي لا تستطيعين قوله؟ لماذا يجب عليك التزام الصمت؟».

أغلقَت أليسيا عينيها - جعلني ذلك أختفي. انتهت المحادثة. نظرَت إلى الساعة على الحائط خلفها. كانت الجلسة على وشك الانتهاء. بقي بضع دقائق.

كنت أقوم بحفظ ورقتي الرابحة حتى الآن. ولعبتها مع شعور بالعصبية كنت آمل أن لا يكون ظاهراً.

«قدّم جان-فيليكس اقتراحاً. أعتقد أنه كان جيّداً إلى حدٍّ ما.

كان يعتقد أنه يجب أن نسمح لك بالرسم. . . هل ترغبين بفعل ذلك؟ يمكن أن نوفِّر لك مساحة خاصة، القماش والفرش والصباغات».

رفرفت عينا أليسيا. فتحتهما. وكأن ضوءاً أنار ما بداخلها. كانت عيناها عينَي طفلة، واسعتَين وبريئتَين، خاليتَين من الاحتقار أو الشكّ. يبدو أن اللون عاد إلى وجهها. فجأة بدت حيّة بشكلٍ رائع.

«تحدّثت مع البروفيسور ديوميديس - وافقَ على ذلك، وكذلك روينا. . . الأمر متروك لك، حقاً، أليسيا. ما هو رأيك؟».

انتظرت. حدّقَت في وجهي.

ثم، أخيراً، حصلتُ على ما أردت - ردّ فعل محدَّد - علامة أخبرتني أنني كنت على الطريق الصحيح.

كانت حركة صغيرة. صغيرة حقاً. ومع ذلك، تعبِّر كثيراً.

ابتسمَت أليسيا.

26

كان المقصف أدفأ غرفة في ذا غروف. كانت أنابيب التدفئة المركزية مركّبة على الجدران. وكانت المقاعد الأقرب إليهم مملوءة دائماً قبل الأخرى. وكان وقت الغداء أكثر ازدحاماً، حيث الموظفين والمرضى يأكلون جنباً إلى جنب. أحدثت الأصوات المرتفعة للحاضرين ضوضاء عارمة، ناتجة عن الإثارة غير المريحة التي تحدث عندما يكون جميع المرضى في المكان نفسه.

كانت مجموعة من السيّدات الكاريبيات المرحات يضحكن ويتحدّثن وهنّ يقدّمن البطاطس المفرومة والسمك والبطاطس المقلية والدجاج واللَّحم والخُضر؛ كانت رائحة الأكل أفضل من مذاقه. اخترتُ السمك والبطاطس المقلية باعتبارها الأقل ضرراً. في طريقي للجلوس، مررت بإليف. كانت مُحاطة بعصابتها، طاقم من أصعب المريضات القويات البنية. كانت تشكو من الطعام عندما كنت أمشي بالقرب من طاولتها.

«أنا لا آكل هذا القرف»، قالت ودفعت صينيتها بعيداً. سحبَت المريضة إلى يمينها الصينية باتجاهها مستعدّة لأخذها - ولكن إليف ضربتها على رأسها.

«كلبة جشعة»، هتفت إليف. «أرجعي إليّ صينيتي».

أحدثَ هذا قهقهة عالية حول الطاولة. سحبَت أليف صحنها وأكلت وجبتها باستمتاع متجدِّد.

رأيت أليسيا جالسة لوحدها في الجزء الخلفي من الغرفة. كانت تلتقط قليلاً من الأسماك مثل طائر فاقد للشهية؛ تحرّك يدها حول الصحن ولكن لا تجلب الأكل إلى فمها. كانت لي رغبة على نحو ما في الجلوس معها لكنني قررت عدم فعل ذلك. ربما لو كانت قد نظرت إليّ ووقعَ اتصال بالعين، لكنت ذهبت إليها، لكنها كانت تنظر إلى الأسفل، كما لو كانت تحاول حجب المناطق المحيطة بها ومن يجلس حولها. كنت أحس وكأن غزواً للخصوصية سيحدث، لذلك جلست في نهاية طاولة أخرى، على بعد مسافة قليلة من المرضى، وبدأت في تناول السمك والبطاطس المقلية. أكلتُ فقط قدراً قليلاً من السمك اللزج، الذي كان لا طعم له، أعيد تسخينه ولكن لا يزال بارداً في الداخل. كنت أتّفق مع تقييم إليف. كنت على وشك رميها في سلة المهملات، عندما جلس أحدهم أمامي.

لدهشتي، كان كريستيان.

«كل شيء على ما يرام؟»، قال بإيماءة.

«نعم، وأنت؟».

لم يردّ كريستيان. التهمَ بكلّ تصميم الأرز الصلب واللَّحم والخُضراوات. «سمعتُ عن خطّتك لجعل أليسيا ترسم»، قال بين اللُّقمات.

«أرى أن الأخبار تنتقل بسرعة».

«يحدثُ هذا في هذا المكان. هل هي فكرتك؟».

ترددتُ. «فكرتي، نعم. أعتقد أنه سيكون جيّداً بالنسبة إليها».

نظرَ إليّ كريستيان نظرة شكّ. «كُن حذراً، رفيقي».

«شكراً على التنبيه. لكنه غير ضروري إلى حدٍّ ما».

«أنا فقط أخبرك. الأشخاص المصابون باضطراب الشخصية الحدّية مُغرون. هذا ما يحدث هنا. لا أعتقد أنك تفهم ذلك تماماً».

«لن تغريني، يا كريستيان».

ضحكَ. «أعتقد أنها بالفعل قامت بإغرائك. أنت تمنحها ما تريد بالضبط».

«أنا أعطيها ما تحتاج إليه. هناك فرق».

«كيف تعرف احتياجاتها؟ أنت مُبالِغ في تحديدك لحالتها. هذا واضح. إنها هي المريضة، كما تعرف - وليس أنت».

نظرتُ إلى ساعتي في محاولة لإخفاء غضبي. «يجب أن أذهب». وقفتُ، والتقطت صينيتي. بدأت في المشي بعيداً لكن كريستيان ناداني.

قال: «سوف تهاجمك، يا ثيو. توقّع ذلك. لا تقل أنني لم أحذّرك».

شعرتُ بالضيق. وبقي الانزعاج معي للباقي من اليوم.

بعد العمل، غادرتُ ذا غروف وذهبتُ إلى المتجر الصغير في نهاية الطريق، لشراء علبة سجائر. وضعتُ سيجارة في فمي، أشعلتها ودخّنت بعمق، بالكاد واعياً بما أفعل. كنت أفكّر فيما قاله كريستيان، أراجعُ ما قاله في ذهني بينما كانت السيارات تسرع بجانبي. «الأشخاص المصابون باضطراب الشخصية الحدّية مُغرون»، كنت أسمعه يقول ذلك بداخلي.

هل هذا صحيح؟ هل كان ذلك سبب انزعاجي الشديد؟ هل

أغرتني أليسيا عاطفياً؟ كان من الواضح أن كريستيان يعتقدُ ذلك؛ ولا شكّ أن ديوميديس يشتبهُ في ذلك. هل كانوا على حقّ؟

بحثت في ضميري، وشعرت بالثقة بأن الإجابة هي لا. كنت أرغب في مساعدة أليسيا، نعم - ولكنني كنت قادراً تماماً على البقاء موضوعياً تجاه حالتها، ويقظاً، وأن أخطو بحذر، وأن أحتفظ بحدودٍ ثابتة.

كنت مخطئاً، بطبيعة الحال. كان بالفعل اكتشاف متأخّر جداً. رغم أنني لن أعترف بذلك، حتى لنفسي.

اتصلتُ بجان-فيليكس في المعرض. سألتُ عمّا حدث لموادّ أليسيا الفنية - صباغاتها وفُرَشها وقماشها. «هل كل شيء ما زال مخزّناً؟».

كان هناك توقُّف طفيف قبل أن يجيب.

«حسناً، لا، فعلاً... لدي جميع المواد الخاصة بها».

«حقاً؟».

«نعم، فعلاً. قمت بإخلاء مرسمها بعد المحاكمة - واحتفظتُ بكل شيء يستحق الإبقاء عليه - كلّ رسوماتها الأولية، دفاترها، وحامل اللوحات، وزيوتها - أقوم بتخزينها كلها من أجلها».

«هذا لطف منك».

«هل قمت بتنفيذ نصيحتي؟ هل سمحت لأليسيا بالرسم؟».

«نعم»، قلت. «تبقى نتيجة ذلك رهينة باستجابتها في المستقبل».

«أوه، ستكون هناك نتيجة. سوف ترى. كل ما أطلبه هو السماح لي بإلقاء نظرة على اللوحات الكاملة».

كانت هناك نبرة جوع غريبة في صوته. رأيتُ صورة مفاجئة للوحات أليسيا ملفوفة مثل الأطفال في البطانيات في غرفة التخزين. هل كان حقاً يحافظ على سلامتها من أجلها؟ أو لأنه لا يستطيع تحمُّل التخلّي عنها؟

«هل تمانع في إيصال هذه المواد إلى ذا غروف؟»، قلت. «هل هذا مناسب لك؟».

«أوه، أنا -».

كان هناك تردُّد للحظة. شعرتُ بقلقه. وجدتُ نفسي أتطوّع لإنقاذه.

«أو يمكنني تسلُّمها منك إذا كان ذلك أسهل؟».

وقال: «نعم، نعم، ربما يكون ذلك أفضل».

كان جان-فيليكس خائفاً من المجيء إلى هنا، خائفاً من رؤية أليسيا. لماذا؟ ماذا حدث بينهما؟

ما الذي لم يكن يرغب في مواجهته؟

27

سألتُ: «ما هو الوقت الذي ستلتقي مع صديقتك؟».

«الساعة السابعة. بعد البروفة». سلّمتني كاثي فنجان القهوة.

«إذا كنت لا تستطيع تذكّر اسمها، ثيو، فهو نيكول».

«صحيح». قلت بتثاؤب.

أعطتني كاثي نظرة صارمة. «أنت تعرف، إنه مهين بعض الشيء أن لا تتذكرها - إنها واحدة من أفضل صديقاتي. ذهبتَ إلى حفلة توديعها، ما هذا الهراء».

«بالطبع أتذكر نيكول. لقد نسيت اسمها، هذا كل شيء».

أدارت كاثي عينيها. «أياً كان الأمر. مدخّن الحشيش. سآخذ حمّاماً»، قالت، وخرجت من المطبخ.

ابتسمتُ لنفسي.

الساعة السابعة.

على الساعة السابعة إلا خمس عشرة دقيقة، مشيتُ على طول النهر نحو فضاء البروفة على الضفّة الجنوبية.

جلستُ على مقعد على الجهة الأخرى من الطريق حيث توجد

قاعة البروفة، أراقبُ المدخل عن بُعد، حتى لا تراني كاثي على الفور إذا غادرَت مبكّراً. من حين إلى آخر كنت أدير رأسي وأرى من فوق كتفي. لكن الباب بقي مغلقاً بعناد.

ثم بعد ذلك، في السابعة وخمس دقائق، فُتح الباب. كان هناك صوت محادثة جارية وضحك عندما غادر الممثّلون القاعة. تجوّلوا بالخارج في مجموعات من اثنين أو ثلاثة أفراد. لم يكن هناك أثر لكاثي.

انتظرتُ لخمس دقائق. عشر دقائق. توقّف تقاطُر الممثلين، ولم يخرج أي شخص آخر. من الأكيد أنني لم أصل في الوقت. يجب أن تكون قد غادرت قبل وصولي. وإلا فإنها بالطبع لم تكن هنا على الإطلاق؟

هل كانت تكذب حول موضوع البروفة؟

نهضت واتّجهتُ نحو المدخل. كنت في حاجة إلى التأكُّد. إذا كانت لا تزال بالداخل ورأتني، ماذا سيحصل؟ ما العذر الذي يمكن أن أقدّمه لوجودي هناك؟ سأفاجئها؟ نعم - سأقول إنني هنا لأخذها و«نيكول» لتناول وجبة عشاء. وسوف تراوغ كاثي وتكذب لتجدَ طريقاً للخروج من الورطة بعذر سخيف - «نيكول مريضة، ألغت نيكول الموعد» - وهكذا كنت في نهاية المطاف سأقضي أنا وكاثي مساء غير مريح معاً. مساء آخر من لحظات الصمت الطويلة.

وصلت إلى المدخل. ترددت، أمسكتُ المقبض الأخضر الصدئ، وفتحت الباب. ذهبت إلى الداخل.

كان الداخل خَرَسانة عارية. كانت هناك رائحة الرطوبة. وكان فضاء بروفة كاثي في الطابق الرابع - كانت تشتكي من اضطرارها إلى تسلُّق السلالم كل يوم - لذلك صعدت الدرجَ الرئيس. وصلت

إلى الطابق الأول، وبدأت في الصعود إلى الثاني - عندما سمعت صوتاً على الدرج، قادم من الطابق الموالي. كانت كاثي. كانت تتكلّم على الهاتف: «أعرف، أنا آسفة. سأراك قريباً. لن أتغيّب طويلاً. حسناً، حسناً، إلى اللقاء».

جمدت في مكاني - كنا على بُعد ثوانٍ من الاصطدام بعضنا ببعض - ثم قمت بإسراع الخطوات، واختبأت في الزاوية. مرَّت كاثي دون أن تراني. خرجَت وأغلقت الباب بقوة.

تبعتها بسرعة وغادرت المبنى. كانت كاثي تمشي بعيداً، وتتحرّك بسرعة، نحو الجسر. تبعتها، أشقُّ طريقي بين المسافرين والسُّيّاح، محاولاً أن أبقى بعيداً دون أن أفقدها.

عبرَت الجسر ونزلَت الدرج إلى محطة ركوب المترو. ذهبتُ وراءها، متسائلاً عن الخطّ الذي ستأخذه.

لكنها لم تركب المترو. بدلاً من ذلك، عبرت المحطة وخرجت من الجانب الآخر. واصلت المشي نحو طريق تشارينغ كروس. تبعتها. وقفتُ على بُعد بضع خطوات وراءها في إشارات المرور. ثم عبرنا الطريق، وتوجّهنا إلى سوهو. مشيتُ خلفها على طول الشوارع الضيِّقة. دارت يميناً، ثم إلى اليسار، ثم يميناً مرة أخرى. ثم توقّفَت فجأة. وقفت على زاوية شارع ليكسينغتون. وانتظرَت.

إذاً كان هذا هو مكان اللقاء. مكان جيّد - مركزي، مُزدحِم، مجهول. تردّدتُ، وتسللتُ إلى حانة في الزاوية. أخذت موقعاً على المشرَب. كنت أرى كاثي بوضوح من خلال نافذة عبر الطريق. نظر إليّ الساقي، له لحية ويشعرُ بالضجر، وقال: «نعم؟».

«نصف لتر. غينيس».

تثاءب وذهب إلى الجانب الآخر من المشرَب ليصبَّ نصف

لتر. ظللتُ أراقب كاثي. كنت على يقين من أنها لن تكون قادرة على رؤيتي من خلال النافذة حتى لو نظرت في هذا الاتجاه. في لحظة ما نظرت كاثي - مباشرة في وجهي. توقّف قلبي للحظة - كنت على يقين من أنها رأتني - ولكن لا، جنحَت ببصرها.

مرّت الدقائق، وما زالت كاثي تنتظر. وانتظرتُ كذلك، أشرب البيرة ببطء، وأراقب. كان يأخذ وقته، أياً كان الذي تنتظره. لم تكن تحب ذلك. لم تكن كاثي تحب أن تنتظر - على الرغم من أنها كانت متأخِّرة على الدوام. كنت أراها وهي تنزعج، وتعبس وتتحقّق من ساعتها.

ثم عبرَ رجل الطريق نحوها. في الثواني القليلة التي استغرقها عبوره للشارع، كنت بالفعل قد تمكّنت من معرفة شكله وتقييمه. كان قوي البنية، ذا شعر أشقر متدلٍّ على كتفيه، الأمر الذي فاجأني لأن كاثي كانت تقول لي دائماً إنها تحبّ الرجال ذوي الشَّعر الأسود وعينين مثل عينَي، إلا إذا كان ذلك بالطبع كذبة أخرى.

لكن الرجل مرَّ بجنبها. حتى أنها لم تنظر إليه. اختفى بعد وقت قصير. إذاً لم يكن هو. كنت أتساءل عمّا إذا كانت كاثي وأنا نفكّر في الشيء نفسه - هل أخلفَ الموعد؟

ثم اتّسعت عينَيها فرحاً. ابتسمَت. لوّحَت عبر الشارع لشخص كان بعيداً عن الأنظار. أخيراً، فكرت. إنه هو. مددتُ رقبتي إلى الأمام لأرى -

ولدهشتي، كانت شقراء متقنة المظهر، حوالي ثلاثين سنة من العمر، ترتدي تنورة قصيرة جداً وكعبَين عاليَين بشكلٍ غير مناسب، تتمايل نحو كاثي. عرفتها في الحال. إنها نيكول. حيتا بعضهما

البعض بعناق وقبلات. ذهبتا معاً، تتحدّثان وتضحكان، الذراع في الذراع. لم تكن كاثي قد كذبت بشأن لقاءها بنيكول.

شعرتُ بصدمة - كان يجب عليّ أن أشعر بالارتياح الشديد لأن كاثي كانت تقول الحقيقة. كان يجب عليّ أن أكون ممتنّاً. لكنني لم أكن كذلك.

خابَ أملي.

28

«حسناً، ما رأيك يا أليسيا؟ الكثير من الضوء، إيه؟ هل تحبّين ذلك؟».

عرضَ يوري الاستوديو الجديد بفخر. كانت فكرته أن نستعملَ الغرفة غير المستخدَمة بجانب «غولد فيش بول»، ووافقتُ على ذلك - بدت فكرة أفضل من مشاركة روينا غرفتها للعلاج الفني، التي، نظراً إلى عدائها الواضح، ستخلقُ بعض الصعوبات. الآن يمكن لأليسيا أن تملك غرفة خاصة بها، ولها كامل الحرية أن ترسم متى شاءت دون انقطاع.

نظرَت أليسيا حولها. تمَّ تفكيك الحامل ووضعه بجانب النافذة، حيث كان هناك معظم الضوء. كان صندوق زيوتها مفتوحاً على الطاولة. غمزَني يوري عندما اقتربَت أليسيا من الطاولة. كان متحمّساً لهذا المخطَّط لجعل أليسيا ترسُم، وكنت ممتنّاً له لدعمه - كان يوري حليفاً مفيداً، لأنه كان العضو الأكثر شعبية في فريق الموظفين؛ لدى المرضى، على أي حال. أومأ لي، قائلاً: «حظّ سعيد، أنت وحدك الآن». ثم غادر. أغلق الباب بقوة. لكن لا يبدو أن أليسيا كانت تسمع.

كانت في عالمها الخاص، منحنية على الطاولة، وتفحص لوحاتها بابتسامة صغيرة على وجهها. التقطت الفُرَش السوداء وداعبتهم كما لو أنها كانت زهوراً مرهفة. قامت بإخراج ثلاثة أنابيب من الزيوت - الأزرق البروسي، الأصفر الهندي، وأحمر الكادميوم - ورتّبتهم. ثم التفتت إلى القماش الفارغ على الحامل. تأملَته. وقفت هناك لفترة طويلة من الزمن. بدت وكأنها تدخل نوعاً من الغيبوبة، من الحُلم، رحلَ عقلها إلى مكان آخر، هربت بطريقة ما، سافرت بعيداً خارج هذه الغرفة - ثم أخيراً خرجَت من تلك الحالة، وعادت إلى الطاولة. أفرغَت بعض الصِّباغ الأبيض على لوحة الألوان ودمجتها مع كمية صغيرة من اللون الأحمر. كان عليها خلط الأصبغة بفُرشاة الرسّام: لأنه تمّت مصادرة سكاكين خلط الألوان على الفور عند وصولها إلى ذا غروف من طرف ستيفاني لأسباب واضحة.

رفعَت أليسيا الفُرشاة إلى القُماش - ورسمت علامة. ضربة حمراء واحدة من الصِّباغ في منتصف المساحة البيضاء.

تأمّلَت ذلك للحظة. ثم رسمَت علامة أخرى. ثم أخرى. سرعان ما كانت ترسم اللوحة من دون توقف أو تردُّد، بليونة كاملة للحركة. كان هناك نوع من الرقص بين أليسيا والقماش. وقفتُ هناك، أشاهد الأشكال التي كانت تخلقها.

بقيتُ صامتاً، نادراً ما أتجرّأ على التنفس. شعرت وكأنني كنت موجوداً في لحظة حميمة، وأشاهد حيواناً برّياً في لحظة ولادة. وعلى الرغم من أن أليسيا كانت على علم بوجودي، إلا أنها لم تكن تبدو أنها تبالي. كانت ترفع بصرها في بعض الأحيان، بينما هي ترسم، وتنظر إليّ.

تقريباً كما لو أنها كانت تدرُسني.

خلال الأيام القليلة التالية بدأت اللوحة تتشكّل ببطء، بشكل غير مضبوط في البداية، ولكن مع زيادة في الوضوح - ثم ظهرت اللوحة من القماش كانفجار لإشراق متألِّق لصورة واقعية.

لقد رسمت أليسيا مبنى من الطوب الأحمر، وهو مصحّة - ذا غروف من دون شكّ. كانت النار مُشتعلة فيه، وحُرق بأكمله. كان هناك شخصان واضحان أثناء الهروب من الحريق. رجل وامرأة يهربان من النار. كانت المرأة أليسيا، شعرها الأحمر بلون النيران نفسه. عرفت أن الرجل هو أنا. أحملُ أليسيا على ذراعَي، وأمسك بها عالياً بينما النار تغطّي كاحلَي.

لم أتمكّن من معرفة ما إذا كنت قد صُوِّرت في عملية إنقاذ لأليسيا - أو كنت على وشك رميها في النيران.

29

قالت: «هذا أمر مثير للسخرية. كنت آتي هنا منذ سنوات ولا أحد قال لي على الإطلاق أن أتصل قبل المجيء. لا أستطيع أن أنتظر كلَّ اليوم. أنا شخص مشغول للغاية».

كانت امرأة أميركية تقف بجانب مكتب الاستقبال، تشكو بصوت عالٍ إلى ستيفاني كلارك. تعرّفت إلى باربي هيلمان من الصحف والتغطية التلفزيونية لعملية القتل. كانت جارة أليسيا في هامبستيد، المرأة التي سمعَت الطلقات النارية ليلة مقتل غابرييل واتّصلت بالشرطة.

كانت باربي امرأة شقراء من كاليفورنيا في منتصف الستينيات من عمرها، ربما كانت أكبر سنّاً. كانت رائحة شانيل رقم 5 تنبعث منها بقوة، وكان على وجهها الكثير من آثار الجراحات التجميلية. اسمها مناسب لها - بدت مثل دمية باربي المندهشة. كان من الواضح أنها امرأة من النوع الذي اعتاد الحصول على ما يريد - وهذا يفسِّرُ احتجاجاتها العالية في مكتب الاستقبال عندما اكتشفَت أنه من الضروري أخذ موعد لزيارة المريض.

قالت بحركة كبيرة: «دعني أتحدث إلى المدير». كما لو كان

هذا مطعماً، بدلاً من وحدة للطبّ النفسي. «هذا سخيف. أين هو؟».

«أنا المديرة، سيدة هيلمان»، قالت ستيفاني. «لقد التقينا من قبل».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بتعاطُف شديد مع ستيفاني. كان من الصعب أن لا أشفق عليها لأنها كانت في مواجهة هجمة باربي. تحدّثَت باربي كثيراً وتحدّثَت بسرعة، ولم تترك أي لحظات توقُّف، لتعطي خصمها أي وقت للردّ.

«حسناً، لم تذكري أي شيء عن أخذ موعد من قبل». ضحكت باربي بصوت عالٍ. «بحق الربّ، أصبح الحصول على طاولة في مطعم ذا إيفي أسهل».

التحقت بهم وابتسمتُ لستيفاني ببراءة.

«هل يمكنني المساعدة؟».

نظرت إليّ ستيفاني بنظرة غاضبة. «لا، شكراً. يمكنني تدبير الأمر».

تفحّصتني باربي مع بعض الاهتمام. «من أنت؟».

«أنا ثيو فابر. معالِج أليسيا».

«أوه، حقاً؟»، قالت باربي. «كم هو مثير للاهتمام». كان من الواضح أنه يمكنها التواصُل مع المعالجين؛ على عكس مديري الأجنحة. انطلاقاً من تلك اللحظة، تكلّمت معي فقط، وعاملَت ستيفاني كما لو لم تكن أكثر من موظّف استقبال. يجب أن أعترف أن ذلك أعجبني بكلّ خبث.

قالت باربي: «يجب أن تكون جديداً هنا، لأننا لم نلتقِ من قبل؟»، فتحت فمي للردّ لكنها واصلت الكلام. «أنا عادة ما كنت

آتي كل بضعة أشهر أو نحو ذلك - تركتها أطول قليلاً هذه المرة. كنت في سفر إلى الولايات المتحدة الأميركية لزيارة عائلتي - ولكن بمجرّد عودتي، فكرت أنه يجب عليّ أن أزور أليسيا - أشتاق إليها كثيراً. كانت أليسيا صديقتي المفضّلة، كما تعلم».

«لا، لم أكن أعلم».

«آه أجل. عندما انتقلوا إلى المنزل المجاور، ساعدتُ أليسيا وغابرييل على الاستقرار في الحي. أصبحت أنا وأليسيا قريبتَين للغاية. كنا نخبر بعضنا البعض حول كل شيء».

«أرى ذلك».

ظهرَ يوري في قاعة الاستقبال، وأشرت إليه.

قلت: «السيدة هيلمان هنا لترى أليسيا».

«ناديني باربي، عزيزي. أنا ويوري صديقان قديمان»، قالت، وغمزت يوري. «لنرجع إلى الموضوع. ليس هذا الشخص هو المشكل. إنها هذه السيدة هنا -».

قامت باربي بحركة رافضة لموقف ستيفاني التي وجدت الفرصة أخيراً للتكلُّم.

«آسفة سيدة هيلمان»، قالت ستيفاني. «لكن سياسة المصحّة تغيّرت منذ كنت هنا آخر مرة. شدّدنا سياستنا الأمنية. من الآن فصاعداً عليك أن تأخذي موعداً بالهاتف قبل——».

«أوه يا إلهي، هل يجب أن نعيد الشيء نفسه مرة أخرى؟ سأصرخ إذا كان عليّ أن أسمع هذا مرة أخرى. وكأن الحياة ليست معقّدة بما فيه الكفاية».

استسلمَت ستيفاني وتولّى يوري قيادة باربي. تبعته.

دخلنا غرفة الزوار وانتظرنا أليسيا. كانت غرفة عارية - طاولة

وكرسيان، لا نوافذ وكان ضوء الفلوريسنت أصفر باهتاً. وقفت في الخلف وشاهدت أليسيا تظهر عند الباب الآخر، ترافقها ممرّضتان. لم تكشف أليسيا عن أي ردّ فعل واضح لرؤية باربي. مشت إلى الطاولة، وجلست دون رفع بصرها. بدت باربي، من ناحية أخرى، أكثر عاطفية.

«أليسيا، عزيزتي، لقد اشتقتُ إليك. أنت نحيفة للغاية، فقدتِ الكثير من الوزن. أنا غيورة جداً. كيف حالك؟ تلك المرأة الفظيعة لم تسمح لي برؤيتك. لقد كان **كابوساً** –».

وهكذا استمرّ الحديث، تدفُّق لا نهاية له من الثرثرة المذهِلة من باربي، تفاصيل رحلتها إلى سان دييغو لزيارة والدتها وشقيقها. جلست أليسيا هناك، صامتة، وجهها قناع لا يكشف عن أي شيء، ولا يُظهر شيئاً. بعد حوالي عشرين دقيقة، انتهى المونولوج أخيراً. قادَ يوري أليسيا بعيداً، غير مهتّمة كما كانت عندما دخلَت إلى الغرفة.

اقتربتُ من باربي وهي تغادر ذا غروف. «هل أستطيع أن أتحدّث معك؟»، قلت.

أومأَت باربي موافِقة، كما لو أنها كانت تتوقّع ذلك.

«تريد التحدّث معي عن أليسيا؟ لوقت طويل لم يسألني أي شخص أي أسئلة. لم تُرد الشرطة سماع أي شيء – أمر غير معقول، لأن أليسيا كانت تثق بي كل الوقت، أنت تعرف؟ وأخبرتني حول كل شيء. أخبرتني عن أشياء لن **تصدّقها**».

قالت باربي هذا بتأكيد واضح وأعطتني ابتسامة خجولة. كانت تعرف أنها قد أثارت اهتمامي.

قلت: «مثل ماذا؟».

ابتسمت باربي بشكلٍ خفي، وسحبَت معطف الفرو. «حسناً، لا أستطيع مناقشة ذلك الآن. لقد تأخّرت بما فيه الكفاية. تعال لزيارتي هذا المساء - لنقل الساعة 6 مساءً؟».

لم أفرح لإمكانية زيارة باربي في منزلها - آمل بصدق أن لا يكتشف ديوميديس ذلك. لكن لم يكن لدي أي خيار - أردت أن أكتشف ما تعرفه. تصنَّعت ابتسامة.

«ما هو عنوانك؟».

30

كان منزل باربي واحداً من عدة منازل على الجانب الآخر من الطريق المحادية لحديقة هامبستيد هيث، وكانت تطلُّ على واحدة من البِرَك. كان المنزل كبيراً، ونظراً إلى موقعه فقد كانت قيمته العقارية ربما عالية جداً.

كانت باربي تعيش في هامبستيد لعدة سنوات قبل أن ينتقل غابرييل وأليسيا إلى المنزل المجاور. كان زوجها السابق يشتغلُ كمصرفي استثماري وكان ينتقل بين لندن ونيويورك حتى وقع الطلاق بينهما. وجدَ لنفسه نسخة أصغر سنّاً من زوجته - وحصلَت باربي على المنزل. «وبالتالي»، قالت ضاحكة، «كان الجميع سعداء. خاصة أنا».

كان منزل باربي مصبوغاً باللون الأزرق الفاتح، على عكس المنازل الأخرى في الشارع، والتي كانت بيضاء. كانت حديقتها الأمامية مزيَّنة بالأشجار الصغيرة والنباتات.

استقبلَتني باربي عند الباب.

«أهلاً عزيزي. أنا سعيدة لأنك وصلت في الوقت المحدَّد. هذه علامة جيّدة. تفضّل من هنا».

تبعتها عبر الرُّدهة إلى غرفة الجلوس. كانت رائحة المنزل تشبه رائحة خيمة دافئة مليئة بالنباتات والزهور: الورود والزنابق والزهور في كلّ مكان. اللوحات والمرايا والصور المؤطَّرة على الجدران؛ كانت التماثيل الصغيرة والمزهريات وتُحف فنية أخرى تتنافس على فضاء الطاولات والخزانات. جميع العناصر باهظة الثمن، ولكنها، مكتظّةً بهذه الطريقة، تشبهُ النفايات. على اعتبار أنها تمثيل لعقل باربي، فإنها توحي بوجود عالم داخلي غير منظَّم، فهذا أقل ما يمكن قوله. جعلني هذا أفكّر في الفوضى، الرُّكام، الجشع - الجوع النهِم. تساءلتُ عن كيف كانت طفولتها.

أزحتُ اثنتين من الوسائد المزيّنة لإفساح بعض المجال وجلستُ على الأريكة الكبيرة وغير المريحة. فتحَت باربي خزانة المشروبات وأخذت كأسَين.

«الآن ماذا تريد أن تشرب؟ تبدو وكأنك تحب الويسكي. كان زوجي السابق يشرب غالوناً من الويسكي في اليوم. قال إنه كان بحاجة إلى ذلك كي يتحمّلني»، ضحكَتْ. «أنا متذوّقة للنبيذ، في الواقع. ذهبت إلى مسابقة في منطقة بوردو في فرنسا. لدي أنف ممتاز».

توقّفَت للتنفُّس واغتنمتُ الفرصة للتحدُّث ما دام لدي الفرصة. «لا أحب الويسكي. أنا لست شارباً كبيراً. . أشرب البيرة أحياناً، حقّاً».

«أوه»، بدَت باربي متضايقة. «ليس لدي أي بيرة».

«حسناً، هذا جيّد، لست بحاجة إلى مشروب -».

«حسناً، أنا أرغب في ذلك. لأتذكّر الأيام الخوالي».

سكبت باربي لنفسها كأساً كبيرةً من النبيذ الأحمر وجلسَت على الأريكة منحنية على ركبتيها كما لو كانت تستعدّ لدردشة جيدة.

قالت بابتسامة غزلية: «أنا مستعدّة لسماعك. ماذا تريد أن تعرف؟».

«لدي بعض الأسئلة، إذا كان هذا جيّداً بالنسبة إليك».

«حسناً، ابدأ استجوابك».

«هل ذكرت لك أليسيا يوماً ما زيارتها لطبيب؟».

«طبيب؟» بدت مستغربة من هذا السؤال. «هل تعني معالِجاً نفسياً؟».

«لا، أعني طبيباً».

«أوه، حسناً، أنا لا...» تراجعَت باربي وتردّدت. «في الواقع، الآن وأنت تذكر هذا الأمر، نعم، كان هناك شخص ما كانت تراه...».

«هل تعرفين الاسم؟».

«لا، لكنني أتذكر أنني أخبرتها عن طبيبي، الدكتور مونكس، طبيب عجيب فعلاً. يكفيه فقط أن ينظر إليك، ليخبرك بمشكلتك مباشَرة ويخبرك عمّا يجب عليك أن تأكل. إنه لأمر مدهش -» تابعت لفترة طويلة شرحاً معقّداً للمتطلّبات الغذائية المطلوبة من قِبل طبيبها، وإصراره على أن تقوم بزيارته قريباً. بدأتُ أفقد الصبر. استغرقَ الأمر بعض الجهد لإعادتها إلى الطريق.

«هل رأيت أليسيا يوم جريمة القتل؟».

«نعم، ساعات قليلة قبل حدوثها».

ارتشفَت نبيذاً أكثر. «ذهبت لرؤيتها. اعتدت على زيارتها كل الوقت، لتناول القهوة - حسناً، كانت تشرب القهوة، وعادة ما كنت

آخذ زجاجة من شيء ما. كنا نتحدث لساعات. كنا قريبتَين جداً، كما تعرف».

هذا ما تظلين تقولينه، فكرت. لكنني كنت قد شخّصتُ باربي تقريباً كامرأة نرجسية تماماً. شكّكت في أنها كانت قادرة على التواصُل مع الآخرين باستثناء خدمة مصالحها الخاصة. تخيّلتُ أنها لم تتحدّث مع أليسيا كثيراً خلال هذه الزيارات.

«كيف تصفين حالتها العقلية بعد ظهر ذلك اليوم؟».

هزّت باربي كتفَيها. «بدت جيّدة. كان لديها صداع سيّئ، هذا كل شيء».

«لم تكن متوتّرة على الإطلاق؟».

«هل يجب أن تكون كذلك؟».

«حسناً، بالنظر إلى الظروف...».

نظرَت إليّ باربي نظرة اندهاش. «أنت لا تعتقد أنها مذنبة، أليس كذلك؟ يا عزيزي - اعتقدت أنك كنت أكثر ذكاء من ذلك».

«أخشى أنني لست كذلك».

«لم تكن أليسيا قاسية بما يكفي لقتل أي شخص. لم تكن القاتل. صدّقني. إنها بريئة. أنا متأكّدة مئة في المئة».

«أريدُ أن أعرف كيف يمكنك أن تكوني متأكِّدة للغاية، بالنظر إلى الأدلّة...».

«أنا لا أعطي هذا الأمر أي قيمة. لدي أدلّة خاصة بي».

«حقاً؟».

«بكل تأكيد. لكن أولاً... أحتاج إلى معرفة ما إذا كان بإمكاني الوثوق بك». بحثَت عينا باربي في عينَي بنهم. قابلتُ نظراتها بثبات. ثم كشفَت السرّ، بهذه الطريقة: «كان هناك رجل».

«رجل؟».

«نعم فعلاً. كان يراقبها».

فوجئت قليلاً، وكنت في حالة تأهُّب على الفور.

«ماذا تقصدين، يراقب؟».

«هذا ما قلته. يراقب. قلت ذلك للشرطة، لكنهم لم يبدوا أي اهتمام. قرّروا مَن القاتل في اللحظة التي وجدوا فيها أليسيا بالقرب من جثّة غابرييل والمسدّس. لم يريدوا الاستماع إلى أي قصة أخرى».

«ما القصة - بالضبط؟».

«سأخبرك. وسترى لماذا أردتك أن تأتي إليّ هذه الليلة. الأمر يستحق الاستماع».

فقط أكملي القصة، فكّرتُ. ولكنني لم أقل شيئاً، وابتسمت مشجِّعاً.

ملأَت الكأس ثانية. «بدأ الأمر قبل أسبوعَين من جريمة القتل. ذهبت لرؤية أليسيا، تناولنا مشروباً، ولاحظتُ أنها أكثر هدوءاً من المُعتاد - قلت: «هل أنت بخير؟» وبدأت تبكي. لم أرَها هكذا من قبل. بكت كثيراً. كانت عادة متحفِّظة للغاية، كما تعلم... لكنها في ذلك اليوم باحَت بكل شيء. لقد كانت في حالة سيّئة للغاية، عزيزتي، في حالة سيّئة حقاً».

«ماذا قالت؟».

«سألتني ما إذا كنت قد لاحظت أي شخص يتسكّع في الحي. شاهدَت رجلاً في الشارع يراقبها». تردّدَت باربي. «سأريك. لقد بعثَت بهذه الرسالة إليّ».

مدّت يديها المشذّبتين إلى هاتفها وبحثت من خلال صورها فيه. ثم دفعت الهاتف في وجهي.

حدّقتُ في ذلك. استغرقَ الأمر مني ثانية لفهم ما كنت أراه. صورة غير واضحة لشجرة.

«ما هذا؟».

«ماذا ترى؟».

«شجرة؟».

«خلف الشجرة».

خلف الشجرة، كان هناك نقطة رمادية - كان يمكن أن تكون أي شيء، من عَمود إنارة إلى كلب كبير.

قالت: «إنه رجل. يمكنك رؤية شكله بوضوح تام».

لم أكن مقتنعاً، لكنني لم أجادل. لم أكن أريد أن أشتّت انتباه باربي.

قلت لها: «استمرّي».

«هذا كل شيء».

«لكن ماذا حدث؟».

هزّت باربي كتفَيها. «لا شيء. طلبتُ من أليسيا أن تخبرَ رجال الشرطة - وكان ذلك عندما اكتشفت أنها لم تخبر زوجها بهذا الأمر».

«لم تخبر غابرييل؟ لمَ لا؟».

«لا أدري، لا أعرف. شعرَت أنه لم يكن ذلك الشخص المتعاطِف - على أي حال. أصررت على أن تخبر الشرطة. أعني ماذا عني أنا؟ ماذا عن سلامتي؟ رجل يتجوّل بالخارج - وأنا امرأة

أعيش وحدي، كما تعرف؟ أريد أن أشعرَ بالأمان عندما أذهب إلى الفراش ليلاً».

«هل اتّبعَت أليسيا نصيحتك؟».

هزّت باربي رأسها. «لا، لم تفعل. بعد أيام قليلة، أخبرتني أنها ستتحدث مع زوجها وقرّرَت أنها كانت تتخيّل كل شيء. قالت لي أن أنسى الأمر - وطلبَت مني أن لا أذكر ذلك لغابرييل إذا رأيته. لا أعرف بالتحديد، لكن الأمر كله بدا مشبوهاً بالنسبة إليّ. وطلبت مني حذف الصورة. لم أقم بذلك - لقد عرضتها على الشرطة عندما تمَّ القبض عليها. لكن لم يكونوا مهتمّين. لقد قرّروا بالفعل من القاتِل. لكنني كنت متأكّدة أن هناك سرّاً آخر في الموضوع. هل يمكنني إخبارك». خفضَت صوتها لتهمس لي بطريقة دراماتيكية. «كانت أليسيا **خائفة**».

قامت باربي بوقفة مثيرة، وشربت ما تبقّى من النبيذ. مدت يدها إلى الزجاجة.

«متأكّد أنك لا تريد مشروباً؟».

رفضتُ مرّة أخرى، وشكرتها، وقدمت أعذاري وغادرت. لم يكن هناك جدوى من البقاء أطول من ذلك؛ لم يكن لديها شيء آخر لتخبرني به. كان لدي ما يكفي من القضايا لأفكّر فيها.

كان الظلام قد حلَّ عندما غادرتُ منزلها. توقفت لحظة في الخارج بمحاذاة المنزل المجاور - منزل أليسيا القديم. تمَّ بيعه بعد وقت قصير من المحاكمة، وعاش زوجان يابانيان هناك. كانا - حسب باربي - ودودَين جداً. حاولَت التقرّب إليهما لكنهما قاوما. تساءلت عن كيف سيكون شعوري إذا عاشت باربي بالمنزل المجاور لي، وتزورنا باستمرار. تساءلت عن شعور أليسيا تجاهها.

أشعلتُ سيجارة وفكرت فيما سمعت للتوّ. إذاً أخبرَت أليسيا باربي أنها كانت تحت المراقبة. من المفترض أن الشرطة كانت تعتقد أن باربي كانت تبحث عن الاهتمام واختلقت هذا الأمر، وهذا هو السبب في أنهم تجاهلوا قصّتها. لم أفاجأ. كان من الصعب التعامُل مع باربي بجدّية.

و كان هذا يعني أن أليسيا كانت خائفة بما فيه الكفاية لطلب المساعدة من باربي – وبعد ذلك من غابرييل. ماذا حدث بعد ذلك؟ هل أخبرَت أليسيا شخصاً آخر؟ كنتُ بحاجة إلى معرفة ذلك.

تخيّلتُ صورة مفاجئة لنفسي عندما كنت طفلاً. صبي صغير قريب من نقطة الانفجار من القلق، أستبطنُ كل ما عندي من الرعب، كل ما عندي من ألم: أمشي باستمرار، مضطرباً وخائفاً. وحدي مع مخاوف من أبي المجنون. لا أحد أُخبره. لا أحد يستمع إليّ. من الأكيد أن أليسيا شعرت بالقدر نفسه من اليأس، وإلا فلم تكن لتخبر باربي أبداً.

شعرتُ بقشعريرة – وشعرت بزوج من العيون يراقبني من خلف رأسي.

درتُ في مكاني لأرى – لكن لم يكن هناك أحد. كنت وحيداً. وكان الشارع فارغاً، مظلّلاً وساكناً.

31

وصلتُ إلى ذا غروف في صباح اليوم التالي، أعتزمُ التحدّث إلى أليسيا حول ما قالته لي باربي. ولكن بمجرد دخولي قاعة الاستقبال، سمعتُ امرأة تصرخ. عواء من الألم يتردّد على طول الممرّات.

«ما هذا؟ ماذا يحدث هنا؟».

تجاهلَ حارس الأمن أسئلتي. ركض من جانبي نحو الجناح. تبعته. ارتفع صوت الصرخات عندما اقتربت. كنت آمل أن تكون أليسيا على ما يرام، وأن الأمر لا يتعلّق بها - ولكن بطريقة ما كان لدي شعور سيّئ.

درتُ على الزاوية. كان حشد من الممرّضات والمرضى وموظّفي الأمن متجمّعين خارج «غولد فيش بول». كان ديوميديس يتكلّم على الهاتف، ليطلب المسعفين. كان قميصه ملطّخاً بالدم - ولكن ليس دمه. كانت اثنتان من الممرّضات تجلسان على ركبهما على الأرض لمساعدة امرأة تصرخ. لم تكن المرأة أليسيا.

كانت إليف.

كانت إليف تتلوّى، وهي تصرخ من الألم وتمسكُ بوجهها

الدامي. كان الدم يتدفّق من عينها. كان هناك شيء ما يلتصق بالعين، مغروساً في مُقلة العين. بدا وكأنه عصا. لكنه لم يكن عصاً. عرفت في الحال ما هو. كانت فرشاة الرسم.

كانت أليسيا تقف بجانب الجدار، حيث كان يوري وممرّضة أخرى يمسكانها بإحكام. ولكن لم تكن هناك ضرورة لضبطها.

كانت هادئة تماماً، بلا حراك تماماً، مثل التمثال. ذكرني تعبيرها بحدّة باللوحة - **ألسيستيس**. فارغ، من دون تعبير، أجوف. كانت تحدّق مباشرة في وجهي.

ولأول مرّة، شعرتُ بالخوف.

32

«كيف حال إليف؟»، كنت أنتظر في «غولدن فيش بول»، وسألت يوري بمجرد عودته من جناح الطوارئ.

قال بتنهّد كبير: «مستقرّ. وهو أفضل ما يمكننا أن نأمل».

«أودُّ أن أراها».

«إليف؟ أو أليسيا؟».

«إليف أولاً».

أومأَ يوري. «إنهم يريدونها أن ترتاح الليلة، لكن في الصباح سوف آخذك إليها».

«ماذا حدث؟ هل كنت هناك؟ أفترض أنه تمَّ استفزاز أليسيا؟».

تنهّد يوري مرة أخرى وهزَّ كتفَيه. «لا أدري، لا أعرف. كانت إليف تتسكّع خارج مرسَم أليسيا. من الأكيد أنه كانت هناك مواجهة من نوع ما. ليس لدي أي فكرة عمّا كانتا تتقاتلان حوله».

«هل لديك المفتاح؟ دعنا نذهب ونلقي نظرة. لنرى ما إذا كان بإمكاننا أن نجدَ أي أدلة».

غادرنا «غولد فيش بول» وسرنا إلى مرسَم أليسيا. فتحَ يوري الباب بالمفتاح ودخلَ. أشعلَ الضوء.

وهناك، على الحامل، كان الجواب الذي كنا نبحث عنه.

لوحة أليسيا - صورة ذا غروف، وهو مشتعل بالنار، قد تمَّ تشويهها. كانت كلمة «عاهرة» مكتوبة بطريقة فظّة على طول اللوحة باللون الأحمر.

أومأتُ. «حسناً، هذا يفسِّر ما حدث».

«هل تعتقد أن إليف قامت بذلك؟».

«من غيرها؟».

وجدتُ إليف في جناح الطوارئ. كانت مُسندة في السرير، وموصولة بكيس التنقيط. كانت الأضمدة المحشوة ملفوفة حول رأسها، تغطّي عيناً واحدة. كانت منزعجة، غاضبة، وتتألّم.

«اغرب عن وجهي»، قالَت عندما رأتني.

أخذتُ كرسياً وجلست بجانب السرير. تحدثت بلطف، وباحترام. «أنا آسف يا إليف. آسف حقاً. هذا حدث فظيع. مأساة».

«تباً هذا صحيح. الآن اذهب واتركني وحدي».

«أخبريني بما حدث».

«هذه العاهرة أخرجَت عيني، تباً. هذا ما حدث».

«لماذا فعلت هذا؟ هل كان هناك عراك؟».

«هل تحاول أن تلقي اللوم عليّ؟ أنا لم أفعل شيئاً!».

«أنا لا أحاول إلقاء اللوم عليك. أريد فقط أن أفهم السبب الذي دفعها لفعل ذلك».

«لأنها مختلّة عقلياً، هذا هو السبب».

«لا علاقة لما حدث باللَّوحة؟ رأيت ما فعلت. لقد شوّهتِها، أليس كذلك؟».

ضيّقت إليف عينها المتبقية، ثم أغلقتها بإحكام.

«كان ذلك شيئاً سيّئاً، إليف. هذا لا يبرّر ما فعلته. ولكن رغم ذلك –».

«ليس هذا سبب ما فعلت».

فتحت إليف عينها وحدّقت إلي بسخرية.

تردّدتُ. «لا؟ إذاً لماذا هاجمتك؟».

التفّت شفتا إليف لتشكّل نوعاً من الابتسامة. لم تتكلم. جلسنا هكذا لبضع لحظات. كنت على وشك الاستسلام، عندما تكلّمت.

قالت: «لقد أخبرتها بالحقيقة».

«أي حقيقة؟».

«أنك مرتاح لها».

اندهشت من هذا. قبل أن أتمكن من الردّ، واصلت إليف كلامها، وتحدّثت بازدراء بارد: «أنت تحبها، يا صديقي. أخبرتها بذلك. قلت لها: «إنه **يحبك**. إنه **يحبك** – ثيو وأليسيا جالسان في شجرة. ثيو وأليسيا يتبادلان القُبل»». بدأَت تضحك، تضحك بصراخ رهيب. كان بإمكاني أن أتخيّل الباقي – دخلَت أليسيا في نوبة غضب، ودارت حول نفسها ورفعت فرشاة الرسم... وغرستها في عين إليف.

بدت إليف على وشك البكاء، غاضبة، مرهقة. «إنها مجنونة تماماً. إنها مريضة نفسياً».

وأنا أنظر إلى جرحها المضمَّد، لم يكن بإمكاني سوى التساؤل عمّا إذا كانت على حقّ.

33

تمَّ الاجتماع في مكتب ديوميديس، لكن ستيفاني كلارك سيطرت عليه من البداية. الآن وقد تركنا العالم التجريدي لعلم النفس ودخلنا العالم الملموس للصحّة والسلامة، كنا تحت ولايتها القانونية وعرفنا ذلك. كان واضحاً تماماً من خلال صمت ديوميديس المتجهّم أنه يدرك ذلك.

كانت ستيفاني تقفُ وذراعاها متقاطعَين؛ كانت الإثارة واضحة عليها. ستصبُّ غضبها علينا، فكرت - لأنها هي المسؤولة ولها الكلمة الأخيرة في الموضوع - من الأكيد أنها كانت مستاءة منا جميعاً لأننا مارسنا التحكُّم تجاهها وتوحّدنا كفريق واحد ضدّها. كانت في تلك اللحظة تستمتع بالانتقام لنفسها. «الحادث الذي وقع صباح أمس كان غير مقبول تماماً»، قالت. «حذّرتُ من السماح لأليسيا بالرسم، ولكن لم يتم احترام قراري. الامتيازات الفردية تثير دائماً الغيرة والاستياء. كنت أعرف أن شيئاً مثل هذا من شأنه أن يحدث. من الآن فصاعداً، يجب أن نعطي الأسبقية للسلامة أولاً».

قلت: «هل هذا هو السبب في وضع أليسيا في عزلة؟ من أجل السلامة؟».

«إنها تهديد لنفسها وللآخرين. هاجمَت إليف - وكان يمكن أن تقتلها».

«لقد تمَّ استفزازها».

هزَّ ديوميديس رأسه، وانضمَّ إلى المناقشة. تكلّم بضجر. «لا أعتقد أن أي مستوى من الاستفزاز يبرّر ذلك النوع من الهجوم».

أومأت ستيفاني موافقة. «**بالضبط**»، قالت.

قلت: «لقد كان حادثاً معزولاً. وضع أليسيا في عزلة ليس فقط قاسياً - إنما همجياً. لقد رأيت مرضى وُضعوا في العزلة في برودمور، وأُقفل عليهم في غرفة صغيرة، بلا نوافذ، حيث توجد بالكاد مساحة كافية للسرير، ناهيك عن غيره من الأثاث. ساعات أو أيام في العزلة هي كافية لدفع أي شخص إلى الجنون، ناهيك عن شخص غير مستقرّ بالفعل».

تجاهلَت ستيفاني كلامي. «كمدير للمصحّة، لديّ السُّلطة لاتخاذ أي إجراء أراه ضرورياً. طلبت توجيهات من كريستيان، واتفقَ معي».

«أراهن أنه فعل».

عبر الغُرفة، ابتسم كريستيان لي بفظاظة. كان يمكنني أيضاً أن أشعر بديوميديس ينظر إليّ. كنت أعرف ما كانوا يفكرون به - كنت سمحت للأمر أن يصبح شخصياً، وتركت مشاعري تظهر؛ لكن لم أكن أهتم لذلك.

«عزلها ليس هو الحلّ. نحن بحاجة إلى مواصلة الحديث معها. نحن بحاجة إلى الفهم».

قال كريستيان بنبرة متعالية: «أفهم تماماً»، كما لو كان يتحدث إلى طفل متخلّف. «إنه أنت، ثيو».

«أنا؟».

«من غيرك؟ أنت الشخص الذي يثير الأمور».

«ماذا تعني بالإثارة؟».

«هذا صحيح، أليس كذلك؟ أنت الذي قمت بحملة لخفض الدواء لها...».

ضحكتُ. «كانت بالكاد حملة. كان تدخُّل. كانت مخدَّرة إلى أقصى درجة. زومبي».

«هراء».

التفتُّ إلى ديوميديس. «أنت تحاول جدّياً تحميلي المسؤولية؟ هل هذا ما يحدث هنا؟».

هزَّ ديوميديس رأسه، لكنه تهرّب من النظر إلى عينَي. «بالطبع لا. ومع ذلك، من الواضح أن علاجها قد أفقدها التوازن. كان تحدّياً كبيراً لها وفي وقت قصير. أظنُّ أن هذا هو السبب في ذلك الحدث المؤسِف».

«أنا لا أقبل ذلك».

«ربما أنت قريب جداً منها لرؤية الأمر بوضوح».

لوّح بيده في الهواء وتنهّد، هُزم الرجل. «لا يمكننا تحمل المزيد من الأخطاء، وليس في مثل هذا المنعطف الحرج - كما تعلمون، مستقبل المصحّة على المحكّ. كل خطأ نرتكبه يعطي للمؤسَّسة المشرِفة عذراً آخر لإغلاقه».

شعرت بالغضب الشديد من هزيمته وقبوله الناتج عن الضجر.

«الجواب هو عدم إعطائها الأدوية المخدِّرة وفكّ العزلة عنها»، قلت. «لسنا سجّانين».

«أنا موافقة»، قالت إنديرا. أعطتني ابتسامة داعمة وواصلت

كلامها: «المشكلة هي أننا أصبحنا نتجنب المخاطرة، نفضّل بالأحرى المبالغة في إعطاء الأدوية عوض البحث عن فرص أخرى. نحن بحاجة إلى أن نكون شجعاناً بما فيه الكفاية للجلوس مع الجنون، للسيطرة عليه - بدلاً من محاولة عزله».

أدارَ كريستيان عينَيه، وكان على وشك الاعتراض - ولكن ديوميديس تحدّث أولاً، هزَّ رأسه: «لقد فات الأوان لذلك. هذا خطئي. أليسيا ليست مرشّحة مناسِبة للعلاج النفسي. لم يكن يجب عليّ السماح بذلك».

قال ديوميديس إنه يلوم نفسه، لكنني عرفت أنه كان حقاً يلقي اللوم عليّ. كانت كل العيون تنظر إليّ: تكشيرة ديوميديس المُصاب بخيبة أمل، نظرة كريستيان الساخِرة، المنتصِرة؛ وتحديق ستيفاني العدائي، ونظرة إنديرا القلِقة.

حاولت ألا أبدو كأنني أتوسّل. «أوقفوا أليسيا عن الرسم، إذا كان ذلك ضرورياً»، قلت، «لكن لا توقفوا علاجها - إنه الوسيلة الوحيدة للوصول إليها».

هزَّ ديوميديس رأسه. «لقد بدأت أشكُّ في أنه يمكن الوصول إليها».

«فقط أعطني المزيد من الوقت -».

لكن كانت هناك نبرة حاسمة في صوته أخبرتني أنه لم يكن هناك جدوى من الجدال.

«لا»، قال ديوميديس. «انتهى الأمر».

34

كان ديوميديس مخطئاً بشأن السحب الثلجية. لم يسقط الثلج؛ وبدلاً من ذلك بدأت السماء تمطر بغزارة في ظهيرة ذلك اليوم. عاصفة من قرع الطبول الغاضبة للرعد ومن ومضات البرق.

انتظرت أليسيا في غرفة العلاج، أراقب المطر يضرب النافذة.

شعرتُ بالضيق والاكتئاب. كان كل شيء مضيعة للوقت. لقد فقدتُ أليسيا قبل أن أتمكن من مساعدتها؛ الآن لن أتمكّن من ذلك.

طرق على الباب. اصطحب يوري أليسيا إلى قاعة العلاج. كانت تبدو أسوأ ممّا كنت أتوقّع. كانت شاحبة، بلون الرماد، ومثل شبح. كانت الطريقة التي كانت تمشي بها تفتقد إلى الثبات، وساقها اليمنى ترتجفُ دون توقف. كريستيان السخيف، فكرت - كانت مخدَّرة تماماً.

كان هناك توقف طويل بعد مغادرة يوري. لم تنظر أليسيا إليّ. تحدثتُ أخيراً. بصوت عالٍ وواضح، للتأكُّد من أنها تفهم ما أعنيه.

«أليسيا. أنا آسف لأنك وُضعت في عزلة. أنا آسف لمرورك بهذه التجربة».

لا يوجد أي ردّ فعل. ترددتُ.

«أخشى أنه بسبب ما فعلتِهِ بإليف، تمَّ إنهاء العلاج. لم يكن هذا قراري - بل كنت معارِضاً له - لكن لا يوجد شيء يمكنني فعله حيال ذلك. أودُّ أن أقدّم لك هذه الفرصة لتتكلّمي عمّا حدث، لتشرحي هجومك على إليف. ولتعبّري عن الندم، الذي أنا متأكّد أنك تشعرين به».

لم تقل أليسيا شيئاً. لم أكن متأكّداً من أن كلماتي قد اخترقت ضباب الأدوية التي أخذتها.

«سوف أخبرك بما أشعر به»، واصلتُ الكلام. «أشعر بالغضب، لأكون صادقاً. أشعر بالغضب لأن عملنا قد انتهى قبل أن نبدأه بشكلٍ صحيح - وأشعرُ بالغضب لأنك لم تحاولي أن تبذلي مجهوداً أكبر».

تحرّكَ رأس أليسيا. حدّقت عيناها في عينَي.

قلتُ: «أنت خائفة، أنا أعرف ذلك»، قلت. «كنت أحاول مساعدتك - لكنك لم تسمحي لي بذلك. والآن لا أعرف ماذا أفعل».

صمتُّ، منهزماً.

ثم فعلت أليسيا شيئاً لن أنساه أبداً.

مدّت يدها وهي ترتجف نحوي. كانت تمسك بشيء - دفتر صغير مجلَّد.

«ما هذا؟».

لا يوجد أي ردّ. بقيَت تمسكُ به. حدّقتُ فيه بفضول.

«هل تريدين مني أن آخذه؟».

لا يوجد أي ردّ. ترددت، وأخذت دفتر الملاحظات بلطف من

أصابعها وهي ترفرف. فتحته وتصفّحته. كانت يوميّات مكتوبة بخطّ اليد، مذكرة يوميّات.

يوميّات أليسيا.

يبدو من خلال الكتابة اليدوية، أن اليوميّات كتبت في حالة نفسية مأزومة، ولا سيما الصفحات الأخيرة، حيث كانت الكتابة بالكاد مقروءة - أسهم تربط فقرات مختلفة مكتوبة في زوايا مختلفة عبر الصفحة - خربشات ورسومات تهيمنُ على بعض الصفحات، والزهور تنمو في عروشها، وتغطّي ما كان مكتوباً وتجعلهُ غير قابل للتشفير تقريباً.

نظرتُ إلى أليسيا، كنت أحترقُ بالفضول.

«ماذا تريدين مني أن أفعل بهذا؟».

كان السؤال غير ضروري للغاية. كان واضحاً ما كانت أليسيا تريد مني.

كانت تريدني أن أقرأه.

الجزء الثالث

يجبُ أن لا أضع الغرابة حيث لا يوجد أي شيء. أعتقد أن هذا هو خطر الحفاظ على يوميّات: تبالغُ في كل شيء، وتبقى في حالة ترقُّب، وتمدِّد الحقيقة باستمرار.

جان-بول سارتر

مع أنني عادةً لا أكون صادقاً، إلا أنني أحياناً أكون كذلك مصادَفة.

وليم شكسبير، **حكاية الشتاء**

يوميّات أليسيا بيرينسون

8 أغسطس

حدث شيء غريب هذا اليوم.

كنت في المطبخ، أُعدّ القهوة، وأتطلّعُ إلى الخارج من النافذة - أنظر دون أن أرى - منغمِسة في أحلام اليقظة - وبعد ذلك لاحظت شيئاً ما، أو بالأحرى شخصاً ما - بالخارج. رجل. لاحظته لأنه كان واقفاً من دون حَراك - مثل التمثال - ويواجه المنزل. كان على الجانب الآخر من الطريق، قرب مدخل حديقة هيث. كان يقف في ظلِّ شجرة. كان طويل القامة، قوي البنية. لم أستطع التعرّف إلى ملامحه لأنه كان يرتدي نظارة شمسية وقبّعة.

لم أستطع معرفة ما إذا كان يمكنه أن يراني أم لا من خلال النافذة، لكنه بدا وكأنه يحدّق إلى وجهي. اعتقدت أن ذلك كان غريباً - اعتدتُ على وقوف الناس الذين ينتظرون عبر الشارع في موقف الحافلة. لكنه لم يكن ينتظر الحافلة. كان يحدّق إلى المنزل.

أدركتُ أنني وقفت هناك لعدة دقائق - لذلك جعلت نفسي أغادر النافذة. ذهبت إلى المرسَم وحاولت الرسم ولكن لم أستطع التركيز. ظلَّ ذهني يفكّر في الرجل. قرّرتُ أن أعطيَ نفسي عشرين

دقيقة أخرى، ثم أعود إلى المطبخ وأنظر. وإذا كان لا يزال هناك، ثم ماذا؟ لم يكن يفعل أي شيء خاطئ. يمكن أن يكون سارِقاً، يدرس المنزل - أفترض أن هذه كانت فكرتي الأولى حول الموضوع - لكن لماذا سيقف هناك بهذا الشكل، بطريقة ملحوظة تماماً؟ ربما كان يفكّر في الانتقال للسكن هنا؟ ربما سيشتري المنزل المعروض للبيع في نهاية الشارع؟ يمكن أن يكون هذا تفسيراً لذلك.

ولكن عندما عدت إلى المطبخ، ونظرت إلى الخارج عبر النافذة، كان قد ذهب. كان الشارع فارغاً.

أعتقد أنني لن أعرف أبداً ما كان سيفعله. كم هو غريب هذا الأمر.

10 أغسطس

ذهبتُ إلى المسرحية مع جان-فيليكس الليلة الماضية. لم يكن غابرييل يريدني أن أذهب، ولكن فعلت ذلك على أي حال. كنت مرهوبة من فعل ذلك - لكنني فكرت أنه إذا أعطيت جان-فيليكس ما أراد وذهبت معه، ربما سيكون نهاية لهذه العلاقة. كنت آمل ذلك، على أي حال.

رتّبنا للقاء في وقت مبكّر، لتناول مشروب - كانت فكرته - وعندما وصلت إلى هناك كان لا يزال الوقت نهاراً. كانت الشمس منخفِضة في السماء، تلوّن النهر بلون الدم الأحمر. كان جان-فيليكس ينتظرُني خارج المسرح الوطني. رأيته قبل أن يراني. كان يمسح الحشود، متذمّراً. إذا كان لدي أي شكّ في أن ما كنت أفعله هو الشيء الصحيح، فإن رؤية وجهه الغاضب بدّدت ذلك. كنت

أحسُّ بنوع فظيع من الرهبة - ودرتُ تقريباً وانسحبت. لكنه التفت ورآني قبل أن أتمكّن من ذلك. ولوّح بيده، وذهبت إليه. تظاهرت بالابتسام، وكذلك فعل.

قال جان-فيليكس: «أنا سعيد للغاية لأنك أتيت. كنت قلقاً من أنك لن تأتي. هل ندخل ونتناول مشروباً؟».

تناولنا شراباً في البهو. كان لقاء ثقيلاً، على أقل تقدير.

لم يذكر أي منا ذلك اليوم. تحدّثنا كثيراً عن لا شيء، أو بالأحرى تحدّث جان-فيليكس واستمعت. أنهينا تناول بعض المشروبات. لم أكن قد أكلت وشعرتُ بالسُّكْر قليلاً؛ اعتقدت أن ذلك ربما كان قصد جان-فيليكس. كان يحاول قصارى جهده إشراكي، ولكن المحادثة كانت رسمية ومصطنعة - كانت مدبَّرة، وممسرَحة. كل ما خرج من فمه كان يبدو أنه يبدأ بـ«ألم يكن الأمر ممتعاً حين» أو «ألا تذكرين أنه في مثل هذا الوقت» - وكأنه كان يتذكّر القليل من الذكريات على أمل أن يضعفوا عزمي ويذكّرونني بالتاريخ الذي كان يجمعنا، وبمدى حميمية علاقتنا. ما كان يبدو أنه لا يدركه هو أنني اتّخذت قراري. ولا شيء يقوله الآن يستطيع أن يغيّره.

في النهاية، كنت سعيدة لأنني ذهبت. ليس لأنني رأيت جان-فيليكس - بل لأنني رأيت المسرحية. لم تكن **ألسيستيس** تراجيديا سمعت عنها من قبل - أفترض أنها غامضة لأنها نوع أصغر من قصص الحياة الزوجية، ولهذا السبب أعجبتني كثيراً. تمَّ تمثيلها في الوقت الحاضر، في منزل صغير في ضواحي أثينا. أعجبني مقياس حجمها. مأساة المطبخ الحميمة. رجل محكوم عليه بالموت - وزوجته، ألسيستيس، تريد أن تنقذه. كانت الممثّلة التي تلعب دور

ألسيستيس تشبه تمثالاً يونانياً، وكان لها وجه رائع - ظللتُ أفكّر في رسم صورة لها - فكّرت في الحصول على تفاصيلها والاتصال بوكيلها. كنت سأذكر ذلك تقريباً لجان-فيليكس - لكنني منعتُ نفسي من ذلك. لم أعد أريد أن أشركه في حياتي، على أي مستوى. كانت الدموع تغمرُ عينَي في نهاية المسرحية - وفاة ألسيستيس، وولادتها من جديد. تعود فعلاً من عالم الموتى. ثمة شيء هناك أحتاج إلى التفكير فيه. لست متأكّدة بالضبط ما هو بعد. بالطبع كان لجان-فيليكس كلّ أنواع ردود الفعل تجاه المسرحية، ولكن لم يتوافق أي منها مع ما أحس به، لذلك لم أعره أي اهتمام وتوقّفت عن الاستماع.

لم أستطع إخراج موت ألسيستيس وانبعاثها من ذهني - ظللتُ أفكّر في ذلك بينما كنا نسير عبر الجسر إلى المحطة. سأل جان-فيليكس عمّا إذا كنت أرغب في تناول مشروب آخر ولكن قلت له إنني متعَبة. كان هناك توقُّف محرِج آخر. وقفنا خارج مدخل المحطة. شكرته على الأمسية وقال إنها كانت ممتعة.

قال جان-فيليكس: «لنتناول مشروباً آخر. مشروب آخر. من أجل الأوقات الجميلة الماضية؟».

«لا، يجب أن أذهب».

حاولت أن أغادر - وأمسك بيدي.

«أليسيا»، قال. «استمعي إليّ. يجب أن أخبرك بشيء ما».

«لا، من فضلك لا، لا يوجد شيء لنقوله، حقاً——».

«فقط استمعي. ليس الأمر كما تعتقدين».

كان على حقّ، لم يكن الأمر كما توقعت. كنت أتوقع أن يتوسّل جان-فيليكس إليّ للحفاظ على صداقتنا، أو أن يحاول أن

يجعلني أشعر بالذنب لمغادرتي صالة العرض. لكن ما قاله أخذني على حين غِرّة.

قال: «يجب عليك أن تكوني حذرة. أنت تثقين كثيراً جداً. الناس من حولك... أنت تثقين بهم. لا. لا تثقي بهم».

حدّقت إليه دون تركيز. استغرق الأمر مني لحظة للتحدُّث.

«ما الذي تتحدث عنه؟ مَن تقصد؟».

هزَّ جان-فيليكس رأسه ولم يقل شيئاً. سحب يده من يدي وذهب. ناديته لكنه لم يتوقّف.

«جان-فيليكس. توقف».

لم ينظر إلى الوراء. شاهدته يختفي وراء الزاوية. وقفتُ هناك، غير قادرة على الحركة. لم أكن أعرف ما أفكر فيه. ماذا كان يعني، أن يصدر تحذيراً غامضاً ويمشي بهذه الطريقة؟ أعتقد أنه أراد أن يبقى مسيطراً على الوضع ويتركني أشعر بالشكّ وبوجود أزمة ما. وقد نجح في ذلك.

كما جعلني أشعر بالغضب. الآن، بطريقة ما، سهّل الأمر بالنسبة إليّ. أنا الآن مصمِّمة على إخراجه من حياتي. ماذا كان يعني بـ«الناس من حولي» - من المفترض أنه يقصد غابرييل؟ لكن لماذا؟

لا، لن أفعل هذا. هذا هو بالضبط ما أراده جان-فيليكس - أن يربكني. أن يجعلني أشك في غابرييل. أن يتدخّل في العلاقة بيني وبين غابرييل.

لن أسقط في هذا الفخّ. لن أفكر في هذا الأمر مرة أخرى.

عدت إلى المنزل، وكان غابرييل في السرير، نائماً. كان سيتلقّى مكالمة على الخامسة صباحاً لاستدعائه للتصوير. لكنني أيقظته، فقد كنت في حاجة إليه. لم أستطع الاقتراب منه بما فيه

الكفاية، أو أشعر به بعمق كافٍ في نفسي. أردت أن أنصهر معه. كنت أرغب في أن أتسلّق إلى داخله وأختفي.

11 أغسطس

رأيت هذا الرجل مرة أخرى. كان بعيداً بعض الشيء هذه المرّة - كان يجلس على مقعد بعيد داخل حديقة هيث. لكنه كان هو، أستطيع أن أعرف ذلك - معظم الناس يرتدون السراويل القصيرة والقمصان بألوان فاتحة في هذا الطقس - وكان يرتدي قميصاً داكناً وسروالاً، ونظارات شمسية سوداء، وقبّعة. وكان رأسه موجَّهاً نحو المنزل، ينظر إليه.

خطرَت ببالي فكرة مضحكة - ربما لم يكن سارقاً، ربما كان رسّاماً. ربما كان رسّاماً مثلي يفكّر في رسم الشارع - أو المنزل. ولكن بمجرد أن فكرت بهذا، عرفت أن هذا غير صحيح. إذا كان حقاً سوف يرسم المنزل، لم يكن ليجلس هناك فقط - كان سيصمِّم رسومات.

شعرتُ بالانزعاج، واتصلتُ بغابرييل.

كان هذا خطأ. كنت أعرف أنه كان مشغولاً - آخر شيء كان يحتاج إليه هو أن أتصل به، وأخبره بأنني أشعر بالخوف لأنني أعتقد أن هناك من يُراقِب المنزل.

بالطبع، أنا أفترض أن الرجل يراقِب المنزل فقط. يمكن أن يكون يراقبني.

13 أغسطس

كان هناك مرّة أخرى.

كان ذلك بعد وقت قصير من مغادرة غابرييل هذا الصباح. أخذت حمّاماً، ورأيته من النافذة هناك. وكان أقرب هذه المرة. كان يقف بجانب محطة الحافلات. كما لو كان ينتظر الحافلة بطريقة عادية.

لا أعرف من يعتقد أنه يخدع.

ارتديت ملابسي بسرعة وذهبت إلى المطبخ لأحصل على نظرة أفضل. لكنه كان قد ذهب.

قررت أن أخبر غابرييل بذلك عندما عاد إلى المنزل. ظننت أنه لن يعطي للأمر أية أهمية، لكنه أخذَ الأمر على محمل الجدّ. لقد بدا قلِقاً جداً.

«هل كان جان-فيليكس؟».

«لا، بالطبع لا. كيف يمكنك حتى التفكير في ذلك؟».

حاولت أن أبدو متفاجئة وغاضبة. ولكن في الحقيقة كان لدي التساؤل نفسه أيضاً. الرجل وجان-فيليكس لهما البنية الجسدية نفسها. قد يكون جان-فيليكس، لكن رغم ذلك - لم أكن أريد أن أصدّق ذلك. لن يحاول تخويفي بهذا الشكل. أليس كذلك؟

قال غابرييل: «ما هو رقم جان-فيليكس؟ سأتّصل به الآن».

«حبيبي، لا، من فضلك. أنا متأكّدة من أنه ليس هو».

«متأكّدة؟».

«تماماً. لم يحدث شيء. لا أعرف لماذا جعلت الأمر مهمّاً لهذه الدرجة. إنه لا شيء».

«كم من الوقت بقي هناك؟».

«لم يمضِ وقتاً طويلاً - ساعة أو نحو ذلك، ثم اختفى».

«ماذا تقصدين باختفى؟».

«لقد اختفى للتوّ».

«هاه. هل يمكن أنك كنت فقط تتخيّلين هذا؟».

شيء ما في طريقة كلامه أزعجتني. «أنا لا أتخيّل ذلك. يجب أن تصدّقني».

«أنا أصدّقك».

لكن كان يمكنني أن أعرف أنه لم يصدّقني تماماً. صدّقني جزئياً فقط. كان جزء منه يضحك مني. الأمر الذي أغضبني، صراحة. كنت غاضبة جداً. يجب أن أتوقف هنا - أو قد أكتب شيئاً سأندم عليه.

14 أغسطس

قفزت من السرير حالما استيقظت. نظرت من النافذة على أمل أن يكون الرجل هناك مرة أخرى - حتى يتمكّن غابرييل من رؤيته هو أيضاً، ولكن لم يكن ثمة أثر له. لذلك شعرت أنني كنت أكثر غباء.

بعد ظهر هذا اليوم قررت أن أتمشّى، على الرغم من الحرارة. كنت أريد أن أذهب إلى حديقة هيث، بعيداً عن المباني والطُّرق والناس الآخرين - وأن أكون وحيدة مع أفكاري. مشيت حتى بارلمانت هيل، مررتُ بأجساد متناثرة على جانبَي المسار تأخذ حمّام شمس. وجدت مقعداً شاغراً، وجلست. حدقت إلى لندن وهي تتلألأ عن بُعد.

بينما كنت هناك، كنت واعية طوال الوقت بشيء ما. ظللت أنظر إلى الخلف - لكن لم أستطع رؤية أي شخص. ولكن كان هناك شخص ما، طوال الوقت. كنت أشعر به. كنت أشعر بأني مُراقَبة.

في طريق عودتي، مشيتُ وراء البِركة. حدث أن رفعت بصري - وكان هناك، الرجل - كان واقفاً على الجانب الآخر من البِركة، بعيداً جداً لأراه بوضوح - لكنه كان هو. كنتُ أعرف أنه هو. كان يقف ساكناً تماماً، بلا حَراك، ويحدّق في وجهي.

وشعرتُ بقشعريرة باردة من الخوف. وتصرّفت بالغريزة.

«جان-فيليكس؟» صرخت. «هل هذا أنت؟ توقّف عن ذلك. توقّف عن ملاحقتي!».

لم يتحرّك. تصرفتُ بأسرع ما يمكن. أدخلتُ يدي في جيبي، وسحبت هاتفي، والتقطت صورة له. ما فائدة ذلك، لم تكن لدي أي فكرة. ثم التفتّ وبدأت أمشي بسرعة إلى نهاية البِركة، لم أدع نفسي ألتفت إلى الوراء حتى وصلت إلى الطريق الرئيس. كنت خائفة أن يكون ورائي.

التفت - وكان قد ذهب.

آمل أن لا يكون جان-فيليكس. أنا حقاً آمل ذلك.

عندما وصلت إلى المنزل، شعرتُ بالانزعاج - سحبتُ الستائر وأطفأت الأنوار. كنت أطلُّ بحذر من النافذة - وكان هناك.

كان الرجل يقف في الشارع ويحدّق إلى وجهي. تجمّدت في مكاني - لم أكن أعرف ما أفعل.

قفزت من مكاني عندما ناداني شخص ما باسمي.

«أليسيا؟ أليسيا، هل أنت هناك؟».

كانت تلك المرأة الفظيعة من المنزل المجاور. باربي هيلمان.

تركت النافذة وذهبت إلى الباب الخلفي وفتحته.

كانت باربي قد دخلَت من البوابة الجانبية وكانت في الحديقة، تمسك زجاجة من النبيذ.

قالت: «مرحباً، عزيزتي، رأيت أنك لم تكوني في المرسَم، فتساءلتُ أين تكونين».

«كنت بالخارج، عدت للتوّ».

«هذا وقت لتناول مشروب؟»، قالت بصوت طفولي تستخدمه في بعض الأحيان ويغضبني حقاً.

«في الواقع، يجب أن أعود إلى العمل».

«مجرّد جرعة واحدة سريعة. ثم يجب أن أذهب، كذلك، لدي درس تعلُّم الإيطالية هذا المساء، موافِقة؟».

ومن دون انتظار الردّ، دخلَت. قالت شيئاً حول الظلام في المطبخ، وبدأت في فتح الستائر دون أن تسألني. كنت على وشك منعها - ولكن عندما نظرتُ إلى الخارج، لم يكن هناك أحد في الشارع. كان الرجل قد ذهب.

لا أعرف لماذا أخبرت باربي بذلك. أنا لا أحبها، أو أثق بها - لكنني أفترض أنني كنت خائفة، وكنت بحاجة إلى شخص ما للتحدُّث إليه - وحدث أن كانت هناك. تناولنا شراباً، الأمر الذي لم أكن مُعتادة عليه، وانفجرت بالبكاء. حدّقت باربي في وجهي باندهاش، وفي صمت، للحظة. بعد أن انتهيت، وضعتُ زجاجة النبيذ وقالت: «هذا يتطلّب شيئاً أقوى».

سكبَت لنا بعض الويسكي.

قالت «خذي»، وأعطتني الكأس. «أنت تحتاجين إلى هذا».

كانت على حقّ - كنت في حاجة إليه. شربته دفعة واحدة وأحسست بأثره القوي. الآن جاء دوري للاستماع، بينما كانت باربي تتحدّث. قالت إنها لا تريد تخويفي، لكنها لم تكن ترى الأمر مطمئناً. «شاهدت هذا على مليون برنامج تلفزيوني تقريباً. إنه يدرس منزلك، حسناً؟ قبل أن ينتقل إلى التنفيذ».

«هل تعتقدين أنه سارق؟».

هزّت باربي رأسها. «أو مغتصِب. هل هذا مهم؟ إنها أخبار سيّئة، مهما تكن».

ضحكتُ. شعرت بالارتياح والامتنان لأن شخصاً ما كان يأخذ قلقي بجدّية - حتى لو كان مجرّد باربي. أريتها الصورة على هاتفي، لكنها لم تُبدِ أي تأثُّر.

«أرسليها لي حتى أتمكّن من النظر إليها باستخدام نظارتي. تبدو ضبابية بالنسبة إليّ. أخبريني. هل ذكرت هذا لزوجك بعد؟».

قرّرت أن أكذب. «لا»، قلت. «ليس بعد».

نظرت إليّ باربي نظرة غريبة. «لمَ لا؟».

«لا أعرف، أظنُّ أنني أشعر بالقلق من أن غابرييل قد يعتقد أنني أبالغ - أو أنني أتخيّل».

«هل تتخيّلين ذلك؟».

«لا».

بدت باربي سعيدة. «إذا لم يأخذك غابرييل مأخذَ الجدّ، سنذهب إلى الشرطة معاً. أنا وأنت. يمكن أن أكون مقنِعة جداً، صدقيني».

«شكراً، لكنني متأكّدة من أن ذلك لن يكون ضرورياً».

«هذا ضروري بالفعل. خذي الأمر بجدّية يا عزيزتي. واعديني أنك ستخبرين غابرييل عندما يصل إلى المنزل؟».

أومأت. لكنني قرّرتُ بالفعل عدم قول أي شيء إضافي إلى غابرييل. لم يكن هناك شيء لأخبره به. لم يكن لدي دليل على أن الرجل كان يلاحقني أو يراقبني. كانت باربي على حقّ، لم تكن الصورة تثبت أي شيء.

كان كل شيء مجرّد تخيُّل - هذا ما سيقوله غابرييل.

من الأفضل عدم قول أي شيء له على الإطلاق والمخاطرة بإزعاجه مرة أخرى. لا أريد أن أزعجه.

سوف أنسى كل شيء.

4 صباحاً

لقد كانت ليلة سيّئة.

عادَ غابرييل إلى المنزل، منهَكاً، حوالي الساعة العاشرة. قضى يوماً شاقاً، وأراد أن يذهب إلى الفراش في وقت مبكّر. حاولتُ النوم أيضاً، لكنني لم أستطع.

ثم بعد بضع ساعات، سمعت ضجّة. كانت قادمة من الحديقة. نهضت وذهبت إلى النافذة الخلفية. نظرتُ - لم أتمكّن من رؤية أي شخص، لكنني شعرت بعينَي شخص ما كانتا تراقباني. شخص ما كان يراقبني من الظلّ.

تمكّنت من سحب نفسي من النافذة وركضت إلى غرفة النوم. حرّكت غابرييل لأوقظه.

قلت: «الرجل بالخارج، إنه خارج المنزل».

لم يعرف غابرييل عمّا كنت أتحدّث. عندما فهم، بدأ يغضب. وقال: «من أجل المسيح. أعطِ لنفسك قسطاً من الراحة. يجب أن أكون في العمل بعد ثلاث ساعات. لا أريد لعب هذه اللُّعبة السخيفة».

«إنها ليست لُعبة. تعال وانظر. رجاء».

ذهبنا إلى النافذة - وبالطبع لم يكن الرجل هناك. لم يكن هناك أحد.

أردت أن يذهب غابرييل إلى الخارج، وأن يتحقّق - لكنه لم يفعل.

عادَ إلى الطابق العلوي، منزعجاً. حاولتُ التحدّث معه حول الموضوع ولكنه قال إنه لن يتحدّث معي، وذهبَ للنوم في غرفة أخرى.

لم أعد إلى السرير. بقيتُ جالسةً هنا منذ ذلك الحين، أنتظر، وأستمع، وأتنبّه إلى أي صوت، وأتحقّق من النوافذ. لا أثر له حتى الآن.

فقط بضع ساعات ستمرُّ. وسيظهر ضوء النهار قريباً.

15 أغسطس

نزلَ غابرييل إلى الطابق السُّفلي على استعداد للذهاب إلى التصوير. عندما رآني بالقرب من النافذة، وأدرك أنني كنت مستيقظة طوال الليل، حافظ على هدوئه وبدأ يتصرّف بطريقة غريبة.

قال: «أليسيا، اجلسي. يجب أن نتكلّم».

«نعم فعلاً. نحن بحاجة إلى التحدُّث. عن حقيقة أنك لم تصدقني».

«أعتقد أنك تصدقينه».

«هذا ليس الشيء نفسه. أنا لست غبية».

«لم أقل قط أنك غبية».

«ماذا تقول إذاً؟».

ظننت أننا على وشك الدخول في خصام، وكنت قد تفاجأت بما قاله غابرييل. تحدّث إليّ بصوت منخفض. استطعت بالكاد أن أسمعه. قال: «أريدك أن تتحدثي إلى شخص ما. رجاء».

«ماذا تعني؟ شرطي؟».

قال غابرييل: «لا»، بدا غاضباً مرة أخرى. «ليس رجل شرطة».

فهمت ما كان يقصد وما كان يقول. لكن أردت سماعه يقول ذلك. أردت منه أن يوضِّح. «إذاً من تعني؟».

«طبيب».

«لن أرى طبيباً، غابرييل—».

«أحتاج منك أن تفعلي هذا من أجلي. يجب أن تلتقي بي في منتصف الطريق». قال ذلك مرة أخرى: «أحتاج منك أن تقابليني في منتصف الطريق».

«لا أفهم ما تقصده. في منتصف الطريق، أين؟ أنا هنا».

«لا. أنت لست هنا!»

بدا متعباً جداً، مستاء جداً. أردت حمايته. أردت أن أريحه. قلت: «لا بأس، حبيبي. سيكون كل شيء على ما يرام، سوف ترى».

هزَّ غابرييل رأسه، كما لو أنه لم يصدّقني. «سأحدِّد موعداً مع الدكتور ويست. في أقرب وقت. اليوم إذا كان ذلك ممكناً». تردّد ونظر إليّ. «موافقة؟».

مدَّ غابرييل يده ليمسك بيدي - أردت أن أصفعها بعيداً عني أو أن أخدشها. أردت أن أعضّه أو أضربه أو أرميه فوق المائدة، وأصرخ: «أنت تعتقد أنني مجنونة لكنني لست كذلك! أنا لست كذلك، لست كذلك، لست كذلك!».

لكنني لم أفعل أي شيء من هذه الأشياء. بدلاً من ذلك أومأت وأخذت يد غابرييل، وأمسكت بها.

قلت: «حسناً، عزيزي. أياً كان ما تريد».

16 أغسطس

ذهبت لرؤية الدكتور ويست اليوم. على دون رغبة مني، لكنني ذهبت.

أنا أكرهه، لقد قرّرت. أنا أكرهه وأكره منزله الضيِّق، وهو يجلس في تلك الغرفة الصغيرة الغريبة في الطابق العلوي، يسمع كلبه ينبح في غرفة الجلوس. لم يتوقف أبداً عن النباح، كل الوقت الذي قضيته هناك. كنت أرغب في الصراخ عليه ليصمت، وظللتُ أظنُّ أن الدكتور ويست سيقول شيئاً حيال ذلك، لكنه تصرّف وكأنه لم يستطع سماعه. ربما لم يستطع. لم يكن يبدو أنه يسمع أي شيء كنت أقوله أيضاً. قلت له ما حدث. أخبرته عن الرجل الذي يراقب المنزل، وكيف رأيته يتبعني في حديقة هيث. قلت كلَّ هذا، لكنه لم يبدِ أي ردّ. جلس هناك فقط بابتسامته الرقيقة. كان يتطلّع إلى وجهي كما لو

كنت حشرة أو شيء من هذا القبيل. أعلم أنه من المفترض صديق لغابرييل، لكنني لا أرى كيف يمكن أن يكونا صديقَين. غابرييل دافئ جداً، والدكتور ويست هو عكس ذلك. إنه شيء غريب أن نقول هذا عن طبيب، لكن ليس لديه لُطف.

بعد أن أخبرته عن الرجل، لم يتحدّث لوقت طويل. بدا الصمت كأنه يدوم إلى الأبد. كان الصوت الوحيد هو ذلك الكلب في الطابق السُّفلي. لقد بدأت في ضبط نفسي عقلياً على إيقاع النباح، والدخول في نوع من الغَيبوبة. كان الأمر مفاجأة لي عندما تحدّث الدكتور فعلاً.

«لقد التقينا هنا من قبل، أليسيا»، قال، «أليس كذلك؟».

نظرتُ إليه بعين فارغة. لم أكن متأكدةً ممّا قصده. «حقاً؟».

هزَّ رأسه. «نعم فعلاً».

قلت: «أعلم أنك تعتقد أنني أتخيّل هذا. أنا لا أتخيّل ذلك. إنه حقيقي».

«هذا ما قلتِه آخر مرة. هل تتذكرين آخر مرة؟ هل تتذكرين ما حدث؟».

لم أجب. لم أرد أن أمنحه الشعور بالرضى. فقط جلست هناك أحملقُ فيه بغضب، مثل طفلة مشاغِبة.

لم ينتظر الدكتور ويست إجابة. ظلَّ يتحدّث، يذكّرني بما حدث بعد وفاة أبي، عن الانهيار الذي عانيت منه، والاتّهامات التي قمتُ بتوجيهها بسبب شعوري بالاضطهاد - اعتقادي بأنني كنت مُراقَبة، ومُلاحَقة، ويُتَجَسّس عليّ. «هكذا ترين الآن، لقد كنا هنا من قبل، أليس كذلك؟».

«لكن هذا كان مختلِفاً. كان مجرّد شعور. أنا في الواقع رأيتُ شخصاً ما. هذه المرة رأيت شخصاً ما».

«ومن الذي رأيته؟».

«لقد أخبرتك بالفعل. رجل».

«صفيه لي».

ترددت. «لا أستطيع ذلك».

«لمَ لا؟».

«لم أستطع رؤيته بوضوح. قلت لك إنه كان بعيداً جداً».

«أرى ذلك».

«و - كان متنكّراً. كان يرتدي قبّعة. ونظارات شمسية».

«الكثير من الناس يرتدون النظارات الشمسية في هذا الطقس. والقبّعات. هل هم جميعاً متنكّرون؟».

كنت قد بدأت أفقد أعصابي. «أعرف ما تحاول فعله».

«وما هذا الذي أحاول فعله؟».

«أنت تحاول أن تجعلني أعترف أنني مجنونة مرة أخرى - مثل ما فعلت بعد وفاة أبي».

«هل هذا ما تعتقدين أنه يحدث؟».

«لا. في ذلك الوقت كنت مريضة. هذه المرة أنا لست مريضة. ليس لدي أي مشكل - سوى أن هناك شخصاً ما يتجسّسُ عليّ وأنت لن تصدّقني!».

هزَّ دكتور ويست رأسه، لكنه لم يقل أي شيء. كتبَ بعض الأشياء في دفتر ملاحظاته.

قال: «سأعطيك الدواء مرة أخرى، كفعلٍ احترازي. لا نريد أن نترك هذا يخرج عن السيطرة، أليس كذلك؟».

هززت رأسي. «لن أتناول أي دواء».

«أتفهّم ذلك. حسناً، إذا رفضت الدواء، فمن المهم أن تكوني مدرِكة للعواقب».

«أية عواقب؟ هل تهدّدني؟».

«لا علاقة لي بالأمر. أنا أتحدّث عن زوجك. كيف تظنين أن غابرييل يشعر حول ما مرَّ به في آخر مرة لم تكوني فيها على ما يرام؟».

تخيّلتُ غابرييل في الطابق السُّفلي، منتظراً في غرفة الجلوس مع الكلب الذي ينبح. قلت: «لا أعرف. لماذا لا تسأله أنت؟».

«هل تريدينه أن يمرَّ من جديد بالتجربة نفسها؟ ألا تعتقدين ربما أن هناك حدّاً لِما يُمكن أن يتحمّله؟».

«ماذا تقول؟ سوف أخسر غابرييل؟ هل هذا ما تفكر فيه؟».

حتى قَوْلي هذا جعلني أشعرُ بالمرض. فكرة فقدانه، لم أستطع تحمّلها. لقد فعلت أي شيء للاحتفاظ به - حتى التظاهُر بالجنون وأنا أعرف أنني لست مجنونة. لذلك استسلمت. وافقتُ على أن أكون «صادقة» مع الدكتور ويست بخصوص ما كنت أفكر فيه وأشعر به، وأخبره ما إذا سمعت أي أصوات. وعَدت أن آخذ الأقراص التي أعطاني إياها، وأن أعود لزيارته في غضون أسبوعَين، لإجراء فحص طبي.

بدا الدكتور ويست مسروراً. وقال إنه يمكننا أن ننزل إلى الطابق السفلي الآن والانضمام إلى غابرييل. عندما كان يسير أمامي في الدرج، فكرت في الوصول إليه ودفعه إلى أسفل الدرج. أتمنى لو أنني فعلت ذلك.

بدا غابرييل أكثر سعادة في طريقه إلى المنزل. ظلَّ يلقي عليّ نظرات خاطفة وهو يقود مبتسِماً. «أحسنتِ. أنا فخور بك. سنتجاوز هذا الأمر، سوف ترين».

أومأت لكنني لم أقل أي شيء. بسبب أن ذلك بالطبع هراء - لن نتجاوز هذا الأمر.

عليّ أن أتعامل معه بمفردي.

لقد كان خطأ إخبار أي شخص. غداً سأطلب من باربي أن تنسى كل شيء - سأقول إنني نسيته ولا أريد التحدُّث عنه مرة أخرى. سوف تعتقد أنني غريبة وسوف تتضايق لأنني سأحرمها من الدراما - لكن إذا تصرّفت بشكلٍ طبيعي، سوف تنسى قريباً كل شيء. بالنسبة إلى غابرييل، سأريحه. سأتصرّف وكأن كل شيء عادَ إلى وضعه الطبيعي. سأقدّم أداءً رائعاً. لن أسمح للحذر أن يغادرني مرة ثانية.

ذهبنا إلى الصيدلية في طريق العودة، وحصلَ غابرييل على الدواء. عندما كنا في المنزل مرة أخرى، ذهبنا إلى المطبخ.

أعطاني الحبوب الصفراء مع كوب من الماء. «خذيها».

قلت: «أنا لست طفلة. لا تحتاج أن تسلّمها إليّ».

«أعرف أنك لست طفلة. أريد فقط أن أتأكد من أنك ستأخذين الدواء - ولن ترميه».

«سآخذه».

شاهدني غابرييل وأنا أضع الحبوب في فمي وأرتشف بعضَ الماء.

قال: «فتاة جيّدة»، وقبّلَ خدّي. غادرَ الغرفة.

في اللحظة التي أدار غابرييل ظهره، بصقتُ الحبوب. بصقتهم

في الحوض وغسلت أثرهم في المجاري. لن آخذ أي دواء. المخدِّرات التي أعطاني الدكتور ويست آخر مرة قادتني تقريباً إلى الجنون. ولن أخاطر بذلك مرة أخرى.

أحتاج إلى ذكائي الآن.

أحتاج أن أكون مستعدّة.

17 أغسطس

بدأتُ إخفاء هذه اليوميّات. هناك لوح أرضية فضفاض في غرفة النوم الإضافية. أحتفظُ بها هناك بعيداً عن الأنظار في الفضاء الذي يوجد تحت ألواح الأرضية. لماذا؟ حسناً، أنا صادقة جداً هنا في هذه الصفحات. ليس آمناً تركها مُلقاة في أي مكان. أظلُّ أتخيّل أن غابرييل سيعثر على اليوميّات، وسيقاوِم فضوله ولكن بعد ذلك سيفتحها ليبدأ في القراءة. إذا اكتشف أنني لا أتناول الدواء، سيشعرُ بالخيانة، وسيصاب بأذى - لا أستطع تحمّل ذلك.

الحمد لله، لدي هذه اليوميّات لأكتب فيها. إنها تبقيني عاقلة.

لا يوجد شخص آخر يمكنني التحدّث إليه.

لا أحد يمكنني الثقة به.

21 أغسطس

لم أخرج من المنزل لمدة ثلاثة أيام. كنت أدّعي لغابرييل أنني ذاهبة للتنزُّه في فترة بعد الظهر عندما يكون خارج المنزل، ولكن هذا لم يكن صحيحاً.

تجعلني أشعر بالخوف، فكرة الخروج من المنزل.

سأكون أكثر تعرُّضاً للخطر. على الأقلّ هنا، في المنزل، أعرف أنني آمنة. يمكنني الجلوس إلى جانب النافذة ومراقبة المارّة. أفحص كل وجه لأرى إن كان يشبه وجه ذلك الرجل - لكنني لا أعرف شكل وجهه بالضبط، هذه هي المشكلة. كان يمكنه أن يزيل تنكّره، وأن يتحرّك أمامي، دون أن ألاحظ ذلك تماماً.

إنها فكرة مرعِبة.

22 أغسطس

لا يوجد حتى الآن أي أثر له. لكن لا يجب أن أفقد التركيز. إنها مسألة الوقت. عاجلاً أم آجلاً سوف يعود. أحتاج أن أكون جاهزة. أحتاج إلى فعل شيء ما.

استيقظت هذا الصباح وتذكّرت مسدّس غابرييل. سأنقله من غرفة النوم الإضافية. سأبقيه في الطابق السُّفلي حيث يمكنني الحصول عليه بسهولة. سوف أضعه في خزانة المطبخ، بالقرب من النافذة. بهذه الطريقة سيكون هناك إذا كنت في حاجة إليه.

أعرف أن كل هذا يبدو مجنوناً. آمل ألا يحدث شيء من هذا القبيل. آمل ألا أرى الرجلَ مرة أخرى.

ولكن لدي شعور مروع بأنني سأراه.

أين هو؟ لماذا لم يكن هنا؟ هل يحاول أن يجعلني أحترس أقل؟ لا يجب أن أفعل ذلك. يجب أن أستمرّ في يقظتي بالقرب من النافذة.

واصلي الانتظار.

واصلي المراقبة.

23 أغسطس

لقد بدأتُ أعتقد أنني تخيّلت كل شيء. ربما فعلت.

ظلَّ غابرييل يسألني عن حالي - إذا كنتُ على ما يرام. كنت أعرف أنه قلِق، رغم أنني أصرُّ على القول إنني بخير. يبدو أن تمثيلي لم يعد يقنعه. يجب أن أحاول أكثر. كنت أتظاهر بأنني أركّز على العمل طوال اليوم - بينما في الواقع كنت بعيدة كل البُعد عن العمل. فقدت أي اتصال معه، أي قوة دافعة لإنهاء اللوحات. وأنا أكتب هذا، لا أستطيع بصراحة أن أقول إنني أعتقد أنني سأرسم مرة أخرى. ليس حتى ينتهي كل هذا الأمر، على أي حال.

كنت أقدّم الأعذار عن عدم رغبتي في الخروج - لكن غابرييل أخبرني الليلة أنه لم يكن لدي خيار آخر. لقد دعانا ماكس لتناول العشاء.

لا يمكنني التفكير في أي شيء أسوأ من رؤية ماكس. توسّلت لغابرييل لإلغاء الموعد، قائلة إنني بحاجة إلى العمل - لكنه قال لي إن الخروج سيحسّن من وضعي. أصرَّ وكنت أعرف أنه كان يقصد ما يقول، لذلك لم يكن لدي خيار. استسلمت وقلت نعم.

كنت قلقة طوال اليوم، حول هذه الليلة. لأنه حالما بدأ عقلي بالاشتغال، بدا أن كل شيء يأخذ مكانه. كل شيء منطقي. لا أعرف لماذا لم أفكّر بهذه الطريقة من قبل، الأمر واضح جداً.

أفهم الآن. الرجل - الرجل الذي يراقبني - ليس جان-

فيليكس. جان-فيليكس ليس شريراً أو مخادِعاً بما يكفي للقيام بهذا النوع من الأفعال. مَنْ هذا الآخر الذي يريد أن يعذبني، أن يخيفني، ويعاقبني؟

ماكس.

بالطبع إنه ماكس. من الأكيد أنه ماكس. إنه يحاول أن يقودني إلى الجنون.

أنا مرهوبة من هذا الأمر، لكن يجب أن أجدَ الشّجاعة بطريقة ما. سأقوم بذلك الليلة.

سأواجهه.

24 أغسطس

كان خروجي من المنزل غريباً ومخيفاً بعض الشيء في الليلة الماضية، بعد مكوثي طويلاً جداً داخل المنزل.

شعرتُ بأن العالم الخارجي ضخم - مساحة فارِغة من حولي، وسماء كبيرة فوقي. شعرتُ بأنني صغيرة للغاية وتمسّكتُ بذراع غابرييل راغبة في دعمه لي.

على الرغم من أننا ذهبنا إلى المطعم المفضّل لدينا، أوغوستو، لم أكن أشعر بالأمان. لم يكن يشعرني بالراحة ولم يكن مألوفاً كما كان دائماً. كان المطعم يبدو مختلفاً بطريقة أو بأخرى. ورائحته مختلفة - رائحة شيء محترق. سألت غابرييل ما إذا كانت النيران مشتعلة في المطبخ، لكنه قال إنه لا يستطيع شمّ رائحة أي شيء، وأنني كنت أتخيّل ذلك.

قال: «كل شيء على ما يرام. احتفظي بهدوئك».

قلت: «أنا هادئة. ألا أبدو هادئة؟».

لم يرد غابرييل. شدَّ فكّه، بالطريقة التي يفعل عندما يكون منزعجاً. جلسنا ننتظر ماكس في صمت.

أحضرَ ماكس موظّفة استقباله، تانيا، لتناول العشاء، كان قد اتصل بها. يبدو أنهما بدآ في المواعدة. كان ماكس يتصرّف وكأنه مفتون بها، كانت يداه تحيطا بجميع أنحاء جسدها، يلمسها، ويقبّلها - وطوال الوقت ظلَّ يحدّق في وجهي. هل كان يظن أنه سيجعلني غيورة؟ إنه فظيع. إنه يجعلني أشعر بالتقزُّز.

لاحظَت تانيا أن هناك أمراً ما - ضبطت ماكس وهو يحدّق في عدة مرات. يجب أن أحذّرها منه حقاً، أن أخبرها بما هي مُقدمة عليه. ربما سأفعل، ولكن ليس الآن. كانت لدي أولويات أخرى في تلك اللحظة.

قال ماكس إنه سيذهب إلى الحمّام. انتظرتُ لحظة ثم انتهزت فرصتي. قلت إني بحاجة إلى الذهاب إلى الحمّام أيضاً.

تركتُ الطاولة وتبعته.

أدركت ماكس في الزاوية، وأمسكت بذراعه. أمسكت بها بشدّة.

قلت: «توقف عن ذلك. توقف عن ذلك!».

بدا ماكس مرتبكاً. «أتوقف عن ماذا؟».

«أنت تتجسّس عليّ، ماكس. أنت تراقبني. أنا أعرف أنك تفعل ذلك».

«ماذا؟ ليس لدي أي فكرة عمّا تتحدّثين عنه، أليسيا».

«لا تكذب عليّ». كنت أجدُ صعوبة في التحكُّم في صوتي.

كنت أريد أن أصرخ. «لقد رأيتك، حسناً؟ أخذت صورة. أخذت صورة لك!».

ماكس ضحكَ. «عمَّ تتحدثين؟ اتركيني، أيتها العاهرة المجنونة».

صفعتُ وجهه، بشدّة.

ثم التفت ورأيت تانيا واقفة هناك. كانت تبدو كما لو كانت هي التي صُفعت.

نظرت تانيا إلى ماكس ثم إليّ، لكنها لم تقل شيئاً. غادرت المطعمَ.

نظرَ إليّ غاضباً، وقبل أن يتبعها، قال بصوت منخفض وغاضب: «ليس لدي أي فكرة عمّا تتحدثين عنه. أنا لا أراقبك، تباً لك. الآن ابتعدي عن طريقي».

ومن الطريقة التي تحدّث بها، بهذا الغضب، وهذا الاحتقار، يمكن أن أقول إن ماكس كان يقول الحقيقة. لقد صدّقته. لم أكن أريد أن أصدّقه - لكنني فعلت.

ولكن إذا لم يكن ماكس... فمن يكون هذا الرجل؟

25 أغسطس

سمعتُ شيئاً للتوّ. ضجيج في الخارج. تأكّدت من النافذة. ورأيت شخصاً يتحرّك في الظلّ -

إنه الرجل. إنه في الخارج.

اتصلت بغابرييل، لكنه لم يردّ. هل يجب أن أهاتف الشرطة؟ لا أعرف ما يجب القيام به. يدي ترتجف كثيراً. أنا بالكاد أستطيع -

يمكنني سماعه - في الطابق السُّفلي - يحاول فتح النوافذ والأبواب. إنه يحاول الدخول.

يجب أن أخرج من هنا. يجب أن أهرب.

يا إلهي - يمكنني سماعه -

انه في الداخل.

إنه داخل المنزل.

الجزء الرابع

الهدف من العِلاج ليس تصحيح الماضي، ولكن تمكين المريض من مواجهة تاريخه، والحزن عليه.

أليس ميلر

1

أغلقتُ يوميّات أليسيا ووضعتها على مكتبي.

جلستُ هناك، لا أتحرّك، أستمع إلى المطر الذي ينزل بغير انقطاع خارج النافذة. حاولت أن أفهم ما قرأته للتوّ. كان واضحاً أن قضية أليسيا بيرينسون كانت أكثر تعقيداً بكثير ممّا كنت أفترض. كانت مثل كتاب مُغلق بالنسبة إليّ. الآن أصبح هذا الكتاب مفتوحاً ومحتوياته أخذتني تماماً على حين غِرّة.

كان لدي الكثير من الأسئلة. كانت أليسيا تشتبه أنها كانت مُراقبة. هل اكتشفَت يوماً هوية الرجل؟ هل أخبرت أي شخص آخر؟ كنت بحاجة إلى معرفة ذلك. حسب ما أعرفه، أخبرت فقط ثلاثة أشخاص - غابرييل، باربي، وهذا الدكتور الغامض، السيد ويست. هل توقفَت هناك، أم أخبرَت أي شخص آخر؟ آخر سؤال. لماذا انتهت اليوميّات فجأة؟ هل كان هناك المزيد من ذلك، مكتوب في مكان آخر؟ يوميّات أخرى لم تسلّمها إليّ؟ وتساءلتُ عن غرض أليسيا من إعطائي اليوميّات لقراءتها. كانت تريد أن توصل رسالة ما، بالتأكيد - وكان تواصُلاً حميماً وصادماً تقريبا. هل كان فعلاً يعبِّر عن حُسن نيّة - لتظهر مقدار ثقتها بي؟ أو أن هناك نيّة شريرة؟

كان هناك شيء آخر؛ شيء كنت بحاجة إلى التحقُّق منه. الدكتور ويست - الطبيب الذي عالجَ أليسيا. شخص شاهِد على الحدث وذو أهمية، يتوفّر على معلومات مهمّة جداً عن حالتها النفسية في وقت ارتكاب جريمة القتل. ومع ذلك، لم يقدّم الدكتور ويست شهادته في محاكمة أليسيا. لمَ لا؟ لم يرد ذكر اسمه على الإطلاق. حتى رأيت اسمه في يوميّاتها، كان كما لو أنه غير موجود. ما هو مقدار المعلومات التي لديه؟ لماذا لم يتقدّم للشهادة؟

الدكتور ويست.

لا يمكن أن يكون الرجل نفسه. يجب أن يكون تطابُق الأسماء من قبيل الصدفة، بالتأكيد.

كنت بحاجة إلى التأكّد من ذلك.

وضعتُ اليوميّات في درج مكتبي، وأغلقته. وثم، على الفور تقريباً، غيّرتُ رأيي. لقد فتحت الدرج وأخرجت اليوميّات. من الأفضل أن تبقى معي - إنه أكثر أماناً ألّا أتركها بعيدة عني. وضعتها في جيب المِعطف، وقمتُ بتثبيته على ذراعي.

تركتُ مكتبي. ذهبت إلى الطابق السفلي ومشيتُ على طول الممرّ حتى وصلت إلى الباب في نهايته.

وقفتُ هناك للحظة، أنظر إليها. كان الاسم منقوشاً على علامة صغيرة على الباب. كان مكتوباً عليها: «الدكتور ك. ويست».

لم أتكبّد عناء طرق الباب. فتحتُ الباب ودخلت.

2

كان كريستيان يجلسُ خلف مكتبه، ويأكل السوشي الجاهز بعودَي تناول الطعام. رفع بصره وقطّب حاجبيه.

«ألا تعرف كيف تطرق الباب؟».

«يجب أن نتكلّم».

«ليس الآن، أنا في منتصف وجبة الغداء».

«لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً. مجرّد سؤال سريع. هل سبق لك أن عالجت أليسيا بيرنسون؟».

ابتلعَ كريستيان ملأ فمه من الأرزّ، ونظر إليّ بعينَين فارغتَين.

«ماذا تعني؟ أنت تعرف أنني أقوم بذلك. أنا المسؤول عن فريق رعايتها».

«لا أقصد هنا - أقصد قبل قبولها في ذا غروف».

شاهدت كريستيان عن كثب. أخبرني التعبير على وجهه بكلّ ما أحتاج إلى معرفته. أصبح وجهه أحمر وخفضَ عودَي تناول الطعام.

«عمَّ تتحدّث؟».

أخرجتُ يوميّات أليسيا من جيبي وأمسكت بها.

«قد يهمّك هذا. إنها يوميّات أليسيا. كُتبت في الأشهر التي سبقت القتل. لقد قرأت ذلك».

«ما علاقة ذلك بي؟».

«إنها تذكر اسمك فيها».

«أنا؟».

«يبدو أنك كنت تراها على انفراد قبل أن يتم إدخالها إلى ذا غروف. لم أكن على علم بذلك».

«لا أفهم. هناك خطأ ما بالتأكيد».

«لا أعتقد ذلك. كنت تراها كمريضة خاصّة لمدة عدة سنوات. ومع ذلك، لم تتقدّم للشهادة في المحاكمة - على الرغم من أهمّية الأدلة التي تتوفّر عليها. ولم تعترف بأنك تعرف أليسيا بالفعل عندما بدأت العمل هنا. من المحتمل أنها عرفتك على الفور - إنك محظوظ أنها صامتة».

قلتُ هذا بسخرية ولكنني كنت غاضباً جداً. الآن فهمت لماذا كان كريستيان ضدّ محاولتي جعل أليسيا تتحدّث. كان في مصلحته أن تحافِظ على صمتها.

«أنت ابن عاهرة أناني، يا كريستيان، هل تعرف ذلك؟».

حدّق كريستيان إلى وجهي بنظرة متزايدة من الفزع.

«اللعنة»، قال تحت أنفاسه. «اللعنة. ثيو. اسمع - ليس الأمر كما يبدو عليه».

«أليس الأمر كذلك؟».

«ما هو الشيء الآخر الذي تقوله في اليوميّات؟».

«ما هو الشيء الآخر الذي يمكن أن يُقال؟».

لم يردّ كريستيان على السؤال. مدَّ يده نحوي.

«هل يمكنني إلقاء نظرة عليها؟».

قلتُ: «آسف»، وحرّكت رأسي رافضاً. «لا أعتقد أن هذا مناسباً».

لعبَ كريستيان بالعودَين وهو يتحدّث. «كان يجب عليّ أن لا أفعل ذلك. لكنه كان فعلاً بريئاً تماماً. يجب أن تصدّقني».

«آسف، لا أصدّقك. إذا كان ما فعلت بريئاً، فلماذا لم تقدّم أي شهادة بعد جريمة القتل؟».

«لأنني لم أكن طبيب أليسيا حقاً - أقصد، ليس رسمياً. قمت بهذا فقط من أجل غابرييل. كنا صديقَين. كنا في الجامعة معاً. حضرتُ حفل زفافهما. لم أكن قد رأيته لسنوات - حتى اتّصل بي، وهو يبحث عن طبيب نفسي لزوجته. كانت نفسيتها قد ساءت بعد وفاة والدها».

«وأنت تطوّعت بخدماتك؟».

«لا، لا على الإطلاق. عكس ذلك تماماً. أردت أن أحيله إلى زميل - لكنه أصرَّ على أن أراها بنفسي. وقال غابرييل أن أليسيا كانت تقاوم للغاية الفكرة كلها، وأن كوني كنت صديقاً له قد يجعلها أكثر احتمالاً أن تتعاون. كنت متردِّداً، بكل تأكيد».

«أنا متأكّد من أنك كنت متردِّداً».

ألقى عليّ كريستيان نظرة متأثّرة. «لا داعي لأن تكون ساخراً».

«أين عالجتها؟».

تردَّد. «في منزل صديقتي. ولكن كما قلت لك»، قال بسرعة، «لم يكن أمراً رسمياً - لم أكن طبيبها حقاً. كنت نادراً ما أراها. بين الحين والآخر، هذا كل شيء——».

«وفي تلك المناسبات النادرة، هل دفعت لك أتعاباً؟».

رفّت عينه وتجنّب النظر إليّ. «حسناً، أصرَّ غابرييل على الدفع، لذلك لم يكن لدي أي خيار——».

«نقداً، أفترض؟».

«ثيو——».

«هل كانت نقداً؟».

«نعم، لكن——».

«وهل صرّحتَ بذلك؟».

عضَّ كريستيان شفته ولم يردّ. لذا كان الجواب لا.

وهذا هو السبب في أنه لم يتقدّم إلى محاكمة أليسيا. تساءلتُ عن عدد المرضى الآخرين الذين كان يفحصهم «بشكلٍ غير رسمي» ولا يصرّح بدخله.

قال: «انظر. إذا اكتشف ديوميديس ذلك، فقد أخسر وظيفتي. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟». كانت في صوته نبرة توسُّل، تناشد تعاطفي. ولكن لم يكن لدي أي تعاطف تجاه كريستيان. الازدراء فقط.

«لا تفكر في البروفيسور. ماذا عن المجلس الطبي؟ ستفقد رخصتك كطبيب».

«فقط إذا أخبرتهم عن ذلك. لا يجب أن تخبر أحداً بذلك. إنها مسألة جدّية، أليس كذلك؟ أعني أن الأمر يتعلّق بوظيفتي، بحقّ الإله».

«كان يجب عليك أن تفكر في ذلك من قبل، أليس كذلك؟».

«ثيو، أرجوك...».

من الأكيد أن كريستيان يكره أن يضطر إلى التوسُّل إليّ بهذه الطريقة، لكن رؤيته منزعجاً لم تمنحني أي شعور بالرضى. أردت

إزعاجه فقط. لم يكن في نيتي إخبار ديوميديس عنه - ليس الآن على أي حال. سيكون أكثر فائدة بالنسبة إليّ إن احتفظت به معلَّقاً.

قلت: «لا بأس. لا يجب أن يعرف أي شخص آخر عن الموضوع، في الوقت الحالي».

«شكراً لك. أعني ذلك بكلِّ صدق. أنا مَدين لك».

«نعم أنت مَدين لي فعلاً. تابع حديثك».

«ماذا تريد أن تعرف؟».

«أريدك أن تتكلّم. أريدك أن تخبرني عن أليسيا».

«ماذا تريد أن تعرف؟».

قلت: «كل شيء».

3

حدق كريستيان إليّ، وهو يلعب بالعودَين. فكّر لبضع ثوانٍ قبل أن يتكلّم.

«ليس هناك الكثير لأخبرك به. لا أعرف ما تريد أن تسمع - أو من أين تريدني أن أبدأ».

قلتُ: «ابدأ من البداية. كنت تراها لعدد من السنوات؟».

«لا - أقصد، نعم - لكنني أخبرتك، ليس كثيراً كما تريد أن تجعل الأمر يبدو عليه. رأيتها مرّتين أو ثلاث مرّات بعدما مات والدها».

«متى كانت آخر مرة؟».

«قبل حوالي أسبوع من جريمة القتل».

«وكيف تصفُ حالتها النفسية آنذاك؟».

قال كريستيان: «أوه»، واستلقى على كرسيه مسترخياً الآن لأنه أصبحَ يشعر بأمان أكثر. «كانت تحسُّ بالاضطهاد، تسيطر عليها الأوهام وحتى مُصابة بالذُّهان. لكنها كانت مثل هذا من قبل. كانت لديها سلسلة طويلة من تقلُّب المزاج. كانت دائمة الصعود والنزول - حالة اضطراب شخصية حدّية نموذجية».

«أعفني من تشخيصك السخيف. فقط أعطني الحقائق».

نظر إليّ كريستيان بغضب لكنه قرّر عدم مُجادلة الفكرة. «ماذا تريد أن تعرف؟».

«أخبرَتك أليسيا أنها كانت مراقَبة، صحيح؟».

نظر إليّ كريستيان نظرة فارغة. «مراقَبة؟».

«شخص ما كان يتجسّس عليها. اعتقدتُ أنها أخبرتك بذلك؟».

نظر كريستيان إليّ بغرابة. ثم، لدهشتي، ضحك.

قلت: «ما المضحك؟».

«أنت لا تصدّق ذلك حقاً، أليس كذلك؟ التجسُّس من خلال النوافذ؟».

«ألا تعتقد أن هذا صحيح؟».

«خيال محض. كان عليّ أن أعتقد أن ذلك كان واضحاً».

أومأت إلى اليوميّات. «كانت تكتب عن ذلك بشكلٍ مقنِع. لقد صدّقتها».

«حسناً، بالطبع بدت مقنعة. كان ممكناً أن أصدّقها أنا أيضاً، لو لم أكن أعرف معلومات أكثر. كانت تمرُّ بنوبة من الذُّهان».

«إذاً أنت تصرُّ على هذا الرأي. إنها لا تبدو ذُهانية في اليوميّات. خائفة فقط».

«كان لديها تاريخ - حدث الشيء نفسه في المكان الذي كانوا يعيشون فيه قبل هامبستيد. لهذا السبب اضطروا إلى الانتقال. اتهمَت رجلاً مسنّاً في الشارع بالتجسّس عليها. وحدثت ضجة كبيرة. تبيّن في ما بعد أن الرجل العجوز كان أعمى - حتى أنه لم

يكن يستطيع رؤيتها، ناهيك التجسُّس عليها. كانت دائماً غير مستقرّة إلى حدٍّ كبير - لكن ذلك كان بسبب انتحار والدها. لم تتعافَ أبداً من الصدمة».

«هل تحدّثت معك عنه على الإطلاق؟ أعني والدها؟».

هزَّ كتفَيه. «ليس حقاً. كانت دائماً تصرُّ على أنها تحبّه وكانت لديهم علاقة طبيعية للغاية - طبيعية كما يمكن أن تكون، مع العِلم أن والدتها قتلت نفسها. بصراحة، أعتبر نفسي محظوظاً لحصولي على أي معلومات من أليسيا على الإطلاق. كانت غير متعاوِنة جداً. لقد كانت - حسناً، أنت تعرف كيف هي».

«ليس كما تعرفها أنت، على ما يبدو». أكملتُ الحديث قبل أن يتمكن من مقاطعتي: «لقد حاولَت الانتحار بعد وفاة والدها؟».

هزَّ كريستيان كتفَيه. «إذا أردت. لكني لن أسميه كذلك».

«كيف تسميه؟».

«كان سلوكاً انتحارياً، لكنني لا أعتقد أنها كانت تنوي الموت. كانت نرجسية للغاية لدرجة أنها لم ترغب حقاً في إيذاء نفسها. لقد تناولت جرعة زائدة، للتظاهُر أكثر من أي شيء آخر. كانت تعبِّر عن محنتها لغابرييل - كانت دائماً تحاولُ الحصول على انتباهه، المسكين. لو لم أكن أحترم سرّية المعلومات، لكنت حذرته أن يبتعد عنها».

«من المؤسف بالنسبة إليه أنك رجل أخلاقيّ».

تألّمَ كريستيان من كلامي. «ثيو، أعلم أنك رجل متعاطِف للغاية - هذا ما يجعلك معالجاً جيداً - لكنك تهدر وقتك مع أليسيا بيرينسون. حتى قبل القتل، كان لديها القليل من القدرة على التأمُّل أو العقلنة أو أي شيء تريد أن تسميه. كانت منغمسة تماماً في نفسها

وفنّها. رغم كل التعاطُف الذي تكنّه لها، كل اللُّطف - هي غير قادرة على ردّ الشعور نفسه. إنها قضية ضائعة. عاهرة تماماً».

قال كريستيان هذا بتعبير ساخر - وبالتأكيد دون أي تعاطُف ظاهر مع هذه المرأة المحطَّمة. تساءلتُ، للحظة، عمّا إذا كان كريستيان هو المصاب باضطراب الشخصية الحدّية، وليس أليسيا. كان سيكون هذا التفسير منطقياً أكثر. وقفت.

«سوف أرى أليسيا. أحتاج إلى بعض الإجابات».

«مِن أليسيا؟»، بدا كريستيان مذهولاً. «و كيف تنوي الحصول عليها؟».

قلت له: «بسؤالها»، وخرجت.

4

انتظرت حتى اختفى ديوميديس في مكتبه، وكانت ستيفاني في اجتماع مع المؤسسة المسيِّرة. ثم ذهبت إلى «غولد فيش بول» ووجدت يوري هناك.

قلت: «أحتاج أن أرى أليسيا».

قال يوري: «أوه، نعم؟»، نظر إليّ نظرة غريبة. « لكنني اعتقدت أن العلاجَ توقّف؟».

«نعم توقف. أحتاج إلى إجراء محادثة خاصة معها، هذا كل شيء».

«حسناً، أرى ذلك». بدا يوري متشكِّكاً. «حسناً، غرفة العلاج مشغولة - تجتمع إنديرا بمرضى هناك لبقية فترة بعد الظهر». فكّر للحظة. «غرفة الفنّ فارغة، إذا كنت لا تمانع من الاجتماع هناك؟ يجب أن يكون اللِّقاء سريعاً، رغم ذلك».

لم يعطِ توضيحاً أكثر ولكني كنت أعرف ما يعنيه - كان علينا القيام بذلك بسرعة، حتى لا يلاحظ أحد اجتماعنا ويبلّغ ستيفاني. كنت ممتنّاً أن يوري كان إلى جانبي. كان من الواضح أنه رجل صالح. شعرت بالذنب لأني أسأت تقديره عندما التقينا للمرة الأولى.

قلت: «شكراً. أقدّر هذا».

ابتسم يوري في وجهي. «سأحضرها هناك خلال عشر دقائق».

وكان يوري صادقاً مثل وعده. بعد عشر دقائق، كنت أنا وأليسيا في غرفة الفنّ، نجلس مقابل بعضنا البعض، عبر طاولة العمل المرشوشة بالأصبغة.

جلست على كرسي متهالِك، أشعرُ بعدم الاستقرار. بدت أليسيا مستعدّة تماماً عندما جلست - كما لو أنها كانت تجلس أمام فنان ليرسم لها صورة، أو على وشك أن ترسم شخص ما.

قلتُ: «شكراً لك على هذا»، وأخذت يوميّاتها ووضعتها أمامي، «للسماح لي بقراءتها. وهذا يعني الكثير بالنسبة إليّ أنك عهدت لي بشيء شخصي للغاية».

ابتسمتُ، فقط لأتلقّى تعبيراً فارغاً. كانت قسمات وجه أليسيا صعبة القراءة وغير ثابتة. تساءلتُ عمّا إذا كانت ندمت على إعطائي اليوميّات. ربما شعرَت بالعار لكشفها نفسها تماماً لي؟

وقفتُ للحظة، ثم تابعت: «تنتهي اليوميّات فجأة، على غموض مشوّق. تصفّحت ما تبقّى من الصفحات الفارغة. إنها تشبه إلى حدٍّ بعيد علاجنا معاً - ناقصة وغير مكتملة».

لم تتحدّث أليسيا. حدقت إليّ. لا أعرفُ ما كنت أتوقّع، ولكن ليس هذا الوضع. افترضت أنها بإعطائي اليوميّات، كانت تشير إلى تغيير من نوع ما - كان يمثّل دعوة، انفتاحاً، نقطة دخول؛ وها أنا هنا، مرة أخرى في المربّع الأول، واجهتُ جدار لا يمكن اختراقه.

«أنت تعرفين، كنت آمل أنه بحديثك معي بطريقة غير مباشرة

- من خلال هذه الصفحات - قد تقومين بخطوة واحدة إلى الأمام، وتتحدثين معي شخصياً».

لا يوجد أي ردّ.

«أعتقد أنك قدَّمتِ هذا لي لأنك تريدين التواصُل معي. وفعلاً قمتِ بالتواصل. أخبرَتني قراءة هذه اليوميّات بالكثير عنك - كيف كنت وحيدة، وكيف كنت معزولة، وكم كنت خائفة - وأن وضعك كان أكثر تعقيداً ممّا كنت قدّرت سابقاً. علاقتك مع الطبيب، الدكتور ويست، على سبيل المثال».

نظرتُ إليها عندما ذكرت اسم كريستيان. كنت آمل أن أرى نوعاً من ردّ الفعل، كتضييق العينين، أو عضّ الفكّ - شيء ما، أي شيء - ولكن لم يكن هناك شيء، ولا حتى رمشة جفن.

«لم أكن أعرف أنك كنت تعرفين كريستيان ويست قبل أن يتمَّ قبولك في ذا غروف. لقد رأيتِه سرّاً لعدة سنوات. من الواضح أنك عرفته عندما جاء للعمل هنا لأول مرة - بعد بضعة أشهر من وصولك. من الأكيد أن عدم اعترافه بمعرفتك كان أمراً مربِكاً لك. وربما مزعجاً جداً، كما أتصوّر؟».

لقد طرحت هذا السؤال، لكن لم يكن هناك ردّ. يبدو أن كريستيان لم يثر اهتمامها كثيراً. نظرت أليسيا بعيداً، ضجِرة، ومصابة بخيبة أمل - كما لو أنني قد ضيّعت بعض الفُرص، بخروجي عن الطريق الصحيح. كان هناك شيء ما تتوقعه مني؛ شيء فشلت في تقديمه.

حسناً، لم أنتهِ بعد.

قلتُ: «هناك شيء آخر. تثير اليوميّات بعض الأسئلة - أسئلة

تحتاج إلى إجابة. بعض الأشياء التي لا يستقيم معناها، لا تتناسب مع المعلومات التي لدي من مصادر أخرى. الآن وقد سمحتِ لي بقراءتها، أشعر أنني مضطرّ للتحقيق أكثر في الأمر. أرجو أن تفهمي ذلك».

أعطيت أليسيا اليوميّات. أخذَتها ووضعت أصابعها عليها. حدّقنا إلى بعضنا البعض للحظة.

قلت في النهاية: «أنا إلى جانبك، أليسيا. أنت تعرفين ذلك، أليس كذلك؟».

لم تقل أي شيء.

فهمتُ سكوتها كجوابٍ بنعم.

5

أصبحَت كاثي أقل اهتماماً بالمنزل. أفترض أنه كان أمراً لا مفرّ منه. بممارستها الخيانة الزوجية لفترة طويلة ودون أي ردّ فعل منازع مني، بدأَت في التحوُّل إلى امرأة كسولة.

عدت إلى المنزل لأجدها على وشك الخروج.

قالت وهي تلبس حذائها الرياضي: «سأذهب في نزهة على الأقدام. لن أتأخّر طويلاً».

«يمكنني أن أمارس بعض التمارين الرياضية. هل تحبّين أن أرافقك؟».

«لا، أنا بحاجة إلى استظهار بعض النصوص من المسرحية».

«يمكنني اختبار أدائك إذا أردت».

«لا»، قالت كاثي وهي تهزّ رأسها. «سيكون الأمر أسهل بمفردي. سأظلُّ أقرأ الخطابات - تلك التي لا أستطيع أن أستظهرها، كما تعلم، هي في الفصل الثاني. سأمشي في جميع أنحاء الحديقة، أكرّرها بصوت عالٍ. يجب أن ترى النظرات التي سأتلقّى من المارّة».

كان عليّ أن أوافق. قالت كاثي كل هذا بصدق تام، مع

الحفاظ على اتصال العين المستمرّ بي. كانت ممثلة رائعة. كانت قدرتي على التمثيل تتحسّنُ أيضاً. ابتسمت لها ابتسامة دافئة مفتوحة.

قلت لها: «جولة ممتعة».

تبعتها بعد أن غادرت الشقّة. ظللت أمشي على مسافة حذرة - لكنها لم تنظر إلى الوراء مرة واحدة. كما قلت، كانت قد أصبحت غير مبالية.

مشيت لمدة خمس دقائق، إلى مدخل المنتزه. عندما اقتربت منه، خرج رجل من الظلّ. كان مديراً ظهره لي ولم أتمكّن من رؤية وجهه. كان لديه شعر غامق وبنيته قوية، وكان أطول مني. ذهبَت إليه وسحبها نحوه. بدآ في تبادل القُبلات. التهمَت كاثي قُبلاته بنهم، واستسلمت له. كان الأمر غريباً - وهذا أقل ما يمكن أن أقول - أن أرى ذراعَي رجل آخر حولها. يداه تلامسانها وتداعبانها من خلال ملابسها.

كنت أعرف أنه يجب عليّ أن أختبئ. كنت مكشوفاً وفي مرمى البصر - إذا دارت كاثي، من المؤكّد أنها ستراني. لكنني لم أستطع أن أتحرّك من مكاني. كنت مثبّتاً في مكاني، حدقت في ميدوسا وتحولتُ إلى حجر.

في النهاية توقفا عن التقبيل، ومشا إلى داخل الحديقة، ذراعاهما متشابكان. تبعتهما. كان مربكاً. من الخلف، وعن بُعد، لم يبدُ الرجل مختلفاً عني - لبضع ثوانٍ عشت تجربة غير عادية خارج الجسم، مقنعاً نفسي أنني كنت أراقب نفسي وأنا أمشي في الحديقة مع كاثي.

قادت كاثي الرجل نحو منطقة مُشجِرة، مليئة بالأشجار. وتبعها إلى هناك ثم اختفا.

شعرت بفزع سيّئ في بطني. كان تنفسي سميكاً، بطيئاً، وثقيلاً. كان كل جزء من جسدي يطلب مني أن أغادر، أن أذهب، أن أركض، أن أهرب. لكنني لم أفعل. تبعتهما إلى الغابة.

حاولت أن أقوم بأقلّ قدر ممكن من الضوضاء - لكنّ الأغصان كانت تتحطّم تحت قدمي، والفروع تخدش وجهي. لم أستطع رؤيتهما في أي مكان - أصبحَت الأشجار أكثر كثافة لدرجة أنه لم أتمكن أن أرى سوى مسافة قليلة أمامي.

توقفتُ واستمعت. سمعتُ حفيف الأشجار. لكن ذلك كان يمكن أن يكون بفعل الريح. ثم سمعت شيئاً لا لُبس فيه، صوت منخفض النبرة عرفته على التوّ.

حاولت الاقتراب، لكن الفروع أمسكت بي واحتجزتني معلّقاً، مثل ذبابة في شبكة العنكبوت. وقفت هناك في الضوء الخافت، أتنفّسُ رائحة رطوبة قشرة الشجر والأرض. استمعت إلى كاثي وهي تئنُّ، وإليه وهو ينخر مثل حيوان.

اشتعلَت نفسي كراهية. لقد جاء هذا الرجل من العدم وغزا حياتي. سرق وأغوى وأفسد الشيء الوحيد في العالم الذي كانت له قيمة بالنسبة إليّ. كان فعلاً وحشياً - خارقاً للعادة. ربما لم يكن إنساناً على الإطلاق، لكنه أداة إله حاقد عازم على معاقبتي. هل كان الإله يعاقبني؟ لماذا؟ ما هو ذنبي - غير الوقوع في الحب؟ هل لأنني أحببت بعمق شديد وبحاجة قوية؟ لأنني أحببت أكثر من اللازم؟

هل أحبها هذا الرجل؟ أنا أشك في ذلك. ليس كما فعلت. كان فقط يستعملها؛ يستغلُّ جسدها. لم يكن يهتم بها كما فعلت. كنت مستعدّاً للموت من أجل كاثي.

كنت مستعدّاً للقتل من أجلها.

فكرت في أبي - كنت أعرف ما سيفعله في هذا الموقف. كان سيقتل الرجل. **كُن رجلاً**. كنت أستطيع سماع والدي يصرخ. **كُن قوياً**. هل كان هذا ما يجب عليّ فعله؟ أقتله؟ أتخلّص منه؟ كانت طريقة للخروج من هذه الأزمة - كانت وسيلة لإبطال السحر، لأطلق سراح كاثي ونصبح حرَّين. ستحزن لخسارته، وينتهي الأمر، وسيكون مجرد ذكرى، يمكن نسيانه بسهولة؛ ويمكن أن نستمرّ كما كنا من قبل. يمكنني أن أفعل ذلك الآن، هنا، في الحديقة. أسحبه إلى البِركة، ثم أغرق رأسه تحت الماء. سأبقي رأسه هناك حتى يرتعد جسده، ويصبح جثّة في يدَي. أو يمكن أن أتبعه إلى المنزل على المترو، وأقف وراءه مباشرة فوق الرصيف - وبدفعة قوية - أدفعه في طريق القطار القادم. أو أسير خلفه في شارع مهجور، وأمسك بآجُرٍّ، وأحطم دماغه. لمَ لا؟

ارتفع صوت أنين كاثي فجأة، ثم كان هناك صمت... قاطعه ضحك مكتوم كنت أعرفه جيداً. كان يمكنني أن أسمع تكسُّر الأغصان وهم يمشون خارج الغابة.

انتظرت لحظات قليلة. ثم كسرت الفروع حولي وشققت طريقي للخروج من بين الأشجار، وخدشت يدي وجُرحت كثيراً.

عندما خرجت من الغابة، كانت عيني نصف عمياء بالدموع. مسحتها بقبضة يد دامية.

تمايلتُ في مكاني ولم أذهب إلى أي مكان. كنت أدور في مكاني مثل مجنون.

6

«جان-فيليكس؟».

لم يكن هناك أحد في مكتب الاستقبال، ولم يظهر أحد عندما ناديت. ترددت للحظة، ثم دخلت صالة العرض.

مشيت على طول الممر إلى حيث كانت معلقة لوحة **ألسيستيس**. مرة أخرى، نظرت إلى اللوحة. مرة أخرى، حاولت أن أقرأها؛ ومرة أخرى فشلت. كان هناك شيء في الصورة يتحدى التفسير - أو كان هناك معنى ما لم أفهمه بعد. ولكن ما هو؟

وبعد ذلك - وأنا آخذ نفساً حادّاً، لاحظت شيئاً لم أرَه من قبل. كان وراء أليسيا، في الظلام، إذا حدّقت ونظرت بعناية في اللوحة، تجمّع للأجزاء الأكثر سواداً من الظلال - مثل صورة عاكسة ثلاثية الأبعاد تتحول من بُعدَين إلى ثلاثة عند النظر إليها من زاوية ما - ويظهر لك شكل فجأة من الظلّ... إنه **رجل**. رجل يختبئ في الظلام. يراقب. يتجسّس على أليسيا.

«ماذا تريد؟».

جعلني الصوت أقفزُ من مكاني. استدرتُ. لم يكن جان-فيليكس سعيداً جداً لرؤيتي.

وقال: «ماذا تفعل هنا؟».

كنت على وشك أن أشير إلى شكل الرجل في اللوحة، وأسأل جان-فيليكس عنه، لكن شيئاً ما جعلني أعتبرُ أن ذلك قد يكون ربما فكرة سيّئة. بدلاً من ذلك، ابتسمت. «كان لدي مزيد من الأسئلة. هل الوقت مناسب الآن؟».

«ليس حقاً. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه. بالتأكيد لا يمكن أن يكون هناك أي شيء آخر».

«في الواقع، ظهرت بعض المعلومات الجديدة».

«وما هي؟».

«حسناً، المعلومة الأولى، لم أكن أعرف أن أليسيا كانت تخطِّط لمغادرة معرض اللَّوحات الخاص بك».

كان هناك توقُّف لمدة ثانية قبل أن يجيب جان-فيليكس. بدا صوته متشنّجاً، مثل شريط مطاطي على وشك الانكسار.

«ما الذي تتحدّث عنه؟».

«هل هذا صحيح؟».

«ما علاقتك أنت بالأمر؟».

«أليسيا مريضتي. أنوي جعلها تتحدّث مرة أخرى - لكني أرى الآن أنه قد يكون من مصلحتك إذا بقيت صامتة».

«ماذا يعني هذا؟».

«حسناً، طالما أنه لا أحد يعرف رغبتها في المغادرة، يمكنك الاحتفاظ بأعمالها الفنية إلى أجل غير مُسمّى».

«ما الذي تتّهمني به بالضبط؟».

«أنا لا أتهمك على الإطلاق. أنا فقط أصرّح بحقيقة».

ضحك جان-فيليكس. «سنرى ذلك. سأتّصل بمحامي - لرفع شكوى رسمية إلى المصحّة».

«لا أعتقد أنك سوف تفعل ذلك».

«ولِمَ لن أفعل؟».

«حسناً، لم أخبرك كيف سمعت أن أليسيا كانت تخطّط للمغادرة».

«من قالَ لك كان يكذب».

«لقد كانت أليسيا».

«ماذا؟» بدا جان-فيليكس مذهولاً. «أنت تعني... تكلّمَت؟».

«بطريقة ما. أعطتني يوميّاتها كي أقرأها».

«يوميّاتها؟» رفرفَت عينه عدة مرات كما لو أنه كان يعاني من مشكلة في معالجة المعلومات. «لم أكن أعلم أن أليسيا احتفظَت بيوميّات».

«حسناً، لقد فعلت. إنها تصفُ لقاءاتك القليلة الأخيرة بها ببعض التفاصيل».

لم أقل أي شيء آخر ولم أكن بحاجة إلى ذلك. كانت هناك وقفة ثقيلة. كان جان-فيليكس صامتاً.

قلت: «سأتصل بك». ابتسمتُ وخرجت.

عندما خرجت إلى شارع سوهو، شعرتُ بالذنب بسبب الإزعاج الذي سبّبته لجان-فيليكس بهذه الطريقة. لكنها كانت متعمّدة - أردت أن أرى كيف سيكون تأثير الاستفزاز عليه، كيف سيكون ردّ فعله، وماذا سيفعل.

الآن يجب عليّ أن أنتظر وأرى النتيجة.

بينما كنت أسير عبر سوهو، اتصلت بابن عمّ أليسيا، بول روز، لأعلمه أنني قادم. لم أكن أرغب في الذهاب إلى المنزل بطريقة غير معلَنة والمخاطرة باستقبال مماثل لآخر مرة. لا تزال الكدمات على رأسي لم تشفَ بالكامل.

وضعتُ الهاتف بين أذني وكتفي وأشعلتُ سيجارة. بالكاد كان لدي وقت كافٍ للاستنشاق قبل أن يجيب الهاتف، بعد الرنّة الأولى. كنت آمل أن يكون بول، وليس ليديا.

كان الحظّ بجانبي.

«مرحباً؟».

«بول. أنا ثيو فابر».

«أوه. مرحباً رفيقي. آسف، أتكلّم بصوت منخفِض»، قال. «أمي تأخذ قيلولة، ولا أريد أن أزعجها. كيف حال... رأسك؟».

«أفضل بكثير، شكراً».

«جيّد. كيف يمكنني أن أساعدك؟».

قلت: «حسناً، عرفت بعض المعلومات الجديدة عن أليسيا... كنت أرغب في التحدّث معك بشأنها».

«أي نوع من المعلومات؟»

أخبرته أن أليسيا أعطتني يوميّاتها كي أقرأها.

«يوميّاتها؟ لم أكن أعرف أنها احتفظت بها. ماذا تقول فيها؟».

« قد يكون من الأسهل التحدث معك مباشرة. هل لديك بعض الوقت هذا اليوم؟».

تردّدَ بول. «قد يكون من الأفضل أن لا نتقابل في المنزل. الأم ليست... في حالة جيّدة، لم تكن سعيدة جداً بآخر زيارة لنا».

«نعم، أتفهّم ذلك».

«توجد حانة في نهاية الطريق، عند المستديرة. الدب الأبيض——».

قلت: «نعم، أتذكر ذلك. يبدو ذلك جيّداً. متى؟».

«حوالي الخامسة؟ سأكون قادراً حينها على الخروج لبعض الوقت».

سمعتُ ليديا تصرخ في الخلفية. من الواضح أنها استيقظت.

قال بول: «عليّ أن أذهب. سوف أراك لاحقاً». أنهى المكالمة.

بعد ساعات قليلة، كنتُ في طريقي للعودة إلى كامبريدج. وفي القطار، قمتُ بإجراء مكالمة هاتفية أخرى - بماكس بيرينسون. تردّدتُ قبل الاتصال. لقد اشتكى بالفعل إلى ديوميديس مرة واحدة، لذلك لن يسعده أن أتصل به مرة أخرى. ولكن في هذا الظرف، كنت أعرف أنه لم يكن لدي خيار.

أجابت تانيا على الهاتف. بدا أنها لم تعد مُصابة بالزُّكام، ولكن كان بإمكاني أن أحسَّ توتُّراً في صوتها عندما أدركَت من أكون.

«لا أظنُّ - أقصد، ماكس مشغول. إنه في اجتماعات طوال اليوم».

«سأعاود الاتصال».

«لستُ متأكدة من أنها فكرة جيّدة. أنا -».

كنت أستطيع سماع ماكس في الخلفية وهو يقول شيئاً ما؛ وردّت تانيا: «أنا لا أقول ذلك، ماكس».

أمسك ماكس بالهاتف وتحدّث معي مباشرة: «أخبرت تانيا للتوّ أن تقول لك أن تذهب إلى الجحيم».

«آه».

«أنت تجرؤ على مكالمتي هنا مرة أخرى. أنا بالفعل اشتكيت مرة واحدة للأستاذ ديوميديس».

«نعم، أنا على علم بذلك. ومع ذلك، ظهرَت بعض المعلومات الجديدة، وأنها تهمّك مباشرة - لذلك شعرت بأنه لا خيار لي سوى الاتصال بك».

«أي معلومات؟».

«إنها يوميّات احتفظت بها أليسيا في الأسابيع التي سبقت جريمة القتل».

كان هناك صمت في الطرف الآخر من الخطّ. لقد تردّدتُ وتابعتُ كلامي: «تكتب أليسيا عنك بشيء من التفصيل، ماكس. قالت إنه كانت لديك مشاعر رومانسية تجاهها. كنت أتساءل ما إذا——».

كانت هناك نقرة عند إغلاقه الهاتف. حتى الآن الأمور جيّدة جداً. كان ماكس قد أخذ الطُّعم - والآن عليّ الانتظار لمعرفة كيف سيكون ردّ فعله.

أدركت أنني كنت خائفاً قليلاً من ماكس بيرينسون؛ تماماً كما كانت تانيا تخاف منه. تذكّرت نصيحتها التي همسَت بها لي، أن أتحدّث مع بول، لأسأله شيئاً - ماذا؟ شيئاً عن الليلة التالية للحادث الذي قُتلت فيه والدة أليسيا. لقد تذكّرت تلك النظرة التي ظهرت على وجه تانيا عندما ظهرَ ماكس، وكيف صمتت وقدمت له ابتسامة.

لا، فكّرتُ، لم يكن ماكس بيرينسون شخص يُستهان به.

سيكون ذلك خطأً خطيراً.

7

عندما اقترب القطار من كامبريدج، انبسطت المناظر الطبيعية وانخفضت درجة الحرارة. أغلقت أزرار مِعطفي عندما غادرت المحطة. كانت الريح تقطّع وجهي مثل مجموعة من شفرات الجليد الباردة. شققت طريقي إلى الحانة للقاء بول.

كان الدب الأبيض مكاناً قديماً متداعياً - بدا كما لو أنه تمّت إضافة العديد من الامتدادات إلى هيكله الأصلي على مرِّ السنين. كان بعض الطلاب يتحدّون الريح، يجلسون في الخارج يشربون البيرة في الحديقة، ملفوفين في الأوشحة، ويدخّنون. في الداخل، كانت درجة الحرارة أكثر دفئاً، بفضل العديد من النيران المشتعلة، والتي قدمت إنقاذاً مرحَّباً من البرد.

حصلتُ على شراب ونظرت حولي أبحث عن بول. كانت عدة غُرف صغيرة مرتبطة بقاعة المشرَب الرئيسي وكانت الإضاءة هناك منخفضة. نظرتُ إلى الوجوه الموجودة في الظلّ، وحاولت دون جدوى العثور عليه. كان مكاناً جيّداً لمقابلة غير مشروعة، فكّرت. وأفترض أنه هو كذلك.

وجدت بول بمفرده في غرفة صغيرة. كان يواجه الباب عن

بُعد، ويجلس بجانب النار. عرفته في الحال، اعتماداً على حجمه الهائل. كان ظهره الضخم يحجب تقريباً النار من الظهور.

«بول؟».

قفزَ واقفاً واستدار. بدا وكأنه عملاق في الغرفة الصغيرة. كان عليه أن ينحني قليلاً لتجنّب ضرب السقف.

قال: «حسناً؟». بدا كما لو كان يعدّ نفسه لسماع أخبار سيّئة من طبيب. أفسحَ المجال لي وجلستُ أمام النار. كان جيّداً أن أشعر بدفء النار على وجهي ويدَي.

قلت: «إنه أبرد من لندن هنا. هذه الريح لا تساعد».

«تأتي مباشرة من سيبيريا، هذا ما يقولون». تابعَ بول دون توقُّف، كان واضحاً أن ليس له أي مزاج لهذه المقدِّمات.

«ماذا عن اليوميّات؟ لم أكن أعلم أن أليسيا احتفظت بيوميّات».

«حسناً، لقد فعلَت».

«وأعطتها لك؟».

أومأت.

«وماذا تقول؟».

«إنها تعطي بالخصوص تفاصيل عن الشهرَين السابقَين لجريمة القتل. وهناك بعض التناقُضات التي أردت سؤالك عنها».

«أي تناقُضات؟».

«بين حكيك عن الأحداث وحكيها هي».

«ما الذي تتحدّث عنه؟»، وضع كأس البيرة وحدّق فيّ طويلاً.

«ماذا تعني؟».

«حسناً، الأمر الأول، أخبرتني أنك لم ترَ أليسيا قبل عدة سنوات من القتل».

تردّد بول. «هل فعلت؟».

«وفي اليوميّات، تقول أليسيا إنها رأتك قبل بضعة أسابيع من قتل غابرييل. تقول إنك أتيت إلى المنزل في هامبستيد».

حدقت في وجهه، أحسستُ بانهزامه من الداخل. كان يشبه صبياً وجدَ نفسه فجأة في جسم أكبر منه للغاية. كان بول خائفاً، كان ذلك واضحاً. لم يردّ للحظة. ألقى عليّ لمحة مختلَسة.

«هل أستطيع أن ألقي نظرة؟ على اليوميّات؟».

هززتُ رأسي رافضاً. «لا أعتقد أن ذلك سيكون مناسباً. على أي حال، لم أحضرها معي».

«إذاً كيف أعرف أنها موجودة فعلاً؟ يمكن أن تكون كاذباً».

«أنا لا أكذب. لكن أنت فعلت - كذبت عليّ يا بول. لماذا؟».

«هذا ليس من شأنك، وهذا هو السبب».

« آسف، هذا شأني. صحّة أليسيا هي شأني».

«ليس لصحّتها علاقة بالأمر. لم أتسبّب لها في أي أذى».

«لم أقل أبداً أنك فعلت».

«حسناً، إذاً ماذا يعني هذا».

«لماذا لا تخبرني بما حدث؟».

هزَّ بول كتفَيه. «إنها قصة طويلة». تردّدَ، ثم استسلم. تحدّث بسرعة، لاهِثاً. شعرت أنه كان مريحاً له أن يخبر شخصاً ما أخيراً: «كنت في حالة سيّئة. كانت لدي مشكلة، كما تعرف - كنت أقامر وأقترض المال، ولم أتمكّن من إعادة الديون. كنت بحاجة إلى بعض النقود. . . لتسوية المشكل مع الجميع».

«وطلبت المساعدة من أليسيا؟ هل أعطتك المال؟».

«ماذا تقول اليوميّات؟».

«لا تقول شيئاً».

تردّدَ بول، ثم هزّ رأسه. «لا، لم تعطني أي شيء. قالت إنها لا تملك أي نقود من أجل ذلك».

مرة أخرى كان يكذب. لماذا؟

«كيف حصلت على المال إذاً؟».

«أنا - لقد أخرجته من مدخراتي. سأكون ممتنّاً لو احتفظت بهذا السرّ بيننا - لا أريد أن تعرف والدتي ذلك».

«لا أعتقد أن هناك أي سبب لإشراك ليديا في هذا».

«حقاً؟»، عادَ بعض اللون إلى وجه بول. وبدا أكثر تفاؤلاً. «شكراً. وأنا أقدّر ذلك».

«هل أخبرتك أليسيا أنها كانت تشتبه في أنها كانت مُراقَبة؟».

قام بول بخفض كأسه ونظر إليّ نظرة حائرة. استطعت أن أعرف أنها لم تفعل. «مراقَبة؟ ماذا تعني؟».

أخبرته عن القصة التي قرأتها في اليوميّات - عن شكوك أليسيا أنها كانت مراقبة من قبل شخص غريب، وأخيراً عن مخاوفها من تعرُّضها للهجوم في منزلها.

هزَّ بول رأسه. «لم تكن في تمام صحّتها العقلية».

«هل تعتقد أنها تخيّلَت ذلك؟».

«حسناً، هذا أمر منطقي، أليس كذلك؟» هزَّ بول كتفيه. «هل تعتقد أن شخصاً ما كان يطاردها؟ أقصد، أعتقد أنه من الممكن...».

«نعم هذا ممكن. لذلك أفترض أنها لم تقل لك شيئاً عن ذلك؟».

«ولا كلمة. لكن أليسيا وأنا لم نكن نتحدّث كثيراً، كما تعرف. كانت دائماً صامتة جداً. كنا جميعاً، أُسرة واحدة. أتذكر أليسيا تقول كم كان هذا غريباً - كانت تذهب إلى منازل الأصدقاء وترى العائلات الأخرى تضحك وتنكّت وتتحدث عن أشياء - وكان منزلنا صامتاً جداً. لم نكن نتحدّث أبداً. باستثناء أمي التي كانت تعطي الأوامر».

«وماذا عن والد أليسيا؟ فيرنون؟ كيف كان طبعه؟».

«لم يكن فيرنون يتحدث كثيراً. لم يكن في صحّة عقلية جيّدة - خصوصاً بعد وفاة إيفا. لم يكن هو الشخص نفسه بعد ذلك... ولا حتى أليسيا، ستتكلّم عن ذلك».

«هذا يذكرني بشيء. كان هناك شيء أردت أن أسألك عنه - شيء ذكرته تانيا لي».

«تانيا بيرينسون؟ هل تحدثت معها؟».

«فقط لوقت قصير. اقترحت عليّ أن أتحدث إليك».

«هل فعلت تانيا ذلك؟»، تلوّن خدّاه. «أنا - لا أعرفها جيّداً، لكنها كانت دائماً لطيفة جداً معي. إنها شخص جيّد، جيّد جداً. لقد زارتني وأمي عدة مرات». ظهرت ابتسامة على شفتَي بول وبدا أنه يفكر في شيء للحظة. لقد كانت له علاقة بها، فكرت. تساءلت كيف شعر ماكس تجاه ذلك.

«ماذا قالت تانيا؟».

«اقترحت أن أسألك عن شيء ما - حدث تلك الليلة بعد حادث السيارة. لم تدخل في التفاصيل».

«نعم، أعرف ما تعنيه - أخبرتها أثناء المحاكمة. وطلبتُ منها ألا تخبر أحداً».

«لم تخبرني. الأمر متروك لك لتخبرني به. إذا كنت ترغب في ذلك. بالطبع، إذا كنت لا تريد...».

شرب بول نصف لتر من البيرة وهزَّ كتفيه. «ربما لا شيء، ولكن - قد يساعدك على فهم أليسيا. هي...».

تردّد وصمت.

قلت: «استمرّ».

«أليسيا... أول شيء فعلته أليسيا، عندما عادت إلى المنزل من المستشفى- احتفظوا بها لليلة واحدة بعد الحادث - كان هو صعودها إلى سطح المنزل. فعلت ذلك أيضاً. جلسنا هناك طوال الليل، تقريباً. كنا نصعد إلى هناك طوال الوقت، أليسيا وأنا. كان مكاننا السرّي».

«على السطح؟».

تردّد بول. نظر إليّ للحظة. كان يفكر.

وقفَ وقال: «هيا بنا. سأريك».

8

كان المنزل مظلِماً عندما اقتربنا منه.

قال بول: «ها هو المنزل. اتبعني».

يوجد سلَّم حديدي مرتبط بجانب المنزل. شققنا طريقنا إليه. كان الطين مجمّداً تحت أقدامنا، منحوتاً على شكل تموّجات وتلال صلبة. بدأ بول يصعد، دون أن ينتظرني.

كان الجوّ يزداد برودة. كنت أتساءل ما إذا كانت هذه فكرة جيدة. تبعته وأمسكت بالدرجة الأولى - كانت باردة جداً وزلِقة. كان السلَّم مغطى بنبات معترش ومتسلِّق، اللبلاب ربما.

صعدت السلَّم درجة درجة. عندما وصلت إلى أعلى، كانت أصابعي قد تجمّدت وكانت الرياح تقطّع وجهي. تسلّقتُ إلى السطح. كان بول ينتظرني وهو يبتسم بطريقة مراهق منفعِل. كان القمر الباهت يعلونا؛ وكان الباقي ظلام.

فجأة هرع بول إليّ، وكان هناك تعبير غريب على وجهه. شعرت بوميض من الذعر عندما مدّ ذراعه نحوي - انحرفت لتجنبه، لكنه أمسك بي. في لحظة رعب، اعتقدت أنه كان سيرميني من أعلى السطح. غير أنه سحبني نحوه.

قال: «أنت قريب جداً من الحافة. ابقَ في الوسط، هنا. إنها أكثر أماناً».

هززتُ رأسي، ممسِكاً أنفاسي. كانت هذه فكرة سيّئة. لم أشعر بالأمان التام وأنا بجانب بول. كنت على وشك أن أقترح النزول من السطح - عندما أخرج سجائره وقدّم لي واحدة. ترددت، ثم قبلت. كانت أصابعي ترتعدُ وأنا أخرج الولّاعة وأشعل السجائر.

وقفنا هناك ودخنّا في صمت للحظة.

وقال: «هذا هو المكان الذي كنا نجلس فيه. أليسيا وأنا. كل يوم، في أغلب الأحيان».

«كم كان عمركما؟».

«كنت في السابعة من عمري، ربما ثمانية. لم يكن عمر أليسيا أكثر من عشرة».

«كنتما صغيرَين إلى حدٍّ ما لتسلُّق السلالم».

«أفترض ذلك. بدا الأمر طبيعياً لنا. عندما كنا مراهقَين، كنا نأتي هنا لندخّن ونشرب البيرة».

حاولت تصور أليسيا في سنّ المراهقة، مختبئة من والدها ومن عمّتها القاسية؛ بول، ابن عمّها الأصغر سنّاً، يتبعها على السلَّم، ويضايقها عندما كانت تفضّل أن تكون صامتة، وحدها مع أفكارها.

قلت: «إنه مكان جيّد للاختباء».

أومأ بول. «لم يكن العم فيرنون يستطيع أن يصعد السلَّم. كان جسمه ضخماً، مثل أمي».

«بالكاد استطعت أن أتسلّقه. هذا اللبلاب خطير».

قال بول: «إنه ليس لبلاب، إنه ياسمين». نظرَ إلى النبات الأخضر الذي كان ملتوياً على الجزء العلوي من السلَّم. «ليست هناك زهور بعد - حتى الربيع. تنبعث منه رائحة العطور آنذاك،

عندما يكون هناك الكثير منه». بدا بول ضائعاً في ذكرى للحظة. «مضحك هذا الأمر».

«ماذا؟».

«لا شيء. الأشياء التي أتذكّرها... كنت أفكر في الياسمين - كان مزهراً بالكامل في ذلك اليوم، يوم وقوع الحادث، عندما قُتلت إيفا».

نظرتُ حولي. «أنت وأليسيا أتيتما هنا، هل هذا ما قلت؟».

هزَّ رأسه. «كانت أمي والعم فيرنون يبحثان عنا في الأسفل هناك. كان يمكننا أن نسمعهما ينادياننا. لكننا لم نقل أي شيء. بقينا مختبئين. وكانت هذه هي اللحظة عندما حدث».

أطفأ سيجارته وأعطاني ابتسامة غريبة.

«لهذا السبب أتيتُ بك إلى هنا. لكي تتمكن من أن ترى ذلك - مسرح الجريمة».

«الجريمة؟».

لم يردّ بول على ذلك، بل ظلَّ يبتسم لي.

«أي جريمة يا بول؟».

وقال: «جريمة فيرنون. لم يكن العم فيرنون رجلاً صالحاً. لا، لا، على الإطلاق».

«ماذا تحاول أن تقول؟».

«حسناً، كان هذا عندما فعل ذلك».

«فعل ماذا؟».

«عندما قتلَ أليسيا».

حدّقت فيه، غير قادر على تصديق أذني. «قتلَ أليسيا؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

وأشارَ بول إلى الأرض في الأسفل. «كان العم فيرنون في الأسفل هناك مع أمي. كان ثملاً. ظلت أمي تحاول إرجاعه للداخل. لكنه وقف هناك، ينادي أليسيا بصوت مرتفع. كان غاضباً جداً منها. كان غاضباً جداً».

«لأن أليسيا كانت مختبئة؟ ولكن - كانت طفلة - وكانت أمها قد ماتت للتوّ».

«كان شخصاً سيّئاً حقاً. الشخص الوحيد الذي كان يهتم به على الإطلاق هي العمّة إيفا. أفترض أن هذا هو السبب في قوله ذلك».

«قول ماذا؟» كنت بدأت أفقد الصبر. «أنا لا أفهم ما تقول لي. ماذا حدث بالضبط؟».

«كان فيرنون يتحدث عن مدى حبّه لإيفا - وكيف أنه لن يستطيع العيش من دونها. «يا فتاتي»، ظلَّ يقول، «يا فتاتي المسكينة، يا إيفا. . . لماذا كان يجب عليها أن تموت؟ لماذا كان يجب أن تكون هي؟ **لماذا لم تمت أليسيا بدلاً منها؟**»».

حدّقتُ إليه للحظة، مندهشاً. لم أكن متأكّداً من أنني فهمت.

«لماذا لم تمت أليسيا بدلاً منها؟».

«هذا ما قاله».

«سمعَت أليسيا هذا؟».

«نعم. وهمسَت أليسيا شيئاً ما إليّ - لن أنسى أبداً ذلك. قالت: «لقد قتلني. أبي قتلني»».

حدّقت إلى بول، عاجزاً عن الكلام. بدأت مجموعة من الأجراس ترنُّ في رأسي، تصرخ، تدقُّ، تتردّد. كان هذا ما كنت أبحث عنه. لقد عثرت عليه، القطعة المفقودة من أحجية الصورة المقطعة، أخيراً - هنا على سطح في كامبريدج.

طوال طريق العودة إلى لندن، ظللتُ أفكر في نتائج ما سمعت. فهمت الآن لماذا ألسيستيس أثّرت في أليسيا. تماماً كما حكم أدميتوس على ألسيستيس بالموت جسدياً، قامَ فيرنون روز بقتل ابنته نفسياً. من الأكيد أن أدميتوس أحبَّ ألسيستيس، على مستوى ما؛ ولكن لم يكن هناك حبّ لدى فيرنون روز، كان هناك كره فقط. ما فعله هو فعل قتل نفسي - وكانت أليسيا تعرف ذلك.

قالت: «لقد قتلني. أبي قتلني».

الآن، أخيراً، كان لدي شيء أشتغل عليه. شيء كانت لي معرفة به - الآثار العاطفية للجروح النفسية على الأطفال، وكيف يعبّرون عن أنفسهم لاحقاً كبالغين. تخيّل ذلك - أن تسمع والدك، الشخص الذي تعتمد عليه لبقائك على قيد الحياة، يتمنّى لك الموت. كم هو مرعب ذلك بالنسبة إلى طفل، وكم هو صادم - تخيّل كيف ينفجر شعورك بقيمتك كشخص وكيف يكون الألم كبيراً جداً، ضخماً جداً لتشعر به، لذلك أنت تبتلعه، وتقمعه، وتدفنه. مع مرور الوقت، تفقد الاتصال بأصول الصدمة، تفصل الجذور عن السبب، وتنسى. ولكن ذات يوم، كل الأذى والغضب ينفجر فجأة، مثل النار من بطن التنين - ثم تلتقط مسدّساً. لن تصبّ هذا الغضب على والدك، فقد مات ونُسي وأصبح بعيداً عن المنال - ولكن على الزوج، الرجل الذي أخذَ مكانه في حياتك، من أحبّك وشاركك سريرك. ستطلق النار عليه خمس مرات في الرأس؛ دون حتى ربما معرفة السبب.

أسرعَ القطار في ظلمة الليل إلى لندن. أخيراً، فكّرت - أخيراً، عرفت كيف أصل إليها.

الآن، يمكننا أن نبدأ.

9

جلست مع أليسيا في صمت.

كنت أفضل في لحظات الصمت هذه، أفضل في تحمّلها، في الارتياح إليها والظهور أقوى منها؛ لقد أصبح الجلوس معها في تلك الغرفة الصغيرة، والتزام الصمت، مريحاً تقريباً.

كانت أليسيا تمسك يديها في حضنها، تقبضهم وتفتحهم بإيقاع، مثل ضربات القلب. كانت تجلس في مواجهتي، لم تكن تنظر إليّ، لكنها كانت تحدّق خارج النافذة عبر القضبان.

توقّف المطر، وانفتحت الغيوم مؤقّتاً لتكشف عن سماء زرقاء شاحبة. ثم ظهرت سحابة أخرى، لتحجبها باللون الرمادي. ثم تحدّثتُ:

«هناك شيء أصبحت على علم به. شيء يتعلّق بك، قاله لي ابن عمك».

قلت هذا بلُطف قدر استطاعتي. لم يكن هناك ردّ فعل، لذلك تابعت كلامي.

«قال بول إنه عندما كنت طفلة، سَمعتِ والدك يقول شيئاً

مدمِّراً. بعد حادث السيارة التي قتلت والدتك... سمعته يقول إنه تمنّى لو متّ، بدلاً منها».

كنت متأكداً من أنه سيكون هناك ردّ فعل جسدي سريع، اعتراف من نوع ما. انتظرت؛ لكن لا شيء حدث.

«أتساءلُ عن كيف تشعرين تجاه بول لإخباري بذلك - ربما يبدو ذلك وكأنه خيانة للثقة. لكنني أعتقد أنه كان يفكّر في مصلحتك. أنت، رغم كل شيء، في رعايتي».

لا يوجد ردّ. تردّدتُ. «قد يساعدك ذلك إذا قلت لك شيئاً ما. لا - ربما يكون ذلك مخادعاً - ربما سوف يساعدني أنا. الحقيقة هي أنني أفهمك بشكلٍ أفضل ممّا تعتقدين. دون رغبة مني في الكشف عن التفاصيل، أنت وأنا شهدنا نوعاً مماثلاً من الطفولة، ونوعاً مماثلاً من الآباء. وقد غادرنا المنزل بأسرع ما يمكننا. لكننا اكتشفنا وقتاً قصيراً بعد ذلك أن المسافة الجغرافية لا تهمُّ كثيراً في عالم النفس. لا يمكن التخلي عن بعض الأشياء بسهولة. أعرف كم كانت طفولتك مدمِّرة. من المهم أن تفهمي مدى خطورة هذا الأمر. ما قاله والدك هو بمثابة جريمة قتل نفسية. **لقد قتلك**».

هذه المرّة كان هناك ردّ فعل.

نظرَت إلي بحدّة - مباشرة في وجهي. بدت عيناها تحترق من خلالي. لو كانت النظرات تقتل، لكنتُ سقطت ميتاً. واجهتُ نظرتها القاتلة دون حراك.

قلت: «أليسيا. هذه هي فرصتنا الأخيرة. أنا جالس هنا الآن دون علم البروفيسور ديوميديس أو إذنه. إذا استمررتُ في خرق القانون بهذا الشكل من أجلك، سأُطرد من عملي. لهذا السبب ستكون هذه آخر مرة ترينني فيها. هل تفهمين؟».

قلت هذا دون أي توقُّع أو عاطفة، مفرَغاً من أي أمل أو شعور. لقد سئمت من ضرب رأسي على الحائط. لم أتوقّع أي ردّ. وثم...

اعتقدت أنني تخيّلت ذلك في البداية. اعتقدت أنني كنت أسمع أشياء. حدقت فيها، منقطع الأنفاس. شعرت بقلبي ينبض بقوة في صدري. كان فمي جافاً عندما تحدثت: «هل تكلمتِ؟... هل قلتِ شيئاً؟».

صمتٌ آخر. من الأكيد أنني كنت مخطئاً. تخيّلتُ ذلك بالتأكيد. لكن بعد ذلك... حدث ذلك مرة أخرى.

تحرّكت شفتا أليسيا ببطء، وبألم. تصدّع صوتها قليلاً عند صدوره، مثل بوابة تطقطق لحاجتها إلى التزييت.

«ماذا...» همسَتْ. ثم توقّفَتْ. ومره أخرى:

«ماذا... ماذا –».

حدّقنا في بعضنا البعض للحظة. امتلأت عيناي بالدموع ببطء – دموع عدم التصديق والإثارة والامتنان.

قلت: «ماذا أريد؟ أريدك أن تستمري في الحديث... تحدّثي – تحدّثي معي، أليسيا –».

حدّقت أليسيا في وجهي. كانت تفكّر في شيء. اتخذَتْ قراراً. أومأَتْ ببطء.

«حسناً»، قالَتْ.

10

«قالَت ماذا؟».

حدق البروفيسور ديوميديس فيّ بنظرة اندهاش عجيبة. كنا بالخارج، ندخّن. كان بإمكاني أن أعرف أنه كان متحمّساً لأنه أسقط سيجاره على الأرض دون حتى أن يلاحظ ذلك. «تكلّمت؟ تحدّثت أليسيا حقاً؟».

«نعم».

«أمر لا يصدق. لذلك كنتَ على حقّ. كنتَ على حقّ. وأنا كنتُ مخطئاً».

«لا، على الإطلاق. كان من الخطأ أن أراها دون إذنك، بروفيسور. أنا آسف، كان لدي إحساس غريزي...».

لم يعر ديوميديس اهتماماً لاعتذاري وأكمل الجملة التي بدأتها. «تبعتَ إحساسك. كنت سأفعل الشيء نفسه، ثيو. أحسنت».

كنت غير راغب في أن أكون احتفالياً جداً. «يجب ألا نتسرّع. إنه تقدُّم كبير، نعم. لكن ليس هناك ما يضمن استمراره - قد تعود إلى حالتها أو تتراجع في أي وقت».

أومأ ديوميديس موافقاً. «تماماً. يجب علينا تنظيم جلسة

مراجعة رسمية لحالتها، وإجراء مقابلة مع أليسيا في أقرب وقت ممكن - نستدعيها لمقابلة لجنة - أنت وأنا وشخص من المؤسسة - جوليان سيكون مناسباً، إنه بريء بما فيه الكفاية ـــــ».

«أنت تسير بسرعة كبيرة. أنت لا تستمع إليّ. سيكون هذا فعلاً متسرّعاً. أي شيء من هذا القبيل سوف يخيفها. نحن بحاجة إلى التحرُّك ببطء».

«حسناً، من المهم أن تعرف المؤسسة بالأمر ـــــ».

«لا ليس بعد. ربما كان هذا لمرة واحدة. دعنا ننتظر. لن نقوم بأي إعلانات. ليس بعد».

أومأ ديوميديس، وتفهّم الأمر. وصلت يدَه إلى كتفي وأمسكت بها. قال مرة أخرى: «أحسنت. أنا فخور بك».

شعرتُ بوميض صغير من الفخر - ابن هنّأه أبوه. كنت واعياً برغبتي في إرضاء ديوميديس، أُثبّت إيمانه بي وأجعله فخوراً بي. شعرت أنني كنت عاطفياً بعض الشيء. أشعلت سيجارة لإخفاء هذا التغيير. «ماذا سنفعل الآن؟».

قال ديوميديس: «الآن، استمر. استمر في الاشتغال مع أليسيا».

«وإذا ما اكتشفت ستيفاني الأمر؟».

«انسَ ستيفاني - اتركها لي. ركّز أنت على أليسيا».

وكذلك فعلت.

خلال جلستنا التالية، تحدّثتُ أنا وأليسيا دون توقُّف. كان الاستماع إلى أليسيا تجربة غير مألوفة ومثيرة للقلق إلى حدٍّ ما، بعد الكثير من الصمت. تحدّثَت بتردُّد في البداية، بثقة أقل - محاولة

المشي على رجلَين لم يتم استخدامهما لبعض الوقت. سرعان ما وجدَت قدميها، واسترجعت السرعة وخفّة الحركة، تُركّب الجُمَل بطلاقة وكأنها لم تكن صامتة - وهي بطريقة ما لم تكن كذلك.

عندما انتهت الجلسة، ذهبتُ إلى مكتبي. جلستُ على المكتب لأكتب ما قيل ما دمت أتذكّره جيّداً. كتبتُ كل شيء، كلمة كلمة، وسجّلتُ كلّ شيء بكل دقّة ممكنة.

كما سترون، إنها قصة لا تصدّق - وهذا لا شكّ فيه.

سواء صدّقتم أم لم تصدّقوا، فهذا أمر يعود إليكم.

11

جلسَت أليسيا على الكرسي المقابل لي في غرفة العلاج.

قلت: «قبل أن نبدأ، لدي بعض الأسئلة لك. بعض الأشياء التي أودُّ توضيحها...».

لا يوجد ردّ. نظرت أليسيا إليّ بنظرتها غير القابلة للقراءة.

تابعتُ: «على وجه التحديد أريد أن أفهم صمتك. أريد أن أعرف لماذا رفضت الكلام».

بدت أليسيا وقد أصيبت بخيبة أمل من السؤال. التفتت ونظرت من النافذة.

جلسنا هكذا في صمت لمدة دقيقة أو نحو ذلك. حاولت احتواء التشويق الذي كنت أشعر به. هل كان التقدُّم مؤقّتاً؟ هل سنستمرُّ الآن كما كنا من قبل؟ لن أستطيع السماح لذلك أن يحدث.

«أليسيا. أعرف أن الأمر صعب. ولكن بمجرد البدء في التحدث معي، ستجدين الأمر أسهل، وأعدك بذلك».

لا يوجد ردّ.

«حاولي. رجاء. لا تستسلمي وقد أحرزت مثل هذا التقدُّم. واصلي التقدُّم. أخبريني... قولي لي لماذا لن تتحدثي».

عادت أليسيا إلى الخلف وحدقت في وجهي بنظرة باردة. تكلّمَت بصوت منخفِض: «لا شيء... لا شيء يُقال».

«لست متأكّداً من أنني أعتقد ذلك. أعتقد أن هناك الكثير لتقولينه».

وقفة. هزّة كتف. «ربما»، قالت. «ربما... أنت على حقّ».

«تابعي».

تردّدَت. قالَت: «في البداية، عندما كان غابرييل... عندما مات - لم أستطع، لقد حاولت... لكنني لم أستطع... أن أتكلّم. فتحت فمي - ولكن لم يصدر أي صوت. كما في الحُلم... عندما تحاول الصراخ... لكن لا تستطيع».

«كنتِ في حالة صدمة. لكن خلال الأيام القليلة التي تلت، من الأكيد أنك قد وجدت صوتك يعود إليك...؟».

«في ذلك الوقت... بدا الأمر غير مجدٍ. كان الوقت قد فات».

«فوات الأوان؟ أن تدافعي عن نفسك؟».

أمسكت أليسيا بي بنظرتها، ابتسامة خفية على شفتَيها. لم تتكلّم.

«أخبريني لماذا بدأت الحديث مرة أخرى».

«أنت تعرف الإجابة».

«هل أعرف؟».

«بسببك».

«أنا؟»، نظرتُ إليها باندهاش.

«لأنك أتيت إلى هنا».

«وهل هناك فرق؟».

«كل الفرق - صنعتَ. . . كلّ الفرق». خفضت أليسيا صوتها وحدقت في وجهي، دون أن تحرّك عينيها. «أريدك أن تفهم - ما حدث لي. ما شعرتُ به. مهم. . . أن تفهم».

«أريدُ أن أفهم. لهذا السبب قدّمتِ لي اليوميّات، أليس كذلك؟ لأنك تريدين مني أن أفهم. يبدو لي أن الأشخاص الذين كانوا أكثر أهمية بالنسبة إليك لم يصدّقوا قصتك عن الرجل. ربما كنت تتساءلين. . . ما إذا كنت أصدّقك».

قالت: «أنت تصدّقني».

لم يكن هذا سؤالاً بل بياناً بسيطاً للحقيقة. وأومأتُ.

«نعم أنا أصدّقك. فلماذا لا نبدأ من هناك؟ من آخر يومية كتبتها حيث تصفين الرجل الذي اقتحمَ المنزل. ماذا حدث بعد ذلك؟».

«لا شيء».

«لا شيء؟».

هزّت رأسها. «لم يكن هو».

«لم يكن هو؟ من كان إذاً؟».

«كان جان-فيليكس. أراد - لقد جاء للحديث عن المعرض».

«بالرجوع إلى يوميّاتك، لا يبدو أنك كنت في حالة مناسِبة لاستقبال الزائرين».

اعترفَت أليسيا بهذا بهزّة كتف.

«هل بقي طويلاً؟».

«لا. طلبت منه المغادرة. لم يكن يريد ذلك - لقد كان غاضباً. صرخ في وجهي بعض الشيء - لكنه ذهب بعد فترة من الوقت».

«وبعد ذلك؟ ماذا حدث بعد مغادرة جان-فيليكس؟».

هزّت أليسيا رأسها. «لا أريد التحدُّث عن ذلك».

«لا؟».

«ليس بعد».

نظرت عينا أليسيا إلى عينَي للحظة. ثم تحولتا إلى النافذة، تتأمّلان السماء المظلمة وراء القضبان. كان هناك شيء غُنجيّ تقريباً في الطريقة التي كانت تميل بها رأسها؛ وكانت بداية ابتسامة تتشكّل في زاوية فمها. إنها تستمتع بذلك، فكّرت في نفسي. أن تسيطر عليّ.

«عمَّ تريدين أن تتحدثي؟».

«لا أدري، لا أعرف. لا شيء. أريد فقط أن أتحدّث».

وهكذا تحدّثنا. تحدّثنا عن ليديا وبول، وعن أمها، وعن الصيف عندما ماتت. تحدّثنا عن طفولة أليسيا - وعن طفولتي. أخبرتها عن والدي، وعن نشأتي في هذا المنزل؛ بدت فضولية لمعرفة أكبر قدر ممكن عن ماضيّ وعن ما شكّلني وجعلني من أنا.

أتذكر أنني فكرت لحظتها أنه لا يوجد الآن مجال للتراجُع. كنا نحطّم كل الحدود الأخيرة بين المعالِج والمريض. وقريباً سيكون من المستحيل معرفة من المريض ومن المعالِج.

12

في صباح اليوم التالي، التقينا مرة أخرى. بدت أليسيا مختلفة اليوم بطريقة ما - أكثر تحفُّظاً، وأكثر احترازاً. أعتقد أن هذا كان بسبب أنها كانت تستعدّ للحديث عن يوم وفاة غابرييل.

جلسَت أمامي، وبشكلٍ غير عادي بالنسبة إليها، نظرَت مباشرة إليّ مع الحفاظ على اتصال العين طوال الوقت. بدأت تتحدّث دون أن يُطلب منها ذلك؛ ببطء، بعناية، واختارت كل عبارة بحذر، كما لو كانت تختار بحذر حركات الفرشاة على اللوحة القماشية.

«كنت وحدي بعد ظهر ذلك اليوم»، بدأَت. «كنت أعرف أنه يجب عليّ أن أرسم، لكن كان الجوُّ حارّاً جداً، لم أكن أعتقد أنه يمكنني تحمّله. لكنني قررت أن أحاول. لذلك أخذت المروحة الصغيرة التي اشتريتها إلى المرسَم في الحديقة، وبعد ذلك...».

«وثم؟».

«رنَّ هاتفي. كان غابرييل. كان يتصل ليقول إنه سيرجع متأخِّراً بعد التصوير».

«هل كان يفعل ذلك عادة؟ يتّصل ليقول إنه سيتأخّر؟».

نظرت أليسيا إليّ نظرة غريبة، كما لو أن السؤال بدا غريباً بالنسبة إليها. هزّت رأسها. «لا. لماذا؟».

«تساءلت عمّا إذا كان قد اتصل لسبب آخر. ليعرف أحوالك. انطلاقاً من يوميّاتك، يبدو أنه كان قلِقاً بشأن حالتك النفسية».

«أوه». فكرت أليسيا في ذلك، مندهِشة. أومأَت ببطء. «أرى ما تعنيه. نعم، نعم، ربما...».

«أنا آسف - لقد قاطعتك. تابعي. ماذا حدث بعد المكالمة الهاتفية؟».

ترددت أليسيا. «رأيته».

«هو؟».

«الرجل. أقصد - رأيت صورته. منعكِسة على زجاج النافذة. كان في الداخل - داخل المرسَم. يقف ورائي مباشرة».

أغلقَت أليسيا عينيها، وجلسَت هادئة. كانت هناك وقفة طويلة.

تحدّثتُ بلُطف. «هل يمكنك أن تصفيه؟ كيف كان شكله؟».

فتحت عينَيها وحدقت فيّ للحظة. «كان طويلاً... قوياً. لم أتمكّن من رؤية وجهه - فقد كان يضع قناعاً، قناعاً أسود. لكنني استطعت رؤية عينَيه - كانت ثقوباً داكنة. لا ضوء فيها على الإطلاق».

«ماذا فعلت عندما رأيته؟».

«لا شيء. كنتُ خائفة جداً. ظللت أنظر إليه... كان لديه سكّين في يده. سألته عمّا يريد. لم يتكلّم وقلت له إن لدي المال في المطبخ، في حقيبتي. هزّ رأسه وقال: «لا أريد المال». وضحكَ ضحكاً مريعاً، مثل صوت كسر الزجاج. وضعَ السكّين على رقبتي.

كانت نهاية الشفرة الحادّة فوق حنجرتي، فوق جلدي. . . طلب مني أن أذهب معه إلى المنزل».

أغلقَت أليسيا عينَيها وهي تتذكر. أخرجني من المرسَم، إلى العشب بالحديقة. مشينا نحو المنزل. كنت أستطيع رؤية بوابة الشارع، على بعد أمتار قليلة - كنت قريبة جداً منها. . . وشيء ما في داخلي سيطر عليّ. كانت - كانت فرصتي الوحيدة للهروب. لذلك ركلته بقوة وانفصلتُ عنه. وركضت. ركضت نحو البوابة. فتحَت عينيها وهي تبتسم بسبب ما تذكرته. «لبضع ثوانٍ - كنت حرّة».

تلاشَت ابتسامتها. «ثم - قفز عليّ. على ظهري. سقطنا على الأرض. . . كانت يده فوق فمي، وشعرت بالشفرة الباردة فوق حنجرتي. قال إنه سيقتلني إذا تحرّكت. بقينا مستلقَين على الأرض هناك لبضع ثوانٍ، وشعرت بأنفاسِه على وجهي. كانت تنبعثُ منه رائحة كَريهة. ثم سحبني - وجرّني إلى المنزل».

«وبعد ذلك؟ ماذا حدث؟».

قالت: «أغلقَ الباب. كنتُ محاصرة».

في هذه المرحلة، كان تنفُّس أليسيا ثقيلاً واحمرّا خدّيها. كنت قلِقاً من أنها أصبحت حزينة، وكنت حذراً من الضغط عليها بشدّة.

قلت: «هل تحتاجين إلى استراحة؟».

هزّت رأسها. «لنستمرّ. لقد انتظرت طويلاً لما يكفي لكي أقول هذا. أريد أن أنتهي من ذلك».

«هل أنتِ واثقة؟ قد تكون فكرة جيّدة أن نتوقف للحظة».

تردّدَت. «هل أستطيع أن آخذ سيجارة؟».

«سيجارة؟ لم أكن أعرف أنك مدخّنة».

«أنا لا. أنا - أنا كنت أدخِّن في الماضي. هل يمكنك أن تعطيني واحدة؟».

«كيف تعرفين أنني أدخِّن؟».

«أستطيع أن أشمَّ رائحتك».

«أوه». ابتسمت، وشعرت بالحرج قليلاً. «حسناً»، قلت، ووقفتُ، «لنذهب إلى الخارج».

13

كانت الساحة مكتظّة بالمرضى. كانوا متجمّعين في مجموعاتهم المُعتادة، منهمكين في القيل والقال، ويدخّنون؛ كان البعض منهم يعانقون أنفسهم ويضربون بأقدامهم على الأرض للتدفئة.

وضعت أليسيا سيجارة بين شفتيها، وأمسكت بها بين أصابعها الرقيقة. أشعلتُ لها السيجارة. عندما اشتعلّ طرف السيجارة، طقطقت وتوهّجت. دخّنَت بعُمق، وعيناها كانتا مركزتَين على عينَي. بدت مبتهجة تقريباً. «ألا تدخّن؟ أم أن هذا غير مناسب؟ أعني تقاسُم سيجارة مع مريض؟».

اعتقدت أنها تسخر مني. لكنها كانت على حقّ - لم تكن هناك قوانين تحظر أحد الموظفين من تقاسُم سيجارة مع مريض. ولكن إذا كان الموظّفون يدخّنون، فقد كانوا يميلون إلى القيام بذلك سرّاً، يتسلّلون إلى مخرج الإنقاذ في الجزء الخلفي من المبنى. بالتأكيد لم يكونوا يفعلوا ذلك أمام المرضى. كان الوقوف هنا في الساحة والتدخين معها يبدو وكأنه انتهاك للقوانين. وربما كنتُ أتخيّلُ ذلك، ولكن شعرت أنّنا مراقبان. شعرت بكريستيان يتجسّس علينا من النافذة. كانت كلماته تعود إليّ: «الأشخاص المصابون باضطراب

الشخصية الحدّية مُغرون». نظرتُ إلى عينَي أليسيا. لم تكونا مغريتَين. لم تكنا حتى ودودتَين. كان هناك عقل رهيب وراء هاتين العينَين، ذكاء حادّ كان في طور الاستيقاظ. قوة يجب الاحتراس منها، أليسيا بيرينسون. فهمتُ ذلك الآن.

ربما لهذا السبب شعرَ كريستيان بالحاجة إلى تخديرها. هل كان خائفاً ممّا قد تفعله؟ شعرت أنا كذلك بالخوف قليلاً منها؛ لستُ خائفاً، بالضبط - ولكن في حالة تأهُّب، وقلَق. كنت أعرف أنه يجب عليّ أن أحترس.

قلت: «لمَ لا؟ سوف أدخّن واحدة أيضاً».

وضعتُ سيجارة في فمي وأشعلتها. دخنا في صمت للحظة، مع الحفاظ على الاتصال بالعين، نبتعدُ سنتيمترات فقط عن بعضنا البعض؛ حتى شعرت بحرج مراهِق غريب، وحوّلت نظري. حاولت إخفاءه بإيماءات إلى الساحة.

«هل نتمشّى ونتحدث؟».

حركت أليسيا رأسها موافقة. «حسناً».

بدأنا نمشي جنب الجدار، على طول محيط الساحة. راقبَنا المرضى الآخرون. تساءلت عمّا كانوا يفكرون فيه. لم تكن أليسيا مهتمّة. لم يبدُ عليها أنها حتى لاحظت وجودهم. مشينا في صمت للحظة. قالت أخيراً: «هل تريد مني الاستمرار؟».

«إذا كنت تريدين ذلك، نعم... هل أنت جاهزة؟».

أومأت أليسيا. «نعم أنا مستعدّة».

«ماذا حدث عندما أصبحتما داخل المنزل؟».

«قال الرجل... قال إنه يريد شراباً. لذلك أعطيته واحدة من

زجاجات الجعة لغابرييل. أنا لا أشرب الجعة. لم يكن لدي أي شيء آخر في المنزل».

«وبعد ذلك؟».

«تكلّم».

«عن ماذا؟».

«لا أتذكر».

«لا تتذكّرين؟».

«لا».

صمتتْ. انتظرتُ قدر ما استطعت تحمُّله قبل أن أبادر بالكلام من جديد.

قلتُ: «لنستمرّ. كنتِ في المطبخ. كيف كنت تشعرين؟».

«أنا لا . . . لا أتذكر الشعور بأي شيء على الإطلاق».

أومأت متفهّماً. «هذا ليس غير شائع في هذه الحالات. هذه ليست مجرّد حالة من الذعر أمام خطر داهِم، المواجَهة أو الهروب. هناك ردّ فعل ثالث، ردّ فعل عادي عندما نتعرّض للهجوم - نتجمّد في مكاننا».

«لم أتجمّد».

«لا؟».

«لا». وجّهَت إليّ نظرة شرسة. «كنت أعدُّ نفسي. كنت أستعدّ. . . أجهّز نفسي للقتال. كنت أستعدُّ لقتله».

«أرى ذلك. وكيف كنت تنوين القيام بذلك؟».

«مسدّس غابرييل. كنت أعرف أنه كان يجب عليّ أن أصل إلى المسدّس».

«كان في المطبخ؟ كنت قد وضعته هناك؟ هذا ما كتبتِ في اليوميّات».

هزّت أليسيا رأسها. «نعم، في الخزانة بجانب النافذة».

دخّنَت بعمق وفجرَت عمَوداً طويلاً من الدخان. «أخبرته أنني كنت بحاجة إلى بعض الماء. ذهبتُ للحصول على كأس. مشيت عبر المطبخ - استغرقَ المشي بضعة أقدام وقتاً طويلاً. خطوة خطوة، وصلتُ إلى الخزانة. وكانت يدي ترتعدُ... فتحتها...».

«وماذا؟».

«كانت الخزانة فارغة. لم يكن المسدّس هناك. ثم سمعته يقول: «الكؤوس في الخزانة عن يمينك». التفتُّ، وكان المسدّس هناك - في يده. كان يوجِّهه نحوي، ويضحك».

«وثم؟».

«ثم؟».

«بماذا كنت تفكرين؟».

«لقد كانت فرصتي الأخيرة هي الفرار، والآن - الآن، هو الذي كان سيقتلني».

«هل اعتقدت أنه كان سيقتلك؟».

«كنت أعرف أنه سيفعل».

«ولكن لماذا تأخّر إذاً؟»، سألتُ. «لماذا لم يفعل ذلك حالما اقتحم المنزل؟».

لم تجب أليسيا. نظرتُ إليها. لدهشتي، كانت هناك ابتسامة على شفتيها.

قالت: «عندما كنت صغيرة، كانت لدى العمة ليديا هرّة

صغيرة. هرّة مبرقعة. لم تكن تعجبني كثيراً. كانت برّية، وتهاجمني في بعض الأحيان بمخالبها. كانت غير لطيفة - وقاسية».

«ألا تتصرّف الحيوانات بدافع الغريزة؟ هل يمكن أن يكونوا قاسين؟».

نظرت أليسيا إليّ باهتمام. «يمكن أن تكون قاسية. كانت الهرّة قاسية. كانت تجلب أشياء من الحقل - الفئران أو الطيور الصغيرة التي كانت تمسك بها. وكانوا دائماً نصف أحياء. جَرحى، ولكن على قيد الحياة. كانت تحتفظ بهم على هذه الحال، وتلعب معهم».

«حسناً. يبدو أنك تقولين أنك كنت فريسة هذا الرجل؟ أنه كان يلعب لعبة ساديّة معك. هل هذا صحيح؟».

ألقت أليسيا عقب سيجارتها على الأرض وضغطت عليه برجلها.

«أعطني سيجارة أخرى».

سلّمتها العلبة. أخذَت واحدة، وأشعلت السيجارة بنفسها. دخّنت للحظة. واصلَت: «كان غابرييل سيعود إلى المنزل في الساعة الثامنة. ساعتَين أخريَين. ظللت أحدّق إلى ساعة حائط. «ما الأمر؟ ألا تحبين أن تُمضي الوقت معي؟» كان يلمس جلدي بالمسدّس، يصعد وينزل به على ذراعي». ارتجفَت تحت تأثير الذِّكرى. «قلت: «سيعود غابرييل للبيت في أي لحظة». «وماذا بعد؟» سألَ. «هل سينقذك؟»».

«وماذا قلت؟».

«لم أقل شيئاً. ظللت أحدّق إلى الساعة... ثم رنَّ هاتفي. كان غابرييل. طلب مني أن أردَّ عليه. وضع المسدّس على رأسي».

«وماذا قال غابرييل؟».

«قال. . . قال إن التصوير بدأ يتحوّل إلى كابوس - لذلك يجب عليّ أن أتناولَ الطعام من دونه. لن يعود حتى العاشرة كأقرب وقت ممكن. أغلقتُ الهاتف. «زوجي في طريقه إلى المنزل»، قلتُ له. «سوف يكون هنا في بضع دقائق. يجب أن تذهب، الآن، قبل أن يعود». ضحكَ الرجل. «لكن سمعته يقول إنه لن يعود حتى العاشرة. لدينا ساعات لنقضيها معاً». قال لي «احصلي على حبل أو شريط أو شيء ما. أريد ربطك». فعلتُ كما طلب. كنت أعرف أن الوضع كان ميئوساً منه الآن. كنت أعرف كيف كان سينتهي».

توقّفَت أليسيا عن الحديث ونظرت إليّ. كنت أستطيع أن أرى العاطفة الخام في عينيها. تساءلت إن كنت أضغط عليها كثيراً.

«ربما يجب علينا أخذ قسط من الراحة».

«لا، أنا بحاجة إلى الانتهاء. أحتاج إلى القيام بذلك».

تابعَت حديثها بشكل أسرع الآن: «لم يكن لدي أي حبل، لذلك أخذ السلك الذي أستخدمه لتعليق اللَّوحات. جعلني أذهب إلى غرفة الجلوس. سحبَ أحد الكراسي المستقيمة من مائدة الطعام. طلبَ مني أن أجلس. بدأ بلفِّ السلك حول كاحلَي، وربطي إلى الكرسي. كنت أشعر به ينغرز في لحمي. قلت: «أرجوك، أرجوك -» لكنه لم يستمع إليّ. ربط معصمَي خلف ظهري. كنت متأكّدة بعد ذلك، أنه كان سيقتلني. أتمنّى. . . **أتمنّى لو أنه فعل**».

قالت هذا بسرعة وغضب. أذهلني عنف مشاعرها الشديد.

«لماذا تتمنّين ذلك؟».

«لأن ما فعله كان أسوأ».

اعتقدت للحظة أن أليسيا كانت ستبكي. قاومتُ رغبة مفاجئة في حضنها، في أخذها بين ذراعَي، تقبيلها، طمأنتها، ووعدها أنها كانت آمنة. ضبطت نفسي. أطفأتُ سيجارتي على جدار من الطوب الأحمر.

قلت: «أشعر أنه يجب العناية بك. أجد نفسي أرغب في الاعتناء بك، أليسيا».

«لا». هزّت رأسها بحزم. «هذا ليس ما أريده منك».

«ماذا تريدين؟».

لم تجب أليسيا. التفتت وعادت إلى الداخل.

14

أشعلتُ النور في غرفة العلاج وأغلقت الباب. عندما التفت، كانت أليسيا قد جلست بالفعل - ولكن ليس في كرسيها. كانت تجلس على كرسي أنا.

كانت هذه لفتة حكيمة، وكان طبيعياً أن أستكشف معناها معها. الآن، ومع ذلك، لم أقل شيئاً. إذا كان الجلوس في كرسي يعني أنه كان لها اليد العليا - حسناً، فلها ذلك. كنت أتطلّعُ بفارغ الصبر إلى الوصول إلى نهاية قصتها، الآن كنا قريبَين جداً من ذلك. لذلك جلست وانتظرت أن تتكلّم. كانت عيناها نصف مغلقتَين، وكانت هادئة تماماً. في النهاية قالت: «كنت مقيَّدة إلى الكرسي، وفي كل مرة أضغط فيها، ينغرز السلك أعمق في ساقَي، وكانتا تنزفان. كان من المريح التركيز على ساقَي الداميتَين بدلاً من أفكاري. كانت أفكاري مخيفة جداً... ظننت أنني لن أرى غابرييل مرة أخرى. اعتقدت أنني سأموت».

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

«جلسنا هناك لما بدا وقتاً أبدياً. إنه أمر مضحك، لطالما فكرت في الخوف كإحساس بارد، ولكنه لم يكن كذلك - إنه يشتعل مثل النار. كان الجوّ حارّاً في تلك الغرفة، بسبب إغلاق النوافذ والستائر.

كان الهواء جامداً، خانقاً وثقيلاً. كانت قطرات من العرق تنزل على جبهتي وتسقط في عينَي، وتلدغهما. كان يمكنني أن أشمَّ رائحة الكحول تنبعث منه ورائحة العرق النتنة وهو يشرب ويتحدّث - استمرَّ في الحديث. لم أستمع إلى الكثير منه. كنت أسمع صوت ذبابة كبيرة بين الستارة والنافذة - كانت محاصرة وتصطدم بالزجاج، تصطدم، وتصطدم، وتصطدم. طرح عليّ أسئلة عني وعن غابرييل - كيف التقينا، كم من الوقت كنا معاً، وما إذا كنا سعيدَين. فكرت أنه إذا كان بإمكاني أن أستمرَّ في الحديث معه، فقد كانت لدي فرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة. لذلك أجبت عن أسئلته - عني، عن غابرييل، عن عملي. تحدّثت عن كل ما يريد. فقط لكسب الوقت. ظللت أركز على السَّاعة. أستمعُ إلى دقّاتها. وثم فجأة كانت الساعة العاشرة. . . وثم. . . العاشرة والنصف. ولا يزال غابرييل لم يعد إلى المنزل.

قال: «لقد تأخّر. ربما لن يأتي».

قلت له: «إنه قادم».

«حسناً، من الجيّد أنني هنا برفقتك».

ثم ضربَت الساعة الحادية عشرة وسمعت سيارة بالخارج.

«ذهب الرجل إلى النافذة ونظر. «توقيت ممتاز»، قال».

ما حدث بعد ذلك - قالت أليسيا - حدث بسرعة.

أمسك الرجل بأليسيا وأدارَ كرسيها، بحيث أنها لم تعد تواجه الباب. قال إنه سيطلق النار على غابرييل في الرأس إذا قالت كلمة واحدة أو أصدرت صوتاً واحداً. ثم اختفى. لحظة بعد ذلك، انطفأت الأنوار، وكل شيء أصبح مظلِماً. في الرواق، تمَّ فتح الباب الأمامي وإغلاقه.

«أليسيا؟»، نادى غابرييل.

لم يكن هناك ردّ، ونادى اسمها مرة أخرى. مشى إلى غرفة الجلوس - ورآها بجانب المدفأة، جالسة وظهرها في مواجهته.

«لماذا تجلسين في الظلام؟»، لم يكن هناك ردّ.

«أليسيا؟».

قاومَت أليسيا الكلام وظلَّت صامتة - أرادت أن تصرخ، لكن اعتادت عيناها على الظلام وكانت تستطيع أن ترى أمامها، في زاوية الغرفة، سلاح الرجل يلمع في الظلام. كان يوجّهه نحو غابرييل. ظلَّت أليسيا صامتة من أجله.

«أليسيا؟»، مشى غابرييل نحوها. «ما الأمر؟».

في الوقت الذي مدَّ فيه غابرييل يده للمسها، قفزَ الرجل من الظلام. صرخَت أليسيا ولكن بعد فوات الأوان - سقطَ غابرييل على الأرض. وكان الرجل فوقه. تمَّ رفع المسدّس مثل المطرقة وأسقطه على رأس غابرييل بضربات قوية - مرة، مرّتان، ثلاث مرات - واستلقى هناك، فاقداً للوعي، وينزف. سحبَ الرجل غابرييل وأجلسه على كرسي. ربطه عليه مستخدِماً السلك. تحرّك غابرييل وهو يستعيد وعيه.

«ما هذا، اللعنة؟ ماذا——».

رفع الرجل المسدّس ووجّهه إلى غابرييل. كانت هناك طلقة. وأخرى. ثم أخرى. بدأت أليسيا بالصراخ. ظلَّ الرجل يطلق النار. أطلقَ النار على غابرييل في رأسه ستّ مرات.

ثم ألقى المسدس على الأرض.

غادر دون أن يقول كلمة واحدة.

15

ها هي حقيقة ما حدث. لم تقتل أليسيا بيرينسون زوجها.

اقتحم متسلِّل مجهول الهوية منزله، وعلى ما يبدو بفعل خبيث من الحقد ومن دون مبرّرات، أطلقَ الرصاص على غابرييل قبل أن يختفي في الظلام. كانت أليسيا بريئة تماماً.

هذا إذا كنت تصدّق تفسيرها.

لم أصدّق ذلك. ولا كلمة ممّا قالت.

بصرف النظر عن تناقُضاتها وأخطاءها الواضحة - مثل حقيقة أنه لم يتم إطلاق النار على غابرييل ستّ مرات، ولكن خمس مرات فقط - أُطلقت إحدى الرصاصات على السقف - كما أن أليسيا لم يُعثر عليها وهي مُقيَّدة إلى كرسي، ولكن كانت تقف في وسط الغرفة، بعد أن جرحَت معصمَيها. لم تذكر أليسيا أن الرجل فكَّ قيدها، ولم توضِّح لماذا لم تقل للشرطة عن هذه الأحداث من البداية. لا، كنت أعرف أنها كانت تكذب. وانزعجت أنها كذبت، بشدّة ومن غير جدوى، في وجهي. للحظة تساءلت عمّا إذا كانت تختبرني، لمعرفة ما إذا كنت أصدّق القصة أم لا؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد قررت عدم إفشاء أي شيء.

جلست هناك في صمت. وبشكلٍ غير عادي، تحدّثت أليسيا أولاً.

قالت: «أنا متعَبة. أريد التوقُّف».

أومأتُ. لم أستطع الاعتراض.

قالت: «لنستمرّ غداً».

«هل هناك ما تقولينه؟».

«نعم فعلاً. شيء أخير».

قلت: «جيّد جداً. غداً».

كان يوري ينتظر في الممرّ. اصطحبَ أليسيا إلى الغرفة، وذهبتُ إلى مكتبي.

كما قلت سابقاً، كنت مُعتاداً لسنوات على كتابة ما يحدث في جلسة بمجرّد انتهائها. القدرة على تسجيل ما قيل خلال الخمسين دقيقة الماضية بدقّة هو أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى المعالج - وإلا فالكثير من التفاصيل سيتمُّ نسيانها وستُفقد حرارة العواطف.

جلست على مكتبي وكتبت بأسرع ما يمكن كل شيء كان قد حدث بيننا. عندما انتهيت، سرت عبر الممرّات أمسكُ بصفحات الملاحظات.

طرقت باب ديوميديس. لم تكن هناك استجابة، لذلك طرقت مرة أخرى. لم يكن هناك جواب أيضاً. فتحتُ الباب قليلاً - وكان ديوميديس هناك، نائماً على الأريكة الضيّقة.

«بروفيسور؟». ومرة أخرى، بصوت أعلى: «بروفيسور ديوميديس؟».

استيقظ منزعجاً، وجلس بسرعة. ونظر إليّ.

«ما هذا؟ ما الأمر؟».

«أحتاج أن أتحدّث إليك. هل يجب أن أعود لاحقاً؟».

عبس ديوميديس وهزَّ رأسه. «كنت آخذ قيلولة قصيرة. أفعل ذلك دائماً، بعد الغداء. إنها تساعدني على الاستمرار في العمل بعد الظهر. تصبح ضرورة مع تقدُّمك في السنّ». تثاءبَ ووقف. «تعال، ثيو. اجلس. يبدو من مظهرك أن الأمر مهمّ».

«أعتقد أنه كذلك، نعم».

«أليسيا؟».

أومأت. جلست أمام المكتب. جلس خلفه.

كان شعره ملتصقاً على جانب واحد، وكان لا يزال يبدو نصف نائم.

«متأكّد أنه ليس عليّ العودة لاحقاً؟».

هزَّ ديوميديس رأسه. سكبَ لنفسه كوباً من الماء من إبريق. «أنا مستيقظ الآن. تابع. ما الأمر؟».

«كنت مع أليسيا، وتحدّثنا. . . أحتاج إلى بعض الإشراف».

أومأ ديوميديس. كان يبدو أكثر تيقُّظاً ممّا كان قبل لحظة، وأكثر اهتماماً. «تابع».

جلستُ، وبدأت قراءة ملاحظاتي. أطلعته على مجريات الجلسة بأكملها. كرّرتُ كلماتها بدقّة قدر ما استطعت وحكيت القصة التي أخبرتني بها: كيف أن الرجل الذي كان يتجسّس عليها اقتحم المنزل، وجعلها سجينة، وكيف قُتِل غابرييل بالرصاص.

عندما انتهيت، كان هناك توقُّف طويل. كان تعبير ديوميديس يفشي القليل. قام بسحب علبة سيجار من درج مكتبه. أخرج مِقصَلة فضّية صغيرة. أدخلها في نهاية السيجار، وقطعه.

وقال: «لنبدأ بالتحويل المقابل. أخبرني عن تجربتك الشعورية.

ابدأ من البداية. عندما كانت تروي لك قصّتها، ما نوع المشاعر التي أحسست بها؟».

فكرت في ذلك للحظة. «شعرتُ بالإثارة، أفترض... وكنت قلِقاً. وخائفاً».

«خائفاً؟ هل كان خوفك أم خوفها؟».

«كلاهما، أعتقد».

«وممَّ كنت خائفاً؟».

«لست متأكّداً. الخوف من الفشل، ربما. أمضيت الوقت الكثير في الاشتغال على هذا الموضوع، كما تعلم».

أومأ ديوميديس. «ماذا غير ذلك؟».

«الإحباط أيضاً. أشعر بالإحباط في كثير من الأحيان خلال جلساتنا».

«وبالغضب؟».

«نعم، أظنُّ كذلك».

«هل تشعر كأنك أب محبَط، يتعامل مع طفل صعب؟».

«نعم فعلاً. أريد أن أساعدها - لكنني لا أعرف ما إذا كانت تريد أن تُساعَد».

هزَّ رأسه. «ابقَ مع شعور الغضب. تحدّث لي أكثر عنه. كيف يعبِّر عن نفسه؟».

تردّدتُ. «حسناً، غالباً ما أغادر الجلسات بصداعٍ شديد في الرأس».

أومأ ديوميديس. «نعم بالضبط. يجب أن يخرج بطريقة أو أخرى. «المتدرِّب الذي لا يشعر بالقلق سوف يمرض». من قال ذلك؟».

«لا أعرف. أنا مريض وقلق».

ابتسمَ ديوميديس. «أنت أيضاً لم تعد متدرِّباً - رغم أن تلك المشاعر لا تختفي تماماً». التقطَ سيجاره. «لنذهب للخارج من أجل التدخين».

ذهبنا إلى منفذ الإغاثة. نفخَ ديوميديس الدخان من سيجاره للحظة، وهو يدرس الأمور. في النهاية، وصلَ إلى استنتاج.

قال: «إنها تكذب، كما تعرف».

«تقصد الرجل الذي قتل غابرييل؟ فكرت بذلك أيضاً».

«ليس ذلك فحسب».

«ماذا غير ذلك إذاً؟».

«كل القصّة. كل قصة الديك والثور. لا أصدّق كلمة واحدة منها».

من الأكيد أنني بدوت مندهشاً. لقد اشتبهت في أنه لن يصدّق بعض عناصر قصة أليسيا. لم أكن أتوقّعه أن يرفض كل شيء.

«أنت لا تؤمن بوجود الرجل؟».

«لا، أنا لا. لا أعتقد أنه موجود على الإطلاق. إنه خَيَال. من البداية وحتى النهاية».

«ما الذي يجعلك على يقين من ذلك؟».

ابتسمَ ديوميديس ابتسامة غريبة. «لنسمِّه حدسي. سنوات من الخبرة المهنية مع مرضى الأوهام». حاولتُ مقاطعته، لكنه أوقف ذلك بحركة من يده. «بالطبع أنا لا أتوقّع منك أن توافق، ثيو. أنت في علاقة عميقة مع أليسيا، ومشاعرك مرتبطة بمشاعرها مثل كُرة

متشابكة من الصوف. هذا هو الغرض من إشراف مثل هذا - لمساعدتك على فكّ خيوط الصوف - لمعرفة ما هو لك وما هو لها. وبمجرّد كسب بعض المسافة، والوضوح، أظنُّ أنك سوف تشعرُ بطريقة مختلفة تجاه تجربتك مع أليسيا بيرينسون».

«لستُ متأكّداً أنني فهمت ما تعنيه».

«حسناً، لكي أكون صريحاً، أخشى أنها كانت تمثّلُ عليك. تتلاعب بك. إنه تمثيل أعتقد أنه تمَّ تصميمه خصيصاً لجذب تعاطُفك كرجل شهم. . . ودعني أسمّيها غرائز رومانسية. كان ذلك واضحاً بالنسبة إليّ منذ البداية أنك كنت تنوي إنقاذها. أنا متأكّد من أنه كان واضحاً لأليسيا أيضاً. ومن هنا نفهم إغراءها لك».

«أنت تتكلم ككريستيان. إنها لم تقم بإغرائي. أنا قادر تماماً على مقاومة الإسقاطات الجنسية للمريض. لا تقلِّل من قدرتي يا بروفيسور».

«لا تقلِّل أنت من قدرة أليسيا. إنها تقوم بأداء ممتاز».

هزَّ ديوميديس رأسه، ونظر إلى السُّحب الرمادية. «المرأة الضعيفة التي تتعرّض للهجوم، وحدها، في حاجة إلى الحماية. صوّرَت أليسيا نفسها كضحية وهذا الرجل اللُّغز كشرير. بينما في الحقيقة أليسيا والرجل واحد والشيء نفسه. لقد قتلت غابرييل. كانت مذنبة - وهي لا تزال ترفض قبول هذا الذنب. لذلك هي تنقسم إلى شخصَين، وتأخذُ مسافة بالانفصال وتتخيّل - تصبحُ أليسيا الضحية البريئة وأنت حاميها. وبالتواطؤ مع هذا الخيال، فأنت تسمح لها أن تتنصّل من كلّ المسؤولية».

«أنا لا أتفق مع ذلك. لا أعتقد أنها تكذب، بوعي، على أي حال. على الأقل، تعتقدُ أليسيا أن قصّتها حقيقية».

«نعم، إنها تعتقد ذلك. أليسيا تتعرّض للهجوم - ولكن من عقلها، وليس من العالم الخارجي».

كنت أعرف أن هذا غير صحيح - لكن لم يكن هناك جدوى من الجدال أبعد من ذلك. أطفأتُ سيجارتي.

«كيف تعتقد أنه يجب عليّ أن أتعامل مع الموضوع؟».

«يجب عليك إجبارها على مواجهة الحقيقة. عندها فقط سوف يكون لديها أمل في الشفاء. يجب أن ترفض بطريقة قطعية قبول قصّتها. عليك أن تتحدّاها. اطلب منها قول الحقيقة».

«وهل تعتقد أنها سوف تفعل ذلك؟».

هزَّ كتفَيه. «هذا»، وقال وهو يأخذ نفساً طويلاً من سيجاره، «هو تخمين أي شخص».

«ممتاز. سأتحدّث معها غداً. سأواجهها».

بدا ديوميديس مضطرباً بعض الشيء، وفتح فمه وكأنه كان على وشك أن يقول شيئاً آخر. لكنه غيّرَ رأيه. أومأ وضغطَ برجله على سيجاره ضغطة النهاية. ثم قال: «غداً».

16

بعد العمل، تبعتُ كاثي إلى الحديقة مرة أخرى. كنت متأكّداً بما فيه الكفاية أن حبيبها كان ينتظر في المكان نفسه الذي التقيا فيه في آخر مرة. قبّلا وتلمّسا بعضهما البعض مثل مراهقَين.

نظرَت كاثي في اتجاهي وظننت للحظة أنها رأتني، لكن لا. كانت لديها عينان لتراه هو فقط. حاولتُ أن أحصل على مكان أفضل أنظر منه إليه هذه المرة. لكنني كنت ما زلت لا أرى وجهه بشكلٍ صحيح؛ على الرغم من وجود شيء مألوف حول شكله. كان لدي شعور بأنني رأيته من قبل في مكان ما.

مشا نحو كامدن، ودخلا إلى حانة، الورد والتاج، مكان مشبوه. انتظرت في المقهى المقابِل. بعد حوالي ساعة، خرجا. كانت كاثي تحضنه وتقبّله. قبّلا بعضهما البعض لفترة من الوقت على الطريق. شاهدت ذلك، وأنا أشعر بالألم حتى أسفل بطني، وأحترق بلهيب الكراهية.

ودّعَته في النهاية، وتركا بعضهما البعض.

بدأَت تمشي بعيداً عن المكان. التفَتَ الرجل ومشى في الاتجاه المعاكس. لم أتبع كاثي. تبعتُه هو.

انتظر في محطة للحافلات. وقفت وراءه. نظرتُ إلى ظهره، وكتفَيه. فكرت في الهجوم عليه - وأدفعه بقوة تحت الحافلة القادمة. لكنني لم أدفعه. صعدَ إلى الحافلة. وكذلك فعلت.

افترضت أنه سيعود إلى المنزل مباشرة، لكنه لم يفعل. غيّرَ الحافلة عدة مرات. تابعته من بعيد. ذهب إلى إيست إند، حيث اختفى في متجر لمدة نصف ساعة. ثم رحلة أخرى، وحافلة أخرى. أجرى عدة مكالمات هاتفية، وتحدّث بصوت منخفض، وضحكَ كثيراً. تساءلت ما إذا كان يتحدّث إلى كاثي. كنت أشعر بالإحباط بشكلٍ مُتزايِد وبفقدان للثقة.

لكنني كنت عنيداً أيضاً ورفضت الاستسلام.

في نهاية المطاف، أخذَ طريقه إلى المنزل - نزلَ من الحافلة، وسارَ في شارع هادئ تصطفّ على جانبَيه الأشجار. كان لا يزال يتحدّث على هاتفه. تبعته، وحافظت على مسافتي وراءه. كان الشارع خالياً. لو كان قد استدار، لكان رآني. لكنه لم يفعل.

مررتُ بمنزل به حديقة صخرية ونباتات عصارية. تصرّفت دون تفكير - بدا جسدي يتحرّك من تلقاء نفسه. ومددتُ ذراعي فوق الجدار المنخفض إلى الحديقة، والتقطت صخرة. كنت أشعر بثقلها في يدي. كانت يداي تعرفان ما يجب فعله: لقد قرّرا قتله؛ فتح جمجمة رجل خبيث لا قيمة لها. تابعتُ تنفيذ الفكرة، في نشوة طائشة، زاحفاً وراءه، وأتقدّم بصمت، وأقترب منه. في وقت قصير، كنت قريباً بما فيه الكفاية. رفعت الصخرة، أستعدّ لتحطيمها عليه بكل قوتي. سأسقطه أرضاً وأحطّم دماغه. كنت قريباً جداً؛ لو لم يكن ما زال يتحدّث على هاتفه، لكان سمعني.

الآن: رفعت الصخرة و——

ورائي تماماً، على يساري، فُتح باب أمامي. فجأة كان هناك ضجيج محادثات، بصوت عالٍ، «شكراً لك» و«وداعاً» لأشخاص كانوا يغادرون المنزل. جمدت في مكاني. أمامي مباشرة، توقّفَ حبيب كاثي ونظر في اتجاه الضوضاء، إلى المنزل. تنحّيت جانباً واختبأت وراء شجرة. لم يرَني.

بدأ بالمشي مرة أخرى، لكني لم أتبعه. كان هذا الانقطاع قد أذهلني وأخرجني من تخيُّلاتي. سقطت الصخرة من يدي وحطت على الأرض. شاهدته من وراء شجرة. مشى إلى الباب الأمامي للمنزل، فتحه، ودخل.

بعد ثوانٍ قليلة، أضاء ضوء المطبخ. كان يقف بشكلٍ جانبي، قريباً من النافذة. كان نصف الغرفة فقط مرئياً من الشارع. كان يتحدّث مع شخص ما لم أكن أراه. بينما كانا يتحدّثان، فتح زجاجة من النبيذ. جلسا وأكلا وجبة معاً. ثم لمحت رفيقه. كانت امرأة. هل كانت زوجته؟ لم أستطع أن أراها بوضوح. وضعَ ذراعه حولها وقبّلها.

لم أكن الوحيد إذاً الذي تعرض للخيانة. لقد عادَ إلى المنزل، بعد تقبيل زوجتي، وأكل وجبة أعدّتها له هذه المرأة، وكأن شيئاً لم يحدث. كنت أعرفُ أنني لن أستطع أن أترك الأمر هنا - كان عليّ فعل شيء ما. ولكن ماذا؟ على الرغم من أفضل تخيُّلاتي عن القتل، لم أكن قاتلاً. لن أستطيع قتله.

يجب أن أفكّر في شيء أكثر ذكاءً من ذلك.

17

لقد خططت أن أنهي الموضوع مع أليسيا في الصباح. كنت أنوي أن أجعلها تعترف بأنها كذبت عليّ بشأن الرجل الذي قتلَ غابرييل، وإجبارها على مواجهة الحقيقة. لسوء الحظّ لم أحصل على هذه الفرصة. كان يوري ينتظرني في قاعة الاستقبال. «ثيو، أنا بحاجة إلى التحدّث معك——».

«ما الأمر؟».

ألقيت نظرة فاحِصة عليه. يبدو أن وجهه قد كبر في السنّ بين عشية وضحاها؛ بدا متقلِّصاً، شاحباً، بلا دم. شيء سيّئ حدث.

وقال: «لقد وقع حادث. أليسيا - تناولَت جرعة زائدة».

«ماذا؟ هل هي. . .؟».

هزَّ يوري رأسه. «لا تزال حية، لكن——».

«شكراً للإله——».

«لكنها في غيبوبة. لا تبدو جيدة».

«أين هي؟».

أخذني يوري عبر سلسلة من الممرّات المُغلَقة إلى جناح العناية المركّزة. كانت أليسيا في غرفة خاصة. كانت موصولة بآلة تخطيط القلب وجهاز التنفُّس الصناعي. كانت عيناها مغلقتَين.

كان كريستيان هناك مع طبيب آخر. بدا شاحباً - على عكس طبيبة المستعجَلات الذي كان لونها برونزياً - من الواضح أنها عادت للتوّ من العطلة. لكنها لم تكن تبدو منتعِشة. كانت تبدو منهَكة.

«كيف حال أليسيا؟».

هزَّ الطبيب رأسه. «ليست جيدة. كان علينا أن نحفّز حالة الغيبوبة. لقد فشل جهازها التنفُّسي».

«ماذا أخذَت؟».

«مواد أفيونية من نوع ما. الهيدروكودون، على الأرجح».

أومأ يوري. كانت هناك زجاجة فارغة من الحبوب على المنضدة في غرفتها.

«من وجدها؟».

قال يوري: «أنا. كانت على الأرض بجانب السرير. لم تكن تبدو أنها تتنفّس. اعتقدت أنها ماتت في البداية».

«هل لديك أي فكرة عن كيفية حصولها على الأقراص؟».

نظرَ يوري إلى كريستيان، الذي تجاهلَ السؤال.

«نعلم جميعاً أن هناك الكثير من تجارة الأدوية المخدِّرة تجري في الأجنحة».

قلت: «إليف تفعل ذلك».

هزَّ رأسه. «نعم، أظن ذلك أيضاً».

جاءت إنديرا. بدت على وشك البُكاء. وقفَت بجانب أليسيا ونظرت إليها للحظة. «سوف يكون لهذا الحادث تأثير رهيب على الآخرين. دائماً ينتكس المرضى لشهور عندما يحدث هذا النوع من الأشياء». جلسَت، ووصلَت ليد أليسيا ولمسَتها بحنان. شاهدتُ صعود ونزول جهاز التنفُّس الصناعي. ساد الصمت لبرهة.

قلت: «ألوم نفسي».

هزّت إنديرا رأسها. «هذا ليس خطأك يا ثيو».

«كان ينبغي عليّ العناية بها بشكلٍ أفضل».

«قُمت بأحسن ما تستطيع فعله. لقد ساعدتها. وهذا أكثر من أي فعل قام به شخص آخر».

«هل أخبر أحد ديوميديس؟».

هزَّ كريستيان رأسه. «لم نتمكن من الاتصال به حتى الآن».

«هل جربت هاتفه المحمول؟».

«وهاتف المنزل. لقد اتصلت به عدة مرات».

قطّب يوري حاجبيه. «لكن - رأيت البروفيسور ديوميديس في وقت سابق. كان هنا».

«كان هنا؟».

«نعم، رأيته مبكّراً هذا الصباح. كان في الطرف الآخر من الممرّ، وبدا في عجلة من أمره - على الأقلّ، أعتقد أنه كان هو».

«هذا غريب. حسناً، يجب أن يكون قد ذهب إلى المنزل. حاول مرة أخرى، من فضلك».

أومأ يوري. نظرَ بعيداً بطريقة ما. كان في حالة ذهول، وضائعاً. يبدو أنه تقبّل الحادث بشكلٍ سيّئ للغاية. شعرتُ بالأسف نحوه.

رنَّ منبّه كريستيان، فاجأه - غادر الغرفة بسرعة، تلاه يوري والطبيب.

تردّدت إنديرا وتحدّثت بصوت منخفض.

«هل تحب أن تبقى للحظة لوحدك مع أليسيا؟».

أومأت، لم أكن متأكّداً من أنني أستطيع الكلام. وقفَت إنديرا وضغطت برفق على كتفي للحظة. ثم خرجت.

كنت أنا وأليسيا لوحدنا.

جلستُ بجانب السرير. مدّدت يدي وأخذتُ ذراع أليسيا. كان

هناك أنبوب متّصل بخلف يدها. أمسكتُ يدها برفق، ولامستُ راحة يدها وداخل معصمها. لمست معصمها بإصبعي، وشعرت بالأوردة التي تحت الجلد، والندوب السميكة والبارزة، من محاولاتها الانتحارية.

هذا هو المآل. هكذا كان سينتهي كل شيء. كانت أليسيا ستلزم الصمت مرة أخرى. وهذه المرة سوف يستمرُّ صمتها إلى الأبد.

تساءلتُ عمّا سيقول ديوميديس. كان يمكنني أن أتخيّلَ ما سيقوله له كريستيان - سيجدُ طريقة لإلقاء اللوم عليّ بطريقة ما: كانت العواطف التي أثرتها في العلاج أكثر من اللازم بالنسبة إلى أليسيا لاحتوائها - حصلت على الهيدروكودون كمحاولة لتهدئة الذات والعلاج الذاتي. يمكن أن تكون الجرعة الزائدة حادثاً عَرَضيّاً، كان يمكنني سماع ديوميديس يقول ذلك، ولكن السلوك كان انتحارياً. وسوف يكون كذلك.

لكن الحادث لم يكن كذلك.

لقد تمَّ التغاضي عن شيء ما. شيء مهم، شيء لم يلاحظه أحد - ولا حتى يوري، عندما وجدَ أليسيا فاقدة للوعي جانب السرير. كانت هناك زجاجة أقراص فارغة على مكتبها، نعم، وبعض الأقراص على الأرض، بالطبع كان مفترضاً أنها تناولت جرعة زائدة.

ولكن هنا، تحت طرف إصبعي، بداخل معصم أليسيا، كانت بعض الكدمات وعلامة صغيرة تكشف عن قصة مختلفة جداً.

ثقب صغير على طول الوريد - ثقب صغير خلفه وخز إبرة تحت الجلد - يكشف الحقيقة: لم تبتلع أليسيا كل الأقراص التي كانت في الزجاجة بهدف الانتحار. تمَّ حقنها بجرعة كبيرة من المورفين. لم تكن هذه جرعة زائدة.

كانت محاولة قتل.

18

ظهر ديوميديس بعد نصف ساعة. قال إنه كان في اجتماع مع المؤسسة المموِّلة، ثم بقي في الطابق السُّفلي وتأخّر بسبب فشل في إشارة الاتصال. طلبَ من يوري أن يُحضرني.

وجدني يوري في مكتبي. «بروفيسور ديوميديس هنا. إنه مع ستيفاني. إنهما في انتظارك».

«شكراً. سأذهب إلى هناك».

وصلتُ إلى مكتب ديوميديس، وأنا أتوقُّع الأسوأ. ستكون هناك حاجة إلى كبش فداء لتحمُّل اللَّوم. لقد رأيتُ الشيء نفسه من قبل، في برودمور، في حالات الانتحار: أي موظف كان الأقرب إلى الضحية يُعتبر مسؤولاً، سواء كان المعالِج، الطبيب أو الممرّضة. لا شكّ أن ستيفاني كانت تُعدّ عقاباً لي.

طرقت الباب وذهبت إلى الداخل. كانت ستيفاني وديوميديس يقفان كلّ على جانب من المكتب. كان يبدو من الصمت المتوتر أنني قاطعت نقاشاً حادّاً.

كان ديوميديس أوّل من تحدّث. كان منزعجاً بوضوح، وكانت يداه تلوّحان في كل مكان.

«عمل رهيب. رهيب. من الواضح أنه لا يمكن أن يتحقّق في وقت أسوأ من هذا. إنه يعطي العذر المناسب للمؤسَّسة المموِّلة لإغلاق المصحّة».

«لا أعتقد أن المؤسَّسة المموّلة هي اهتمامنا المباشر»، قالت. «تأتي سلامة المرضى أولاً. نحن بحاجة إلى معرفة ما حدث بالضبط».

التفتَت إليّ. «ذكرَت إنديرا أنك تشتبه أن إليف تتاجر في الأدوية المخدِّرة؟ وهذه هي الطريقة التي حصلت بها أليسيا على الهيدروكودون؟».

ترددت. «حسناً، ليس لدي أي دليل. إنه شيء سمعتُ بعض الممرضات يتحدّثون عنه. ولكن في الواقع هناك شيء ما أعتقد أنه يجب أن تعرفاه——»،

قاطعتني ستيفاني بهزّة رأسها. «نعلم ما حدث. لم تكن إليف».

«لا؟».

«حدث أن كان كريستيان يمرُّ بمركز الممرّضات ورأى خزانة الأدوية مفتوحة على مصراعَيها. لم يكن هناك أحد في المركز. كان يوري قد تركها غير مُقفلة. يمكن لأي شخص أن يذهب ويأخذ ما يشاء بنفسه. ورأى كريستيان أليسيا تحوم حول المكان. تساءلَ عمّا كانت تفعله هناك في ذلك الوقت. الآن بالطبع يبدو الأمر منطقياً».

«كم كان كريستيان محظوظاً ليرى كل هذا».

كانت هناك نبرة ساخرة في صوتي، والتي اختارت ستيفاني عدم استغلالها لمهاجمتي.

«لم يكن كريستيان الشخص الوحيد الذي لاحظَ إهمال يوري»، واصلَت كلامها. «شعرت في كثير من الأحيان أن يوري ليس حريصاً

في موضوع الأمن. ودّي للغاية مع المرضى. مهتمّ جداً بتحقيق شعبية. لقد فوجئت بأن شيئاً كهذا لم يحدث في وقت سابق».

قلت: «أرى ذلك». لقد فهمت. فهمت الآن لماذا كانت ستيفاني ودّية معي. يبدو أنني كنت خارج دائرة المسؤولية. فقد اختارت يوري كبش فداء بدلاً مني.

قلت: «يبدو يوري دقيقاً جداً في عمله»، قلت ونظرت إلى ديوميديس، متسائلاً عمّا إذا كان سيتدخّل. «لا أعتقد ذلك حقاً. . .».

تجاهلَ ديوميديس ملاحظتي. «رأيي الشخصي هو أن أليسيا كانت لديها دائماً رغبة قوية في الانتحار. كما نعلم، عندما يريد شخص ما الموت، فإنه على الرغم من بذل قصارى جُهدكَ لحمايته، فمن المستحيل في كثير من الأحيان منع ذلك من الحدوث».

قاطعَته ستيفاني وقالت غاضبة: «أليست هذه مهمّتنا؟ منع ذلك؟».

«لا». هزَّ ديوميديس رأسه. «مهمّتنا هي مساعدتهم على الشفاء. لكننا لسنا الإله. ليس لدينا سُلطة على الحياة والموت. أرادت أليسيا بيرينسون أن تموت. في مرحلة ما سيكون طبيعياً أن تنجح. أو على الأقل، أن تنجح جزئياً».

ترددتُ. الآن أو أبداً.

قلت: «لست متأكداً من صحّة ذلك. لا أعتقد أنها كانت محاولة انتحار».

«هل تعتقد أنه كان حادثاً؟».

«لا. لا أعتقد أنه كان حادثاً».

نظرَ إليّ ديوميديس نظرة غريبة. «ماذا تحاول أن تقول، ثيو؟ ما هي الاحتمالات الأخرى الموجودة؟».

«حسناً، بادئ ذي بدء، لا أعتقد أن يوري أعطى أليسيا الأدوية المخدِّرة».

«أنت تقصد أن كريستيان مخطئ؟».

«لا»، قلتُ. «كريستيان يكذب».

حدّق ديوميديس وستيفاني في وجهي، مصدومَين. أكملت كلامي قبل أن يتمكّنا من استعادة قدرتهم على الكلام.

أخبرتهم بسرعة بكل ما قرأته في يوميّات أليسيا: أن كريستيان كان يعالِج أليسيا سرّاً قبل مقتل غابرييل؛ وأنها كانت واحدة من عدة مرضى خاصّين كان يعالجهم بشكلٍ غير رسمي. وأنه ليس فقط لم يقم بالإدلاء بشهادته في المحاكمة، بل كان قد تظاهرَ بعدم معرفة أليسيا عندما تمَّ قبولها في ذا غروف. لا عجب أنه كان ضدّ أي محاولة لجعلها تتحدث مرة أخرى. إذا تحدّثت، فستكون في وضع يمكّنها من فضحه.

حدّقت ستيفاني فيّ مندهشة. «لكن - ماذا تقول؟ لا يمكنك أن تعني بجدّية أنه—».

«نعم، أنا أعني ذلك. لم تكن جرعة زائدة. لقد كانت محاولة لقتلها».

«أين يوميّات أليسيا؟»، سألني ديوميديس. «هل هي في حوزتك؟».

هززت رأسي. «لم تعد في حوزتي. أرجعتُها إلى أليسيا. يجب أن تكون في غرفتها».

«يجب علينا استردادها إذاً». التفتَت إليّ ستيفاني. «لكن أولاً»، قالت، «أعتقد أنه يجب علينا أن نستدعي الشرطة. أليس كذلك؟».

19

منذ ذلك الحين تحرّكَت الأمور بسرعة. ملأ ضبّاط الشرطة جميع أنحاء ذا غروف، وطرحوا الأسئلة، والتقطوا صوراً وأغلقوا استوديو أليسيا وغُرفتها. قادَ التحقيق رئيس المفتِّشين ستيفن آلن - رجل قوي البنية وذو رأس أصلع ونظارات قراءة كبيرة شوّهَت عينيه، وجعلَتْهما تبدوان أكبر من الحياة، منتفختَين بالاهتمام والفضول.

استمع آلن باهتمام شديد إلى قصتي. أخبرته عن كل ما قلته لديوميديس، وأريته ملاحظاتي كمعالج.

قال: «شكراً جزيلاً لك يا سيد فابر».

«ناديني ثيو».

«أودُّ منك أن تدلي بتصريح رسمي، من فضلك. وسوف أتحدّث إليك أكثر في الوقت المناسب».

«نعم بالتأكيد».

ودّعني المفتِّش آلن من مكتب ديوميديس حيث أصبحَ يدير أبحاثه. بعد أن أدليت بتصريحي لضابط مبتدئ، بقيت أتمشّى في الممرِّ، منتظِراً. وبعد وقت قصير جداً، قاد ضابط شرطة كريستيان

إلى الباب. كان مضطرباً، وخائفاً - ومذنباً. شعرتُ بالرضى أنه سيصبح متّهماً بعد وقت قصير.

لم يكن هناك شيء آخر يجب عليّ القيام به الآن، باستثناء الانتظار. في طريق خروجي من ذا غروف، مررتُ بـ«غولد فيش بول». نظرت إلى الداخل - وما رأيته أوقفني. كانت إليف تتسلّم بعض الأدوية من يوري، وكان يضع بعض النقود في جيبه.

تجهّم وجه إليف ونظرَت إليّ بحدّة بعين واحدة. نظرة احتقار وكراهية.

قلت: «إليف».

«اغرب عن وجهي».

سارت إليف، واختفت خلف الزاوية. خرج يوري من «غولد فيش بول». بمجرد أن رآني، أصيب بالذهول. وتعثّر في كلامه تحت تأثير المفاجأة.

«أنا - أنا لم أرَكَ هناك».

«من الواضح أنك لم ترَني».

«إليف - نسيَت دواءها. كنت فقط أعطيه لها».

قلت: «أرى ذلك».

كان يوري يتاجر في الأدوية، ويزوّد إليف. تساءلت عمّا كان يفعل غير ذلك - ربما كنت متسرّعاً جداً في الدفاع عنه بقوة أمام ستيفاني. يجبُ عليّ مراقبته.

قال: «أردت أن أسألك»، أخذني بعيداً عن «غولد فيش بول». «ماذا يجب أن نفعل بشأن السيّد مارتن؟».

«من تقصد؟» نظرت إليه مندهِشاً. «هل تعني جان-فيليكس مارتن؟ ما الأمر؟».

«حسناً، إنه موجود هنا لساعات. لقد جاء هذا الصباح لزيارة أليسيا. وينتظر منذ ذلك الحين».

«ماذا؟ لماذا لم تخبرني؟ هل تعني أنه كان هنا كل هذا الوقت؟».

«آسف، لقد نسيت أن أخبرك مع كل ما حدث. إنه في غرفة الانتظار».

«أرى ذلك. حسناً، يجب أن أتحدّث إليه».

نزلتُ مسرِعاً إلى قاعة الاستقبال، وأفكّر في ما كنت قد سمعت للتوّ. ماذا كان جان-فيليكس يفعل هنا؟ تساءلت عمّا يريد؛ وماذا كان يعني ذلك.

ذهبتُ إلى غرفة الانتظار ونظرتُ حولي.

ولكن لم يكن هناك أحد.

20

غـادرتُ ذا غـروف وأشـعـلـتُ سـيـجـارة. سـمـعـتُ صـوت رجـل يناديني. رفعتُ بصري، متوقّعاً أن يكون جان-فيليكس. لكنه لم يكن هو.

كـان ماكس بيرينسون. كـان يـخـرج من سيارة ويتقدّم منفعلاً باتجاهي.

«ما هذا؟ اللعنة. ماذا حدث؟» كان وجه ماكس أحمر، وملتوياً من الغضب. «اتصلوا بي للتوّ وأخبروني عن أليسيا. ماذا حدث لها؟».

أخذتُ خطوة إلى الوراء. «أعتقد أنه يجب أن تهدأ، سيّد بيرينسون».

«أهدأ؟ وزوجة أخي هناك في غيبوبة بسبب إهمالك. . . ».

كانت يد ماكس مجتمعة في قبضة. رفعها. اعتقدت أنه كان على وشك لكمي في وجهي. لكنه أُوقف من قبل تانيا. أسرعَت نحونا وبدت غاضبة مثله - لكن كانت غاضبة من ماكس، وليس مني.

«توقف عن ذلك، ماكس! لأجل الربّ. أليست الأمور سيّئة بما يكفي؟ إنه ليس خطأ ثيو!».

تجاهلَها ماكس ورجعَ إليّ. كانت عيناه تشتعلان غضباً.

«كانت أليسيا في رعايتك»، صاحَ في وجهي. «كيف سمحت بذلك أن يحدث؟ كيف حدث ذلك؟».

كانت عينا ماكس مليئتَين بالدموع الغاضبة. لم يكن يبذل أي محاولة لإخفاء عواطفه. وقفَ هناك يبكي. نظرتُ إلى تانيا، وكان من الواضح أنها علمت بمشاعره تجاه أليسيا.

بدت تانيا فزعة ومستنزفة. دون أن تقول أي كلمة أخرى، التفتت وعادت إلى سيارتهما.

أردت الابتعاد عن ماكس بأسرع وقت ممكن. ظللت أمشي.

ظلَّ يلعن ويشتم بأعلى صوته. اعتقدت أنه سيتبعني، ولكنه لم يفعل - بقي في مكانه، رجل مكسور، يخاطبني ويصرخ بشدّة: «أحمّلك المسؤولية. أليسياتي المسكينة، فتاتي. أليسياتي المسكينة... سوف تدفع ثمن هذا! هل تسمعني؟».

استمرَّ ماكس في الصراخ، لكني تجاهلته. تلاشى صوته بعد وقت قصير. كنت وحدي.

ظللت أمشي.

21

عدت إلى المنزل حيث كان يسكن عشيق كاثي. وقفتُ هناك لمدة ساعة، أراقب. في نهاية المطاف، فُتح الباب، وخرج. شاهدته يغادر. إلى أين كان يذهب؟ ليلتقي بكاثي؟ ترددتُ لكنني قرّرت عدم المشي خلفه. بدلاً من ذلك بقيتُ أراقب المنزل.

شاهدت زوجته من خلال النوافذ. عندما كنت أراقبها، كنت متأكّداً بشكلٍ مُتزايِد أنه كان عليّ فعل شيء لمساعدتها. كانت تشبهني، وكنت أشبهها: كنا اثنين من الضحايا الأبرياء، المخدوعَين والمتعرضَين للخيانة. لقد اعتقدَت أن هذا الرجل أحبها - لكنه لم يفعل.

ربما كنت مخطئاً - على افتراض أنها لا تعرف شيئاً عن خيانته؟ ربما كانت تعرف. ربما كانا في علاقة مفتوحة وكانت لها علاقات أخرى بالقدر نفسه؟ لكن بطريقة ما لم أكن أعتقد ذلك. بدَت بريئة، كما كنت أبدو ذات مرة. كان من واجبي أن أنوّرها. يمكنني أن أكشفَ لها حقيقة الرجل الذي كانت تعيش معه، وتشاركه سريرها. لم يكن لدي خيار. كان يجب عليّ مساعدتها.

خلال الأيام القليلة التالية، ظللت أعود. ذات يوم، غادرَت المنزل وذهبَت للنزهة. تبعتها، وحافظتُ على مسافتي وراءها.

كنت قلِقاً لأنها رأتني في لحظة ما؛ ولكن حتى لو فعلت، فقد كنت مجرّد غريب بالنسبة إليها. في الوقت الحالي.

ذهبتُ واقتنيتُ بعض المشتريات. عُدت مرة أخرى. وقفتُ على الطريق، أشاهد المنزل. لقد رأيتها مرة أخرى، تقف بجانب النافذة.

لم تكن لدي خطة، فعلاً، بل مجرد فكرة غامضة غير مشكَّلة عمّا كنت بحاجة إلى إنجازه. كفنّان عديم الخبرة، كنتُ بالأحرى أعرف النتيجة التي أسعى إليها - دون أن أعرف كيف أحقّقها. انتظرتُ بعض الوقت، ثم مشيت إلى المنزل. حاولتُ فتح البوّابة - كانت غير مُغلَقة. فتحتها ودخلت إلى الحديقة. شعرتُ بالاندفاع المفاجئ للأدرينالين. شعور غير شرعي بالإثارة لكونك دخيل على ممتلكات شخص آخر.

ثم رأيت الباب الخلفي يُفتح. بحثت عن مكان ما للاختباء. لاحظت غرفة الصيف الصغيرة عبر العشب. أسرعتُ بصمت عبر العشب وتسلّلتُ إلى الداخل. وقفت هناك للحظة، التقطت أنفاسي. كان قلبي ينبض. هل رأتني؟ سمعتُ خطواتها تقترب. لم يعد هناك فرصة للتراجع الآن. أدخلت يدي في جيبي الخلفي وأخرجت القناع الذي اشتريته. وضعته فوق رأسي. ووضعت زوج قفازات. مشيت. كانت تتحدّث على الهاتف: «حسناً، حبيبي»، قالت، «سأراك في الثامنة. نعم فعلاً. . . أنا أحبك أيضاً».

أنهَت المكالمة وشغّلت مروحة كهربائية. وقفَت أمام المروحة، شعرها يتطاير في النسيم. التقطت فرشاة رسم، واقتربت من حامل اللوحة. وقفَت وظهرها في مواجهتي. ثم رأت صورتي منعكسة على النافذة. أعتقد أنها رأت سكّيني أولاً. جمدت في مكانها ودارت

ببطء. كانت عيناها مفتوحتَين خوفاً. حدّقنا في بعضنا البعض في صمت.

كانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها بأليسيا بيرينسون وجهاً لوجه.

البقية، كما يقولون، هي تاريخ.

الجزء الخامس

«إنْ تبَرَّرتُ يَحكُمُ عَلَيَّ فَمِي» .

سفر أيوب 9 : 20

1

يوميّات أليسيا بيرنسون

23 فبراير

غادرَ ثيو للتوّ. أنا وحيدة. أكتبُ هذا بأسرع ما أستطيع. ليس لدي الكثير من الوقت. يجب أن أكتب هذا بينما ما زالت لدي القوة.

اعتقدت أنني كنت مجنونة في البداية. كان من الأسهل أن أعتقد أنني كنت مجنونة، من أن أعتقد أن ما حدث كان صحيحاً. لكنني لست مجنونة. أنا لستُ كذلك.

في المرّة الأولى التي قابلته في غرفة العلاج، لم أكن متأكّدة - كان هناك شيء مألوف عنه، ولكن مختلف - عرفت عينيه، ليس فقط اللون، ولكن الشكل. ونفس رائحة السجائر وعطر ما بعد الحلاقة المدخَّن. والطريقة التي يشكّل بها الكلمات، وإيقاع كلامه - وليس نبرة صوته، بدا مختلفاً بطريقة أو بأخرى. لذلك لم أكن متأكّدة - لكن في المرة التالية التي التقينا فيها، كشفَ عن نفسه. قال الكلمات نفسها - العبارة نفسها بالضبط التي استخدمها في المنزل،

كانت تلتهبُ في ذاكرتي: «أريد أن أساعدك - أريد أن أساعدك على الرؤية بوضوح».

بمجرّد سماع ذلك، شيء ما أصبح واضحاً في عقلي واكتملَت أحجية الصورة المقطعة - كانت الصورة كاملة.

لقد كان هو.

وهناك شيء في داخلي سيطرَ عليّ، نوع من الغريزة الحيوانية المتوحِّشة. أردت قتله، أن أَقتُل أو أُقتَل - قفزتُ عليه وحاولت خنقه، وجرّ عينيه إلى الخارج، وتكسير جمجمته إلى قطع على الأرض. لكنني لم أنجح في قتله، احتجزوني وخدّروني، وحبسوني.

ثم - بعد ذلك فقدت أعصابي. بدأت أشكُّ في نفسي مرة أخرى - ربما ارتكبت خطأً، ربما كنت أتخيّل ذلك، ربما لم يكن هو.

كيف يمكن أن يكون ثيو؟ ما غرضه من المجيء إلى هنا ليسخر مني بهذا الشكل؟ ثم فهمت بعد ذلك. كل هذا الهراء حول الرغبة في مساعدتي - كان هذا هو الجزء الأكثر مرضاً منه. كان يتخلّص منه، وكان يشعر بالإثارة لفعل ذلك - لهذا السبب كان موجوداً هنا - لقد عاد ليشمت.

«أريد أن أساعدك - أريد أن أساعدك على الرؤية بوضوح».

حسناً، الآن رأيت. رأيت بوضوح. أردت منه أن يعرف أنني كنت أعرف. لذلك كذبت عليه بشأن الطريقة التي مات بها غابرييل. بينما كنت أتحدّث، كان يمكنني أن أرى أنه كان يعلم أنني كنت أكذب. نظرنا إلى بعضنا ورأى ذلك - أنني قد عرفته. وكان هناك شيء ما في عينَيه لم أرَه من قبل. الخوف. كان يخاف مني - ممّا قد أقوله. لقد كان خائفاً - من صوتي.

لهذا السبب عادَ قبل بضع دقائق. لم يقل أي شيء هذه المرة. لا مزيد من الكلمات. أمسك معصمي، وأدخل إبرة في وريدي. لم أصارع لم أحارب. سمحت له أن يفعل ذلك. أنا أستحقُّ ذلك - أنا أستحقُّ هذه العقوبة. أنا مذنِبة - ولكن هو كذلك مذنِب. لهذا السبب أنا أكتب هذا - لكي لا يفلت من العقاب. لذلك سوف يعاقَب.

يجب أن أكون سريعة. أستطيع أن أشعر بها الآن - الأشياء التي حقنها لي بدأ مفعولها يشتغل. أشعر بالرغبة في النوم. أريد الاستلقاء. أريد أن أنام. . . لكن لا - ليس بعد. يجب أن أبقى مستيقظة. يجب عليّ أن أنهي القصة. وهذه المرّة، سأقول الحقيقة.

في تلك الليلة، اقتحمَ ثيو المنزل وقيّدني - وعندما عاد غابرييل إلى المنزل، أسقطه ثيو أرضاً. في البداية ظننت أنه قتله - لكنني رأيت غابرييل يتنفّس.

سحبه ثيو وربطه على الكرسي. حرّك الكرسي حتى لا نرى، أنا وغابرييل، بعضنا البعض ولم أستطع رؤية وجهه.

قلت: «أرجوك، أرجوك لا تؤذيه. أنا أتوسّلُ إليك - سأفعل أي شيء، أي شيء تريده».

ضحك ثيو. أصبحت أكره ضحكته كثيراً - كانت باردة، فارغة. بلا قلب. «أؤذيه؟»، هزّ رأسه. «سوف أقتله».

لقد كان يعني ما يقول. شعرتُ بإرهاب كبير، وفقدت السيطرة على دموعي. بكيت وتوسّلت. «سأفعل أي شيء تريده، أي شيء - أرجوك، أرجوك دعه يعيش - إنه يستحق أن يعيش. إنه ألطف وأفضل الرجال - وأنا أحبه، وأنا أحبه كثيراً -».

«قولي لي، أليسيا. أخبريني عن حبك له. قولي لي، هل تعتقدين أنه يحبك؟».

قلت: «إنه يحبني».

سمعتُ عقارب الساعة تدقُّ في الخلفية. يبدو أن صمته استغرقَ وقتاً طويلاً قبل أن يجيب. قال: «سنرى». حدّقت عيناه السوداوان في وجهي للحظة وشعرت بأن الظلام سيطرَ عليّ. كنت في حضرة مخلوق يفتقد إلى الإنسانية. كان الشرّ كله.

مشى حول الكرسي وواجه غابرييل. التفتُّ برأسي قدر استطاعتي، لكني لم أتمكّن من رؤيتهما. كانت هناك ضربة كاتمة رهيبة - ارتجفتُ عندما سمعته يضرب غابرييل في الوجه. لقد ضربه مراراً وتكراراً، حتى بدأ غابرييل ينحنح واستيقظ.

«مرحباً، غابرييل»، قال.

«تباً، من أنت؟».

قال ثيو: «أنا رجل متزوِّج. لذلك أنا أعرف ما يعنيه حبّ شخص. وأعلم ما يعنيه أن تُخذَل».

«ما الذي تتحدّث عنه، اللعنة؟».

«فقط الجبناء يخونون الناس الذين يحبونهم. هل أنت جبان يا غابرييل؟».

«اللعنة عليك».

«كنت سأقتلك. لكن أليسيا توسّلت أن أبقيك على قيد الحياة. وبالتالي بدلاً من ذلك، سأقدّم لك خياراً. إمّا أن تموت - وإمّا أليسيا هي التي ستموت. أنت صاحب القرار».

كانت الطريقة التي يتحدث بها باردة وهادئة ومتحكّم بها. لا وجود للمشاعر. لم يردّ غابرييل للحظة. وكان يبدو منقطع التنفُّس، وكأنه تلقّى لَكمة.

«لا ــــ».

«نعم. إمّا تموت أليسيا وإمّا تموت أنت. هذا اختيارك، غابرييل. دعنا نكتشف كم تحبها. هل ستموت من أجلها؟ عندك عشر ثوانٍ لاتّخاذ قرار... عشرة... تسعة...».

قلت له: «لا تصدّقه. سيقتل كلينا - أنا أحبك -».

«ثمانية... سبعة...».

«أعرفُ أنك تحبني يا غابرييل».

«ستة... خمسة...».

«أنت تحبني -».

«أربعة... ثلاثة...».

«غابرييل، قل إنك تحبني——».

«اثنان...».

ثم تحدّث غابرييل. لم أعرف صوته في البداية. هذا صوت صغير، بعيد جداً - صوت طفل صغير. طفل صغير - قوة الحياة والموت في متناول يده.

وقال: «لا أريدُ أن أموت».

ثم كان هناك صمت. كل شيء توقّف. داخل جسدي، كل الخلايا تقلّصَت. كل الخلايا ذبُلَت، مثل ورود ميّتة تسقط من زهرة. زهور الياسمين العائمة على الأرض. هل أستطيع أن أشمَّ الياسمين في مكان ما؟ نعم، نعم، ياسمين حلو - ما زال على النافذة ربما...

ابتعدَ ثيو عن غابرييل وبدأ يتحدّث معي.

لقد وجدت صعوبة في التركيز على كلماته. «أترين، أليسيا؟ كنت أعرف أن غابرييل كان جباناً - يعاشرُ زوجتي وراء ظهري. لقد دمّر السعادة الوحيدة التي حصلت عليها...»، انحنى ثيو إلى

الأمام، واقترب من وجهي. «أنا آسف للقيام بذلك. لكن بصراحة تامّة الآن، أنت تعرفين الحقيقة. . . أنت أفضل حالاً بالموت».

رفعَ المسدّس، وأشار إلى رأسي. أغلقت عينَي. سمعت غابرييل يصرخ - «**لا تطلق النار، لا تطلق النار——**».

نقرة. ثم طلقة نارية - صوت عالٍ جداً حجب جميع الأصوات الأخرى. كان هناك صمت لبضع ثوانٍ. ظننت أنني متُّ.

لكنني لم أكن محظوظة للغاية.

فتحت عينَي. كان ثيو لا يزال هناك - موجِّها المسدّس نحو السَّقف. ابتسمَ. وضع إصبعه على شفتَيه، ليطلب مني أن ألتزم الصمت.

«أليسيا؟»، صاح غابرييل. «أليسيا؟».

سمعتُ غابرييل يتلوّى على كرسيه، محاوِلاً الدوران لمعرفة ما حدث.

«ماذا فعلت لها، أيها الوغد؟ أنت وغد نذل. يا إلهي. . .».

فكَّ ثيو القيد حول معصمَي. أسقطَ المسدّس على الأرض. ثم قبّلني، بلُطف شديد، على الخدّ. خرجَ وسمعت صوت الباب الأمامي يقفل بقوة من بعده. كنت أنا وغابرييل وحدنا.

كان يبكي وينتحب، وبالكاد قادراً على تكوين كلمات. ظلَّ فقط ينادي اسمي، منتحباً: «أليسيا، أليسيا -».

بقيتُ صامتة.

«أليسيا؟ اللعنة، اللعنة، اللعنة -».

بقيتُ صامتة.

«أليسيا، أجيبيني، أليسيا - أوه، يا إلهي -».

بقيت صامتة. كيف يمكنني التحدُّث؟ حكمَ عليّ غابرييل بالموت.

الموتى لا يتحدّثون.

قمت بفكّ القيد حول كاحلي. نهضت من الكرسي. انحنيتُ إلى الأرض. وأمسكت بالمسدّس.

كان ساخناً وثقيلاً في يدي. مشيتُ حول الكرسي، وواجهتُ غابرييل. كانت الدموع تتدفّق على خدَّيه. واتسعت عيناه.

«أليسيا؟ أنت على قيد الحياة - الحمد لله أنت -».

أتمنى أن أستطيع القول إنني نصرت المهزوم - وأنني كنت أقفُ بجانب المغدور والمكسور القلب - وأن غابرييل كان له عينان طاغيتان، عينا أبي. لكنني أتجاوز الكذب الآن. الحقيقة هي أن غابرييل كان له عيناي فجأة - وكان لدي عيناه.

في مكان ما على طول الطريق، تبادلنا الأماكن.

رأيت الحقيقة الآن. لن أكون آمنة أبداً. لن أكون محبوبة. كل آمالي، تحطّمت - كل أحلامي، تكسّرت - تاركة وراءها لا شيء، لا شيء - كان والدي على حقّ - لم أكن أستحقُّ أن أعيش. كنت - لا شيء، هذا ما فعله غابرييل بي.

هذه هي الحقيقة. لم أقتل غابرييل. هو الذي قتلَني.

كل ما فعلته هو الضغط على الزناد.

2

قالت إنديرا: «لا يوجدُ شيء يرثى له، كما ترى كل ممتلكات الشخص توجد في صندوق من الورق المقوّى».

أومأت. نظرتُ حول الغرفة بحزن.

«ما يفاجئني حقاً»، تابعت إنديرا، «هو العدد القليل من الأشياء التي تملكها أليسيا. عندما تفكّر في مقدار القُمامة الذي يراكمه المرضى الآخرون. . . كل ما كان لديها هو بعض الكُتب، وعدد قليل من الرسومات، وملابسها».

كنت أنا وإنديرا نقوم بإزالة ما تبقّى في غرفة أليسيا حسب تعليمات ستيفاني. قالت ستيفاني: «من المحتمل أن لا تستيقظ أبداً. وبصراحة نحتاج إلى السرير». اشتغلنا بصمت في الغالب، نحدِّد ما يجب وضعه في المخزن وما الذي يجب التخلُّص منه. بحثت بعناية في ممتلكاتها. أردت أن أتأكّد من أنه لم يكن هناك شيء يجرّمني - لا شيء يسقطني.

تساءلتُ عن الكيفية التي تمكّنَت بها أليسيا من إخفاء يوميّاتها والاحتفاظ بها بعيداً عن الأنظار لفترة طويلة. كان يُسمح لكلّ مريض بجلب عدد قليل من الأشياء الشخصية معه عند قبوله في ذا غروف.

جلبت أليسيا مجموعة من الرسومات، والتي أفترض أنها الطريقة التي تمكّنت بها من إدخال اليوميّات. فتحتُ الحافظة وفتشت داخل الرسومات - كان معظمها رسومات وتخطيطات بقلم الرصاص وغير منتهية. بعض الخطوط العفوية أُلقيت على صفحة، تعودُ على الفور إلى الحياة، مصوّرة بشكل بارع، وتلتقطُ الشبه الذي لا لُبس فيه.

عرضتُ رسماً على إنديرا. قلت: «إنه أنت».

«ماذا؟ لست أنا».

«بلى».

«حقاً؟».

بدت إنديرا سعيدة ودرسته عن كثب. «هل تعتقد ذلك؟ لم ألاحظها وهي ترسمني. أتساءل متى فعلت ذلك. هذا جيّد، أليس كذلك؟».

«نعم إنه كذلك. يجبُ عليك الاحتفاظ بها».

كشّرت إنديرا وجهها وأعادته. «لا أستطع القيام بذلك».

«بالتأكيد تستطيعين. لن تمانِع». ابتسمتُ. «لن يعرف أحد بالموضوع أبداً».

«أفترض ذلك». نظرتُ إلى اللَّوحة واقفة على الأرض، ومائلة على الجدار - لوحة أنا وأليسيا واقفَين قرب منفذ الإغاثة في المبنى المحترق، التي تمَّ تشويهها بواسطة إليف.

«ماذا عن هذه اللَّوحة؟» سألَت إنديرا. «هل ستقوم بأخذها؟».

هززت رأسي. «سأتصل بجان-فيليكس. يمكنه تولّي مسؤولية ذلك».

هزّت إنديرا رأسها. «مؤسف أنه لا يمكنك الاحتفاظ بها».

نظرت إلى اللوحة للحظة. كانت اللوحة الوحيدة التي لم

تعجبني من جميع لوحات أليسيا. غريبة هذه اللوحة، تتناولني كموضوع لها.

أريد أن أكون واضحاً - لم أعتقد مطلقاً أن أليسيا ستطلق النار على غابرييل. هذه نقطة مهمّة. لم أقصد ولم أتوقّع أليسيا أن تقتله. كل ما أردته هو أن أكشف لأليسيا حقيقة زواجها، كما كنت قد اكتشفتها. كان قصدي أن أبيّن لها أن غابرييل لم يكن يحبها، وأن حياتها كانت كذبة، وأن زواجهما كان خِداعاً. عندها فقط كان سيكون لديها فرصة، كما كان لدي، لبناء حياة جديدة من الأنقاض؛ حياة قائمة على الحقيقة، وليس على الأكاذيب.

لم يكن لدي أي فكرة عن تاريخ عدم الاستقرار النفسي لأليسيا. لو كنت أعرف، لَمَا كنت قد تشدّدت في ردّ فعلي. لم أكن أعلم أنها سوف تتفاعل بهذه الطريقة. وعندما نُشرت القصة في كل الصحف وكانت أليسيا تُحاكَم بتُهمة القتل، شعرتُ شعوراً عميقاً بالمسؤولية الشخصية؛ ورغبتُ في التكفير عن ذنبي، وإثبات أنني لم أكن مسؤولاً عمّا حدث. لذا تقدمت للعمل في ذا غروف. أردت أن أساعدها لتتجاوز نتائج جريمة القتل - أساعدها على فهم ما حدث، وتجاوزه - لكي تكون حرّة. بالطبع لو كنت ذا حسٍّ ساخر، قد تقول إنني أعيد مراجعة مسرح الجريمة، إذا جاز التعبير، لتغطية آثار الجريمة. هذا ليس صحيحاً. على الرغم من أنني كنت أعرف مخاطر مثل هذا المسعى - احتمال حقيقي أن أُكتشف، وأن تنتهي هذه المحاولة بكارثة القبض عليّ، لم يكن لدي أي خيار للقيام بذلك - بسبب من أنا.

أنا طبيب نفسي، تذكّروا. كانت أليسيا بحاجة إلى مساعدة - وعرفتُ كيف أساعدها.

كنت قلِقاً من أنها قد تعرفني، على الرغم من ارتدائي القناع وتغيير صوتي. لكن لا يبدو أن أليسيا عرفتني. تمكّنتُ من لعب دور جديد في حياتها. وثم، في تلك الليلة في كامبريدج، فهمت أخيراً ما قمت به عن غير قصد بإعادة نبش أرض الألغام التي غمرها النسيان لوقت طويل والتي كنت قد مشيت فوقها. كان غابرييل الرجل الثاني الذي حكمَ على أليسيا بالموت؛ كان إحياء هذه الصدمة الأصلية من جديد أكثر ممّا كانت أليسيا قادرة على تحمّله - وكان هذا هو السبب في أنها التقطت المسدّس ومارسَت انتقامها الذي طال انتظاره، ليس على والدها - ولكن على زوجها. كما اشتبهتُ في ذلك، كان للقتل أصول أقدم وأعمق ممّا قمت به.

لكن عندما كذبَت عليّ أليسيا بشأن الطريقة التي قُتل بها غابرييل، كان واضحاً أنها عرفتني وكانت تختبرني. كنت مضطرّاً لاتّخاذ إجراء ما، لإسكات أليسيا إلى الأبد. كان لدي كريستيان لأحمّله اللوم - عدالة شِعرية. لم يكن لدي أي إحساس بالذنب حول إلباسه التُّهمة. فَشِلَ كريستيان في مساعدة أليسيا عندما احتاجت إليه أكثر؛ كان يستحق أن يعاقَب.

لم يكن إسكات أليسيا بهذه السهولة. حقنها بالمورفين كان أصعب شيء قمتُ به على الإطلاق. الحقيقة أنها لم تمت، ولكن كانت نائمة، وهذا أفضل حلّ - وبهذه الطريقة، لا يزال بإمكاني زيارتها كل يوم والجلوس بجانب سريرها ومسك يدها. لم أفقدها تماماً.

«هل انتهينا؟»، سألت إنديرا، مقاطعةً أفكاري.

«أعتقد ذلك».

«حسناً. يجب أن أذهب، لدي مريض في الثانية عشرة».

قلت: «تفضّلي».

«أراك وقت الغداء؟».

«نعم».

لمسَت إنديرا ذراعي، وغادرَت.

نظرتُ إلى ساعتي. فكّرت في المغادرة مبكّراً للبيت. شعرتُ بالإرهاق. كنت على وشك إطفاء الضوء ومغادرة المكان عندما خطرت ببالي فكرة وشعرت بجسدي يتجمّد في مكانه.

اليوميّات. أين كانت؟

تنقّلَت عيناي بسرعة في أرجاء الغرفة، كان كل شيء معبّأ بدقّة وموضوعاً في صناديق. فتّشنا كل شيء. كنت قد نظرت وفتشت كل واحد من أشيائها الشخصية.

ولم تكن هناك.

كيف يمكن أنني كنت غير مبالٍ؟ كان السبب إنديرا وثرثرتها السخيفة التي لا نهاية لها. لقد جعلتني أفقد الانتباه والتركيز.

أين هي؟ كان يجب أن تكون هنا. من دون اليوميّات كان هناك القليل من الأدلة الثمينة لإدانة كريستيان. كان عليّ أن أجدها.

فتّشتُ الغرفة، وشعرتُ بالقلق الشديد. قلبتُ صناديق الورق المقوّى رأساً على عقب، وتناثرت محتوياتها على الأرض. فتّشت الحُطام، لكنها لم تكن هناك. قطّعت ملابسها، ولكن لم أجد شيئاً. فتحت حقيبتها الفنية، ألقيت بالرسومات على الأرض، ولكن لم تكن اليوميّات بينها. ثم فتّشت الخزائن، وسحبتُ كل الأدراج، وتحقّقتُ من أنها كانت فارغة، ثم ألقيت بها جانباً.

لكن لم تكن هناك.

3

كان جوليان مكماهون من المؤسّسة المموِّلة ينتظرني في قاعة الاستقبال. كان ضخم البنية وله شعر أحمر ومجعّد ومولع بعبارات مثل «بيني وبينك» أو «في نهاية المطاف» أو «الخُلاصة»، والتي كانت تظهر بشكلٍ متكرِّر في محادثته؛ وفي كثير من الأحيان في الجملة نفسها. وكان على العموم شخصاً غير مؤذٍ - الوجه الودّي للمؤسّسة. أراد أن يتحدّث معي قبل أن أذهب للمنزل.

وقال: «لقد أتيت للتوّ من عند الأستاذ ديوميديس. اعتقدت أنه يجب أن تعرفَ - لقد استقال».

«آه. أرى ذلك».

«أخذَ التقاعُد المبكّر. بيني وبينك، كان له اختياران، إمّا التقاعد وإمّا مواجهة تحقيق في هذه الفوضى...»، هزّ كتفَيه. «لا يمكنني إلا أن أشعر بالأسف بالنسبة إليه - فهذه ليست نهاية مجيدة للغاية لحياة طويلة ومتميّزة. ولكن على الأقل بهذه الطريقة سيكون تجنُّب تشهير الصحافة وجميع القيل والقال. بالمناسبة، لقد ذكرَ اسمك».

«ديوميديس؟».

«نعم فعلاً. اقترحَ أن نعطيك وظيفته». غمزني جوليان. «وقال إنك الرجل المثالي لذلك».

ابتسمت. «ذلك لطيف جداً».

«لسوء الحظ، في نهاية المطاف، بالنظر إلى ما حدث لأليسيا، واعتقال كريستيان، لا يمكن إبقاء ذا غروف مفتوحاً. سنغلقه نهائياً».

«لا أستطيع القول إنني فوجئت. في الواقع، ليس هناك منصب أشغله؟».

«حسناً، خُلاصة القول هي - إننا نخطِّط لفتح مصلحة جديدة للطبّ النفسي وأكثر فعالية من حيث التكلفة هنا في الشهور القليلة المقبِلة. ونودُّ منك أن تفكر في تسييره، ثيو».

كان من الصعب إخفاء حماسي. وافقتُ بسرور.

قلت: «بيني وبينك»، مستعيراً إحدى عباراته، «إنها نوع الفرصة التي أحلمُ بها». وكانت كذلك - فرصة لمساعدة الناس بطريقة عملية، وليس فقط علاجهم بالأدوية؛ مساعدتهم بالطريقة التي أعتقد أنه يجب مساعدتهم بها. الطريقة التي ساعدتني بها روث؛ وحاولتُ مساعدة أليسيا بها.

لقد نجحَت الأمور بشكل جيّد بالنسبة إليّ - سأكون غير ممتنٍّ إن لم أعترف بذلك.

يبدو أنني حصلت على كل ما أردت. حسناً، تقريباً.

في العام الماضي، انتقلت أنا وكاثي من وسط لندن إلى سُري - العودة إلى حيث نشأت. بعد وفاة أبي، ترك لي منزلاً؛ على الرغم من أنه كان من المفروض أن تعيش فيه والدتي حتى تموت، قررَت إعطاءه لنا، وانتقلت إلى مركز رعاية المسنين.

اعتقدت أنا وكاثي أن المساحة الإضافية والحديقة تستحقُّ منا تحمُّل عناء الانتقال اليومي إلى لندن. اعتقدت أنه سيكون جيّداً لنا. وعدنا أنفسنا بأننا سنصلح المنزل، ووضعت خططاً لإعادة ترميمه

وتزيينه. لكن مرَّ ما يقرب من عام منذ انتقلنا، وبقي المكان غير مكتمل، نصف مزخرف، والصور والمرآة المحدبة التي اشترينا من سوق بورتوبيلو لا تزال مسندة على الجدران غير المصبوغة. بقيَ المنزلُ المنزلَ نفسه الذي نشأت فيه. لكنني لم أكن أمانع الطريقة التي فكرت بها لتغيير المنزل. في الحقيقة، كنت أشعر بالراحة في هذا المنزل كما هو، وهو أمر مثير للسخرية.

وصلت إلى المنزل ودخلت. خلعت مِعطفي - كان الجوّ حارّاً، مثل غرفة النبات الدفيئة. خفضت منظّم الحرارة في الرواق. كانت كاثي تحب أن يكون المنزل دافئاً جداً، بينما كنت أفضّل أن يكون بارداً - لذا كانت درجة الحرارة إحدى ساحات المعارك الصغيرة بيننا.

سمعت التلفاز من الرواق. كان يبدو أن كاثي تشاهد الكثير من التلفاز في هذه الأيام. أصوات لا تنتهي من القمامة التي تطبع حياتنا في هذا المنزل.

وجدتها في غرفة الجلوس، ملفوفة كُكرة لولبية على الأريكة. كان كيس عملاق من رقائق الجمبري المتنوّعة في حضنها، وكانت تلتقطها بأصابع حمراء لزجة وتضعها في فمها. كانت دائماً تأكل أكلاً من هذا القبيل؛ وليس من المستغرَب أنها اكتسبت وزناً مؤخّراً. لم تكن تشتغل كثيراً في العامَين الماضيَّين - وأصبحَت منطوية على ذاتها تماماً، وحتى مكتئبة. أراد طبيبها وصف مضادّات الاكتئاب لها لكني لم أشجّعها على ذلك. اقترحت عليها زيارة معالج نفسي والحديث عن مشاعرها. عرضت عليها أن أبحث لها عن طبيب نفسي. لكن كاثي لا تريد التحدُّث، على ما يبدو.

أحياناً أضبطها وهي تنظر إليّ بغرابة - وأتساءل عمّا كانت تفكر به. هل تحاول جمع الشجاعة الكافية لتخبرني عن غابرييل

وعلاقتهما؟ لكنها لا تقول شيئاً. جلسَت في صمت، كما اعتادت أليسيا على ذلك. أتمنى أن أتمكّن من مساعدتها - لكن لا يبدو أنه يمكنني الوصول إليها. هذه هي المفارقة الفظيعة: فعلت كل هذا للحفاظ على كاثي - لكني فقدتها على أي حال.

جلستُ على مسند الأريكة وشاهدتها للحظة. قلت: «إحدى مريضاتي أخذت جرعة زائدة. إنها في غيبوبة». لم يكن هناك أي ردّ فعل. «يبدو كما لو أن أحد الموظفين قام بحقنها جرعة زائدة عن عمد. زميل». لم يكن هناك أي ردّ فعل.

«هل تستمعين إليّ؟».

هزَّت كاثي كتفها قليلاً. «أنا لا أعرف ما أقول».

«قد يكون بعض التعاطُف لطيفاً».

«مع من؟ معك؟».

«معها. لقد كنت أراها منذ فترة في العلاج الفردي. اسمها أليسيا بيرينسون».

نظرتُ إليها وأنا أقول هذا. لم يصدر أي ردّ فعل من كاثي. ولا حتى وميض من العاطفة. تابعت: «إنها مشهورة، أو سيّئة السُّمعة. كان الجميع يتحدّث عنها منذ بضع سنوات. لقد قتلت زوجها. . . هل تتذكرين؟».

«لا، ليس حقاً». هزّت كتفها وغيّرت القناة.

وهكذا نواصل لعبتنا «دعونا نتظاهر».

يبدو أنني أقوم بالكثير من التظاهُر، هذه الأيام - تُجاه الكثير من الناس، بمن فيهم أنا. لهذا السبب أنا أكتب هذا، أفترض. محاولة لتجاوز الأنا الوحشية، والوصول إلى الحقيقة عن نفسي - إذا كان ذلك ممكناً.

كنتُ بحاجة إلى شراب. ذهبتُ إلى المطبخ وسكبت لنفسي

جرعة من الفودكا من الثلاجة. أحرقت حلقي وأنا أبتلع ذلك. سكبت أخرى.

تساءلت عما ستقول روث إن ذهبت وناقشتها مرة أخرى - كما فعلت منذ ست سنوات، واعترفتُ بكل هذا لها؟ لكن كنت أعرف أنه كان مستحيلاً. أنني كنت تماماً نوعاً مختلفاً من المخلوقات الآن، شيئاً أكثر إحساساً بالذنب، أقلّ قدرة على الصّدق. كيف يمكنني أن أجلس مقابل تلك السيدة العجوز الهشّة وأنظر إلى تلك العينَين المائيتَين الزرقاوين اللتين حملتاني بأمان لفترة طويلة، ولم تعطياني سوى الحِشمة واللُّطف والحقيقة - وأكشف لها كيف أصبحت كريهاً، وقاسياً، ومحبّاً للانتقام ومنحرفاً. كم هو قوي شعوري بأنني لا أستحق روث وكل شيء حاولَت القيام به من أجلي؟ كيف يمكنني أن أقول لها إنني دمّرتُ ثلاثة أشخاص؟ ليس لدي أي مرجعية أخلاقية؛ أنني قادر على أسوأ أنواع الأعمال دون ندم؛ وأهتم فقط بنفسي؟

أسوأ من الصدمة أو التقزُّز، أو حتى الخوف، في عينَي روث وأنا أقول لها هذا، ستكون نظرة الحزن، وخيبة الأمل وتوبيخ الذات. ليس فقط لأني سمحت لنفسي بخذلانها، بل لأنني أعلم أنها سوف تفكّر أنها **خذلتني** - وليس أنا فقط، بل العلاج نفسه. لا يوجد معالج على الإطلاق لديه تصور أفضل من روث - أمضَت سنوات من العمل مع شخص أصيب بأضرار، نعم - ولكنه كان صغير السنّ، مجرّد صبي - وعلى استعداد للتغيير، للحصول على الأفضل، للشفاء. وحتى الآن، على الرغم من مئات الساعات من العلاج النفسي والحديث والاستماع والتحليل، كانت غير قادرة على إنقاذ روحه. ربما كنت مخطئاً. ربما يولد البعض منا أشراراً. وعلى الرغم من قصارى جهدنا، فإننا نبقى كذلك.

رنَّ جرس الباب، وأيقظني من أفكاري. لم يكن حدثاً عادياً، زائر المساء، وليس منذ انتقلنا إلى سُري. لم أستطع حتى تذكّر آخر مرة زارنا فيها أصدقاء.

«هل تتوقّعين شخصاً ما؟»، سألتها، ولكن لم يكن هناك ردّ. ربما لم تسمعني كاثي لانشغالها بمشاهدة التلفاز.

ذهبت إلى الباب الأمامي وفتحته. لدهشتي، كان رئيس المفتِّشين آلن. كان رأسه ملفوفاً في وشاح ويلبس معطفاً وكانا خدّيه محمرَّين.

قال: «مساء الخير يا سيد فابر».

«المفتِّش آلن؟ ما الذي تفعله هنا؟».

«حدث أن مررت بالحي، واعتقدت أنه يمكنني أن أراك لإطلاعك على بعض التطورات. هل الوقت مناسب الآن؟».

ترددت. «لأكون صادقاً، أنا فقط على وشك طهي العشاء، لذا ـــ».

«لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً».

ابتسمَ آلن. من الواضح أنه لن يتقبل أي أعذار، لذلك تنحّيت جانباً وسمحت له بالدخول. بدا سعيداً لوجوده في الداخل. خلع قفازَيه ومعطفه.

وقال: «لقد أصبح الجوّ بارداً في الخارج. بارد بما فيه الكفاية لسقوط الثلج، أراهن على ذلك».

كانت زجاجتا نظارته قد غطاهما البخار، خلعها ومسحها بمنديله.

قلت: «أخشى أن يكون الجوّ حارّاً بعض الشيء هنا».

«ليس بالنسبة إليّ. لا يمكن أن يكون دافئاً جداً بالنسبة إليّ».

«يتناسب ذوقك هذا مع ما تحب زوجتي».

مباشرة وكما توقّعت، ظهرت كاثي في الرواق. نظرَت إلى المفتِّش مستفسِرة. «ماذا يحدث هنا؟».

«كاثي، أقدِّم لك المفتِّش آلن. إنه المسؤول عن التحقيق حول المريضة التي ذكرتها لك».

«مساء الخير، سيّدة فابر».

«المفتِّش آلن يريد التحدث معي عن شيء ما. لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. اصعدي إلى الطابق العلوي وخدي حمّامك، وسأناديك عندما يكون العشاء جاهزاً».

أومأت برأسي إلى المفتِّش ليدخل إلى المطبخ.

قلت: «تفضّل».

ألقى المفتِّش آلن نظرة سريعة على كاثي مرة أخرى قبل أن يدور ويدخل إلى المطبخ. تبعته، تاركاً كاثي في الرواق، قبل أن أسمع خطواتها تسير ببطء إلى الطابق العلوي.

سألته: «هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً تشربه؟».

«شكراً لك. ذلك لطيف جداً. فنجان من الشاي سيكون جيّداً».

رأيت عينَيه تذهبان إلى زجاجة الفودكا على المنضدة. ابتسمت.

«أو شيئاً أقوى إذا كنت تفضّل ذلك؟».

«لا، شكراً. فنجان من الشاي يناسبني تماماً».

«كيف تفضّله؟».

«قوياً، من فضلك. وما يكفي من الحليب لتلوين ذلك. بلا سكّر، أحاول أن أتوقّف عن تناوله».

أثناء حديثه، جنحَ عقلي - متسائلاً عمّا كان يفعله هنا، وعمّا إذا كان يجب أن أكون متوتّراً. كانت طريقته لطيفة جداً وكان من

الصعب ألا تشعر بالأمان معه. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك شيء يمكن أن يكشفني، أليس كذلك؟

قمت بتشغيل الغلاية، والتفتُّ لأواجهه.

«ما الأمر، أيها المفتِّش؟ ما الذي كنت تريد التحدث معي بشأنه؟».

«حسناً، عن السيّد مارتن بشكلٍ أساسي».

«جان-فيليكس؟ حقاً؟ لقد فاجأني ذلك. ما شأنه؟».

«حسناً، لقد جاء إلى ذا غروف لجمع الموادّ الفنية الخاصة بأليسيا، وتحدثنا عن بعض الأشياء. رجل مثير للإعجاب، السيد مارتن. إنه يخطِّط لاسترجاع أعمال أليسيا بمعرض استعادي. يبدو أنه يعتقد أن الآن هو الوقت المناسِب لإعادة تقييمها كفنّانة. بالنظر إلى كل الدعاية، أجرؤ على القول إنه على صواب». ألقى عليّ نظرة فاحِصة. «قد ترغب في الكتابة عنها يا سيّدي. أنا متأكد من أنه سيكون هناك اهتمام بكتاب أو شيء من هذا القبيل».

قلت: «لم أفكّر في ذلك. ما شأني بالضبط بما سيقوم به جان-فيليكس بالمعرض الاستعادي، أيها المفتِّش؟».

«حسناً، كان السيد مارتن متحمّساً بشكلٍ خاص لرؤية اللوحة الجديدة - لا يبدو أنه يشعر بالقلق من أن إليف شوّهتها. قال إنه أضاف جودة خاصة إليها - لا أستطيع أن أتذكر بالضبط الكلمات التي استخدمها - لا أعرف الكثير عن الفنّ. هل لك معرفة به؟».

«ليس حقاً»، تساءلت عن المدّة التي سيستغرقها المفتِّش للوصول إلى موضوع زيارته، ولماذا كنت أشعر بعدم الارتياح بشكلٍ متزايد.

وتابعَ: «على أي حال، كان السيد مارتن معجباً بالصورة. التقطها للنظر إليها عن كثب، وكانت هناك».

«ماذا كان هناك؟».

«هذه».

أخرج شيئاً من داخل سترته. عرفتها على الفور.

اليوميّات.

غلى الماء وانطلقت صرخة في الهواء. أطفأته، وسكبتُ بعض الماء المغلي في الفنجان. حركته، ولاحظتُ يدي ترتجف قليلاً.

قلت: «أوه، جيّد. تساءلت عن أين كانت مختفية».

قال: «مثبّتة في الجزء الخلفي من اللوحة. في الزاوية العُليا على يسار الإطار. كانت مقحَمة هناك بقوة».

إذاً خبأتها هناك، فكّرت. الجزء الخلفي من اللوحة التي كنت أكره. المكان الوحيد الذي لم أفتّشه.

لمسَ المفتِّش الغطاء الأسود المجعّد والباهت وابتسم. فتحه ونظر من خلال الصفحات. «رائعة. هذه الأسهم، والغموض».

أومأت. «صورة لعقل مضطرب».

تصفّح المفتِّش اليوميّات حتى النهاية، وثم - بدأ القراءة منها بصوت عالٍ:

«... كان خائفاً - من صوتي... أمسكَ بمعصمي... وأدخل الإبرة في وريدي».

شعرتُ بذعر متزايد ومفاجئ. لم أكن أعرف هذه الكلمات. لم أقرأ هذا النصّ. كان هذا الدليل على جريمتي الذي كنت أبحث عنه - وكان في الأيدي الخطأ. أردت أن أنتزع اليوميّات من آلن وأمزّق الصفحات - لكنني لم أستطع القيام بأي حركة. لقد كنت محاصَراً. بدأت أتعثّر في الكلام.

«أنا - أنا أعتقد حقاً أنه من الأفضل أن...».

تحدّثت بعصبية شديدة، وسمعَ المفتِّش الخوف في صوتي.

«ماذا؟».

«لا شيء».

لم أقم بأي محاولة لمنعه. أي فعل كنت سأقوم به سيعتبر دليلاً على جريمتي، على أي حال. لم يكن هناك مخرَج. وأغرب شيء في الأمر، شعرتُ بالارتياح.

«لا أعتقد أن وجودك في الحي الذي أقيم فيه كان صدفة على الإطلاق، أيها المفتِّش»، وسلّمت له الشاي.

«آه. لا، أنت على حقّ تماماً. اعتقدت أنه من الأفضل عدم الإعلان عن نية زيارتي على عتبة الباب. ولكن الحقيقة هي أن هذا يوضِّح الأشياء بطريقة مختلفة إلى حدٍّ ما».

«أنا أتطلع إلى سماع ذلك»، سمعتُ نفسي أقول. «هل ستقرؤها بصوت عالٍ؟».

«ممتاز».

شعرت بالهدوء بشكلٍ غريب أثناء جلوسي على الكرسي بجانب النافذة. وبعدما نظّف حلقه، بدأ.

«لقد غادر ثيو للتوّ، أنا وحدي. أنا أكتب هذا بأسرع ما يمكنني...».

بينما كنت أستمع، نظرتُ إلى السُّحب البيضاء المنجرفة.

أخيراً مرّوا - وبدأ الثلج - كانت رقاقات الثلج تسقط في الخارج. فتحتُ النافذة وأخرجت يدي. أمسكت رقاقة ثلج. شاهدتها وهي تختفي، تتلاشى بين أصابعي. ابتسمتُ.

وقبضتُ على رقاقة أخرى.

شكر وتقدير

أنا مَدين كثيراً لعميلي، سام كوبلاند، لجعله كل هذا يحدث. وأنا ممتنٌّ بشكلٍ خاصّ لمحرّرَي - بن ويليس في المملكة المتحدة وريان دوهرتي - في الولايات المتحدة لجعلهما الكتاب أفضل بكثير.

أنا مَدين بدَين خاصّ لجيمي راب وديب فوتر في سيلادون للمراهنة عليّ ولكونهما مصدر إلهام بالنسبة إليّ - وفريقهما الرائع الذي يضمُّ آن تومي، راشيل تشو وكريستين ميكيتشن. في أوريون، أودُّ أن أشكر هارييت بورتون، بوبي ستيمبسون وآمي ديفيس لاشتغالهم العظيم على هذا الكتاب. وفي روجرز، كوليردج ووايت، أشكر فريق الحقوق الأجنبية اللامع والدؤوب، الذي يضمُّ كذلك زوي نيلسون، ستيفن إدواردز وتريستان كيندريك.

أودُّ أيضاً أن أشكرَ هال جينسين وإيفان فيرنانديز سوتو لتعليقاتهما التي لا تقدّر بثمن. وكيت وايت لشرحها لي لسنوات الطريقة التي يتم بها العلاج النفسي الجيّد؛ أشكرُ الشباب والموظفين في نورثغيت على كل شيء علّموني إياه. أشكر ديان مداك لسماحها لي باستخدام منزلها كملاذٍ للكتابة؛ وأشكر أوما ثورمان وجيمس هاسلام لأنهما جعلاني كاتباً أفضل. وعلى جميع الاقتراحات المفيدة، والتشجيع، أشكر إميلي هولت، فيكتوريا هولت، فانيسا هولت، نيدي أنتونيادس، وجو آدمز.

ألكس ميكايليديس

المريضة الصامتة t.me/t_pdf

«رواية رائعة جعلت دمي يفور - لم أستطع التوقف عن قراءتها بأي شكل من الأشكال. قلت لنفسي سأستسلم لها؛ بعد إحدى عشرة ساعة - إنها الخامسة و47 دقيقة صباحاً - أنهيتها وأنا منبهر جداً».

آ. ج. فين

«رواية لا يمكن التوقف عن قراءتها، تقشعر لها الأبدان، قوية، مع تطورٍ للأحداث من شأنه أن يجعل حتى القارئ الأكثر تجربة في روايات التشويق يتصبّب عرقاً بارداً».

مجلة بوكليست

«سأقرأ جزءاً إضافياً، جزءاً واحداً فقط، ثم أتوقف. عندما تبدأ بقراءة **المريضة الصامتة**، هذا ما ستقوله لنفسك، قبل أن تستسلم وتقرأ كلّ الرواية حتى تصل إلى النهاية الصادمة والذكية جداً - مهما كنت محقّقاً بارعاً، فإنك لن تتوقع نهاية كهذه».

إيميلي كوش

«أبدع ميكايليديس رواية سيكولوجية ساحرة، مُبتكرة وفريدة لدرجة أنها تؤسس لنوعٍ خاص بها. قرأتها في ليلتين واستمتعت بكلّ كلمة جميلة، بكل مواجهة شرسة، وبكل تحوّل مفاجئ. ستحترق الصفحات بفعل احتكاك أصابعك التي تقلّبها إلى النهاية».

ديفيد بالدتشي

«كتب ألكس ميكايليديس إحدى أفضل الروايات السيكولوجية التي قرأت. **المريضة الصامتة** هي رواية يمكن اعتبار نهايتها إحدى أكثر النهايات صدمة وإثارة في الذاكرة الحديثة».

بليك كراوتش

«حبكة مُحكَمة، تشويق هيتشكوكي، نهاية صادمة. اقرأوا هذه الرواية».

لوسي فولي



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com


ISBN 978-9953-68-945-6